

جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

أدب الكوارث الطبيعية في العصر المملوكي الأول (648 - 784هـ) دراسة موضوعية وفنية

إعداد

إسراء عبد الجبار ذياب كلش

إشراف

د. رائد مصطفى عبد الرحيم

قدمت هذه الأطروحة استكمالاً لمتطلبات الحصول على درجة الماجستير في برنامج اللغة العربية وآدابها بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.

2013م

أدب الكوارث الطبيعية في العصر المملوكي الأول
(648 - 784هـ) دراسة موضوعية وفنية

إعداد

إسراء عبد الجبار ذياب كلش

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ 2013/9/12م، وأجيزت.

التوقيع

أعضاء لجنة المناقشة

.....

1. د. راند عبد الرحيم / مشرفاً ورئيساً

.....

2. أ. د. مشهور الحبازي / ممتحناً خارجياً

.....

3. د. عبد الخالق عيسى / ممتحناً داخلياً

الإهداء

إلى التي انتظرتُ بصبر

أمِّي

إلى والدي الطيب

إلى أخواتي وإخوتي

و زوجي العزيز

الشكرُ والتقديرُ

أَتَقَدِّمُ بالشكرِ الجزِيلِ والامتنانِ الكَبِيرِ، لِأَسْتاذِي الدكْتورِ رائِدِ مصطَفى عَبدِ الرَّحِيمِ، لِإِشْرَافِهِ عَلَي رِسالَتِي بِالمُتَابَعَةِ وَالإِرشادِ وَالنَّصِيحَةِ وَتَقْدِيمِ المَعْلومَةِ، فَلَوْلَا ما خَرَجْتَ هذِهِ الدِراسَةَ عَلَي صُورَتِها المُرَجوَّةِ.

وَأَتَقَدِّمُ بِشُكْرِي الجَزِيلِ لِأَسْتاذِي الكَرِيمِينِ ، الأَسْتاذِ الدكْتورِ مَشهورِ الحَبَّازِي، وَالدكْتورِ عَبدِ الخالِقِ عِيسَى ، عَلَي تَفَضُّلِهما بِمناقِشَةِ أطْرُوحَتِي.

وَلِلَّهِ الحَمْدُ وَالشُّكْرُ كُلُّهُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدِ .

الإقرار

أنا الموقعة أدناه، مقدمة الرسالة التي تحمل العنوان:

أدب الكوارث الطبيعية في العصر المملوكي الأول (648 – 784هـ)

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة كاملة، أو أي جزء منها لم يُقدم من قبل لنيل أي درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted elsewhere for any other degree or qualification.

Student's Name:

اسم الطالبة:

Signature:

التوقيع:

Date:

التاريخ:

فهرس المحتويات

الصفحة	الموضوع
ج	الإهداء
د	الشكر والتقدير
هـ	الإقرار
و	فهرس المحتويات
ط	الملخص
1	المقدمة
3	الفصل الأول: الآثار الاجتماعية والاقتصادية السلبية والإيجابية
4	الجانب السلبي الاجتماعي والاقتصادي
4	1. الخوف والقلق من الكارثة
6	2. الخسائر المادية
6	أ- الحيوانات والزررع
9	ب. الأبنية والعمائر
10	3. الغلاء والجوع
14	4. المرض والموت
18	الجانب الإيجابي الاجتماعي
19	الآثار السياسية: السلبية والإيجابية
20	الجانب السلبي للأثر السياسي
20	أ- الجانب النفسي
21	ب- الجانب المادي
23	الجانب الإيجابي للأثر السياسي
24	الآثار الثقافية
30	الفصل الثاني: الدراسة الموضوعية
31	الصورة العامة للكارثة
31	أولاً: تفسير الكارثة
39	ثانياً: انتشار الكارثة في البلاد
43	ثالثاً: عُنْف الكارثة وشِدَّتْها

الصفحة	الموضوع
46	رابعاً: نتائج الكوارث الطبيعية
46	الآثار السلبية
46	أ- الأثر النفسي للكارثة
46	1- الخوفُ والقلق
53	2- الحزن والألم والنظرة السلبية للحياة
56	ب- الآثار الاقتصادية والاجتماعية
56	1- أثرُ الكوارث في المنشآت العمرانية والثقافية
61	2- آثار الكوارث الطبيعية في الزراعة
64	3- الغلاء
66	4- انتشار الموت
73	5- مظاهر سلبية أخرى
78	ج- الآثار الإيجابية في أدب الكوارث الطبيعية
91	الفصل الثالث: الدراسة الفنية
92	بنية النصّ الأدبي
101	وحدة النصّ الأدبيّ
108	اللغة
117	الأساليب
117	- التناص
118	1. التناص الدينيّ
125	2. التناص الأدبيّ
134	- استخدام مصطلحات العلوم
137	- التكرار
140	- الأسلوب الحواريّ
142	- الأساليب الإنشائية
145	الصنعة البديعية
146	الجناس
148	السجع
150	العكس

الصفحة	الموضوع
151	الطباق
153	التورية
153	الصورة الفنية
164	الخاتمة
166	قائمة المصادر والمراجع
b	Abstarct

أدب الكوارث الطبيعية في العصر المملوكي الأول
(648 - 784هـ)

إعداد

إسراء عبد الجبار نياح كلش

إشراف

د. رائد مصطفى عبد الرحيم

المُلخَص

تناولت هذه الدراسة موضوع أدب الكوارث الطبيعية في العصر المملوكي الأول (648 - 784هـ)، وقد كانت الكوارث الطبيعية، وما تزال، عاملاً من عوامل القلق والإرباك اللذين تُصاب بهما الأمم على مرّ العصور، وقد كثرت الكوارث الطبيعية وتنوّعت في العصر المملوكي الأول: كالتلوج، والسيول، والصواعق والزلازل، والبراكين، والطواعين، وكان لها آثار متنوّعة على نواحي الحياة المختلفة: الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية، والثقافية، والأدبية.

وقد كانت كثرة الكوارث الطبيعية التي عصفت بالدولة المملوكية في عهدها الأول، و تنوّع الفنون الأدبية التي عبّرت عنها، وعدم وجود دراسة شاملة مستقلة، الأسباب الرئيسة في اختيار هذا الموضوع.

وقد اعتمدت الدراسة على المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي و الجمالي، واستعانت بالتاريخ وأحداثه في تحليل الشعر وربطه بوقائع الكارثة ونتائجها، وأعانت على فهم بعض النصوص الأدبية.

وقد اشتملت الدراسة على الآتي:

الفصل الأول: تناول الآثار الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والثقافية للكوارث الطبيعية، من الناحيتين السلبية والإيجابية.

الفصل الثاني: وقف على الدراسة الموضوعية لأدب الكوارث الطبيعية.

الفصل الثالث: درس الخصائص الفنيّة لأدب الكوارث الطبيعيّة، من حيث بنية النصّ الأدبي واللغة، والأساليب، والبديع، والصورة الفنيّة.

الخاتمة: أجملتُ أهمّ النتائج التي توصلت إليها الدراسة .

المقدمة

الحمدُ لله ربِّ العالمين، مالكِ الملْك، ورافعِ السماءِ بغيرِ عمدٍ، وباسطِ الأرضِ دونَ مددٍ، ومانحِ الغيثِ، ومُربيِ الزرعِ، ومُرسلِ الرزقِ، وكهفِ الطمانينةِ، ربِّ الكونِ الذي لا يُحمدُ على مكروهٍ سواه، والصلاةُ والسلامُ على أشرفِ الأنبياءِ والمرسلين، شفيعه يومَ الدينِ، الذي بهِ يستجيرُ العبادُ في المحنِ والكوارثِ، وفي الملماتِ والمصائبِ، سيِّدنا محمدَ وعلى آله الطيبين الطاهرين. وبعد،

فشهد العصر المملوكي الأول كوارثَ طبيعيَّةً كثيرةً، من ثلوجٍ، وسيولٍ، وصواعقٍ، وبراكينٍ، وزلازلٍ، و طواعينٍ، ومجاعاتٍ ناتجةٍ عن الجَدبِ و الجفافِ، وتوقُّفِ الأنهارِ عن الفيضانِ، كان لها أثرٌ كبيرٌ في الأدبِ مبنوثٌ في كتبِ الأدبِ والتاريخِ والتراجمِ والنثرِ التاليفيِّ، وقد تحدَّثَ هذا الأدبُ عن أسبابِ الكارثةِ، ونتائجها، مقدِّماً صوراً مختلفةً لها، وعلى الرغمِ من كثرته وتميِّزِ موضوعاته وأساليبه الفنيَّةِ، فإنَّه لا توجدُ دراسةٌ علميَّةٌ شاملةٌ مستقلةٌ تناولته من جوانبه المختلفةِ، وكانت هذه أسبابُ اختياري لهذا الموضوعِ، فجاء هذا البحثُ يهدفُ إلى:

1- التعرفُ إلى الآثارِ الاجتماعيَّةِ والاقتصاديَّةِ والثقافيَّةِ والسياسيَّةِ السلبيةِ والإيجابيَّةِ التي خلفتها الكوارثُ الطبيعيَّةُ، في العصرِ المملوكيِّ الأولِ.

2- التعرفُ إلى فنونِ القولِ المختلفةِ التي كانتِ صدىً لهذه الكوارثِ.

3- التعرفُ إلى الموضوعاتِ التي طرقها أدبُ الكوارثِ الطبيعيَّةِ في العصرِ المملوكيِّ الأولِ.

4- التعرفُ إلى الخصائصِ الفنيَّةِ التي تميِّزُ بهِ أدبُ الكوارثِ الطبيعيَّةِ في هذا العصرِ.

وعلى الرغمِ من ذلك، فإنَّه توجدُ بعضُ الدراساتِ السابقةِ التي يمكنُ الاستفادةُ منها في هذا

الموضوعِ، منها:

- رسالة " النبا عن الوبا " لزين الدين بن الوردي ت749هـ دراسة نقدية، لرائد مصطفى عبد الرحيم ، التي كتَبها ابن الوردي إثر الطاعون الذي أصاب مدينة حلب سنة 749 هـ، فتناولتها الدراسة من جانبيين موضوعي و فنيّ.

- صورة المجتمع في الشعر المملوكي، لهناء علي سبيناتي، وهي رسالة دكتوراة غير منشورة صادرة في جامعة دمشق 2006-2007 ، إذ جاءت فيها على ذكر أثر الكوارث الطبيعيّة في المجتمع المملوكي من الناحية الاقتصاديّة وأثرها في الأدب.

- المدائح النبويّة حتّى نهاية العصر المملوكي، لمحمود سالم محمد ؛ إذ جاء فيه على ذكر أثر الكوارث الطبيعيّة في المديح النبويّ ؛ التي كانت ملجأً للناس لطلب الخلاص.

وأتبعتُ في دراستي المنهج الاستقرائي الوصفي التحليلي والجماليّ، فقد استقرأتُ المادّة الأدبيّة، وشرعتُ بدراستها وتحليلها و تصنيفها وبيان الجوانب الفنيّة فيها. واتكأت على التاريخ وأحداثه في فهم النصوص ودراستها.

وُبُنيت هذه الدراسة على مقدّمة، وثلاثة فصول، وخاتمة. وتناول الفصل الأوّل الأوضاع الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة التي رافقت الكوارث الطبيعيّة.

أمّا الفصل الثاني، فقد فصلّ في الفنون الشعريّة والنثريّة التي تناولت الكوارث الطبيعيّة، مظهرًا أسبابها، وأماكن انتشارها، وشدّتها، ونتائجها المختلفة بشقيها السلبيّ والإيجابيّ.

وتناول الفصل الثالث الخصائص الفنيّة لأدب الكوارث الطبيعيّة، وهي بنية النصّ الأدبيّ، واللغة، والأسلوب، والبديع، والصور الفنيّة.

وأجملتُ في الخاتمة، أهمّ النتائج التي توصلتُ إليها هذه الدراسة.

الفصل الأول

الآثار الاجتماعية والاقتصادية السلبية والإيجابية

الفصل الأول

الآثار الاجتماعية والاقتصادية السلبية والإيجابية

الجانب السلبي الاجتماعي والاقتصادي

تعرّضت مصرُ وبلادُ الشام والحجازُ لكوارث طبيعية متعدّدة الأشكال في العصر المملوكيّ الأوّل، ونتجَ عن هذه الكوارث آثار تتوعت في شدّتها وأثرها في الناس.

ومن أبرز هذه الآثار:

1. الخوفُ والقلقُ من الكارثة

إنّ أول ردّة فعلٍ تصيبُ الناسَ عند تعرّضهم لكارثة من أيّ نوع كانت، هي القلق من أثر هذه الكارثة و الخوف من ضررها حتى درجة الفرع أحياناً كثيرة .

وتتدرّج الحالة النفسية للناس، فقد تعبّر عن حالة قلق واضحة من إصابة بمرض أو انقطاع في الرزق لا سيّما عند الفلاحين؛ فمما أقلق الناس آفة الفار التي غزّت زروعهم "فأوجس الناس خيفة من ضرره"¹، أو ما فعلته ريحٌ شعواء شديدة فخامر "اليأس من المزروع قلوب الناس، وتيقنوا الهلاك"²

وقد يمتد القلق إلى مناحي الحياة الاجتماعية اليومية ، فقلّة المياه واحدةً من أكثر العوامل الطبيعية التي سبّبت القلق، الذي عانى منه الناس في العصر المملوكيّ لاسيما في مصر، ففي عام 694هـ مثلاً " قصر النيل بالديار المصرية تقصيراً قلق له الناس، وحصل منه اليأس...

¹ بيبرس المنصوري، ركن الدين الخطائي: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ. حقّق وقدم له ووضع فهرسه: عبد الحميد صالح حمدان. ط1. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية. 1993م.

ص107

² المقرئزي، السلوك، تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي: السلوك لمعرفة دول الملوك. ق3. صححه ووضع حواشيه محمد مصطفى زيادة. ط2. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة. 1970. ج2. ص 753

ويُبدل العام بأتراح عوضاً عن الأفراح، والانزعاج بدلاً من الابتهاج¹ ومع استمرار القصور في السنة اللاحقة" ساءت ظنون الناس وكثر الشح وضافت الأرزاق ووقفت الأموال، واشتد البكاء وعظم ضجيج الناس".² وسيطرت لأجل ذلك حالة من الحزن طيلة فترة الكارثة، كما حصل عندما حل الطاعون بأرض مصر عام 749 هـ الذي كان سببه قصور في النيل أيضاً فبطلت "الأفراح والأعراس من الناس، فلم يُعرف أن أحداً عمل فرحاً في مدة الوباء ولا سَمع صوت غناء"³.

وبعض الكوارث كانت سبباً في محاصرتهم في مساكنهم، فاخْتبأ بعض الناس فترة من الزمن من الكوارث حتّى لا يدركهم ضرر أو موت مثلما حصل في أثناء فيضان نهر دجلة عام 725هـ، إذ حوَصر ما حول بغداد ستة أيام، و ودّع أهلها بعضهم بعضاً⁴.

وحوَصر الناس فزعاً من آفة الجراد ما يربو على الأسبوع، كما حصل في عام 727هـ⁵.

ويحصل في شح المياه وقصور النيل ما يحصل في زيادته؛ إذ إنّ الزيادة تُغرق المحاصيل والمباني، ومن ذلك ما حصل في الزيادة الواقعة عام 723هـ إذ "كثّر الخوف في القاهرة واشتد الاحتراس"⁶.

³ بيبيرس المنصوري، ركن الدين الخطائي: زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة. تحقيق دونالد س. ريتشارد. بيروت: الشركة المتحدة للتوزيع. 1998 م. ص 305

² المقرئزي، السلوك. ج. 1، ق. 3. ص 814.

³ المصدر السابق. ج. 2. ق. 3. ص 783.

⁴ انظر: ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية. ط1. بيروت: مكتبة المعارف. 1977. . ج. 14. ص 117

⁵ أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم الدمشقي ابن الجزري: تاريخ حوادث الزمان وأبناؤه ووفيات الأكابر والأعيان من أبناؤه المعروف بتاريخ ابن الجزري، تحقيق عمر بن عبد السلام التدمري. ط1. بيروت: المكتبة العصرية. 1998. ج 2. ص 179

⁶ المقرئزي، السلوك. ج. 2. ق. 1. ص 251

وكان الناس يقرنون الكارثة بقيام الساعة، في ملمات مختلفة، فيصيبهم خوفٌ عظيم وكأنهم يعيشون نهاية العالم، ومن ذلك ما أصاب الناس في أثناء الزلازل؛ إذ عاش الناس مظهرين من مظاهر يوم القيامة، أولهما: الصراخ والفوضى الناتجين عن عدم استيعاب البشر لما يحصل معهم، وثانيهما: وضع كل ذات حملٍ حملها. ففي زلزلة مصر عام 702هـ — عظم الصراخ والعيول بين الناس عندما اهتزت الأرض، وخرج الناس من بيوتهم من الخوف والفرع، وكانت النساء تخرج غير مكترثة بستر وجوههن، حتى أسقطت الحامل جنينها منها¹.

2. الخسائر المادية

تنوّعت الخسائر المادية الناتجة عن الكوارث الطبيعية لتشمل الزروع والحيوان والمباني، وكان لها أثرٌ عظيم في تضرر الإنسان من الناحية الاقتصادية بشكل لافت، وتضرر الغطاء الحيوي المحيط به، ويمكن إجمال هذه الخسائر في الآتي:

أ- الحيوانات والزروع

تعرضت الثروة الحيوانية إلى خسارة كبيرة نتيجة الأحوال الطبيعية السيئة، وذلك إما بطريقة مباشرة، مثل مهاجمة الأوبئة والطواعين لها، أو بطريقة غير مباشرة، كتأثرها بعوامل الفيضانات، كفيضان النيل مثلا وكسر المنسوب الذي يؤدي إلى نقص في الزرع و التجارة والادخار بسبب إهلاك الغطاء النباتي، وبالتالي التأثير على الثروة الحيوانية، أو عامل القحط والجفاف الذي يمتد إلى الأراضي الزراعية، وبالتالي يؤدي إلى فناء الثروة الحيوانية، التي تقوم على عاتق الثروة النباتية².

فقد أدى فيضان بردى إلى إغراق سوق الخيل عام 764،³ و كان للكوارث الطبيعية دورٌ بارز في اقتلاع الأشجار وإغراق البساتين وإهلاك الحيوانات، ففي أثناء السيول التي حصلت

¹ انظر: المقرئزي، السلوك. ج1. ق3. ص942. انظر أيضا: ابن إياس، محمد بن محمد الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور. ق1. تحقيق ومقدمة: محمد مصطفى. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1982. ج1. ص 416

² انظر: الميموني، حامد عباس: الحياة الاقتصادية في مصر العليا خلال العصر المملوكي. ط1. القاهرة: مكتبة الآداب. 2005. ص 124

³ انظر: ابن كثير، البداية والنهاية، ج14. ص 300

ببلاد الشام اقتلعت الأشجار من أصولها كما حصل في سيل دمشق عام 669هـ، وغرقت حيوانات كثيرة¹، وهلك في مطر الشام الشديد عام 691هـ من "البقر والغنم والجواميس شيء كثير"²، و جرفت أشجارَ عشرين بستاناً، و عدداً كبيراً من الأراضي في سيل بعلبك عام 717هـ³.

وأدت زيادة النيل في مصر إلى النتائج ذاتها، إذ " تأخرت الزروع عن أوانها، وحصل للفلاحين الضرر الشامل"⁴، وفسد محصول القصب، وعدد من الغلال في المطامير والأجران والمخازن، وغرقت بساتين في زيادة للنيل عام 755.⁵

ومثل ذلك كان يحدث إذا قلّ الماء وقصّرت الأنهار عن الفيضان، ففي عام 669 هـ — حصل " من العجائب أن مياه دمشق والعاصي والفرات قلّت ونقصت نقصاً مجحفاً، حتى هلك شيء من الأشجار و بطلت الطواحين"⁶

وقصّر النيل في سنوات متعددة، فما نبت زرع في مصر وهلكت بسببه حيوانات الكلاب والحمير والسنانير"⁷، ومن أبرز سنوات القصور، الأعوام الثلاث المتتالية 694-695 - 696هـ.

وأثرت عوامل طبيعية مشابهة في الحيوان والنبات كالرياح الشديدة التي اقتلعت أشجار كبيرة من مغارسها، فاقتلعت حوالي أربعة آلاف نخلة في ساعة واحدة، وأهلكت الدواب وهو ما حصل عام 724هـ في أسوان وما يحيط بها،⁸ و أهلكت الثلج الدواب والمواشي عام

¹ انظر: بيبيرس المنصوري، مختار الأخبار، ص 45. النويري، شهاب الدين ابن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب. تحقيق الباز العريني. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1992. ج 31. ص 130.

² ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ج 1. ص 152

³ انظر: الفاخري، بدر الدين بكتاش: تاريخ الفاخري. ج 1. تحقيق عمر بن السلام تدمري. بيروت: المكتبة العصرية. 2010. ج 1. ص 426-427. ابن الجزري، تاريخ الجزري ج 1. ص 153. ابن كثير، البداية والنهاية، ج 14. ص 82.

⁴ ابن ياس، بدائع الزهور. ج 1. ق 2. ص 105.

⁵ انظر: المقرئزي، السلوك. ج 3. ق 1. ص 12

⁶ الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله بن محمد بن أحمد بن عثمان: تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام تحقيق عبد السلام تدمري. ط 1. بيروت: دار الكتاب اللبناني. 1998. ج 49. ص 58.

⁷ انظر: ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري. ج 1. ص 282.

⁸ انظر: المقرئزي، السلوك. ج 2. ق 1. ص 254.

745،¹ وكان للبرد نصيب من الإضرار بالزرع، ففي سنة 746هـ " سقط بردٌ مجوف قدر بيض الحمام، وبعضه مثقوب من وسطه، ووصل إلى الإسكندرية والبحيرة والغربية والمنوفية والشرقية، فأفسد كثيراً من النخيل"²، وحاق خلال سنوات متعددة بالشجر والثمر، ومن ذلك أنه في عام 729هـ أُنْف الصقيع في دمشق " الكروم والباذنجان وجميع الثمر.... وعدم لهم من الكروم ما يساوي مائتي ألف درهم"³

وكان يرافق بعض الظروف الجوية السيئة صواعق، فيهلك للناس رزقهم، مثلما حصل عام 666هـ في غوطة دمشق إذ نزلت صاعقة " أحرقت الشجر والثمر والزرع والكرم".⁴

وأثرت بعض القوارض والحشرات في إتلاف الغطاء النباتي، وخسارة المواسم لدى المزارعين، فكان الفأر إذا غزا النبات أُنْفه، ومن ذلك ما حصل في عام 697هـ إذ "ظهر بالديار المصرية من الفأر ما ملأ الأقطار، وكان الوقت قريباً من الحصاد، فساح على البلاد، واستهلك الزرع، وأتى على معظمه ومحقة، وقد قيل إنه كان يستهلك البلد الواحد جملةً كبيرة من الفدادين فلا يغادر سنبلة قائمة، وربما سبق الفلاحين إلى استهلاك زرعهم. حتى إن بعضهم كان يقصد معاجلتها، ويبيت وزرعه قائم وحرثه سالم، على أن يباكر إلى حصاده، ويبادر قبل فساده، فيمحقه الفأر تلك الليلة، فلا يغادر شيئاً".⁵

وكان للجراد حظ كبير ومتكرر من الخراب إذ كان يأكل كميات كبيرة من الثمار، فلا يكاد المزارع يحصد مما زرعه شيئاً.⁶

وحصدت الطواعين التي تأثرت بها البلاد الإسلامية في العصر المملوكي الأول من الحيوانات الشيء الكثير، ففي طاعون 749هـ " تواترت الأخبار من الغور وبيسان، وغير ذلك

¹ انظر: السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن: *وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام*. تحقيق بشار عواد معروف، عصام فارس الحرساني، أحمد الخطيمي. ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1995. ج1. ص6.

² السخاوي، *وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام*. ج1. ص16.

³ ابن الجزري، *تاريخ ابن الجزري*. ج2. ص332.

⁴ الذهبي، *تاريخ الإسلام*. ج49. ص38

⁵ المنصوري بيبرس، *مختار الأخبار*. ص107

⁶ انظر: ابن الجزري، *تاريخ ابن الجزري*. ج2. ص179

من النواحي أنهم كانوا يجدون الأسود والذئب والأرانب، وحُمر الوحش، والخنازير وغيرها من الوحوش¹ قد تعرضت للهلاك بفعل الطاعون، كما وجدت الأسماك في دمياط طافيةً على الماء وقد تعرضت للهلاك هي الأخرى².

ب. الأبنية والعمائر

تعرّضت الطرق والأبنية إلى خراب كبير، إثر الكوارث الطبيعية التي تعرضت لها الدولة الإسلامية في العصر المملوكي الأول، ففي إثر زلزلة عام 702هـ، تهدمت المنارة في الإسكندرية وتساقطت المآذن والأسوار والأحجار من الجدران وتداعت الأركان المشيدة³.

وخربت الجسور والخانات والمسكن والطواحين في سيول متعددة تعرضت لها الشام في سنوات عديدة، من أمثلتها سيل 669 هـ⁴، وسيل بعلبك الشهير عام 717 هـ الذي هدم أعداداً هائلة من البيوت والخراب والحوانيت، والطواحين، والحارات في إحصائيات تدل على عظم أضراره⁵.

وأدت زيادة النيل في سنوات متعددة إلى غرق بعض الأبنية، أو إلى تدهم البيوت التي تجاوره، كما حصل في أثناء زيادته عام 748 هـ⁶.

¹ انظر: السخاوي، وجيز الكلام. ج1. ص 34. ابن تغري بردي، جمال الدين أو المحاسن يوسف الأتابكي: النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة. ط1. م10. بيروت: دار الكتب العلمية. 1993، ص160. المقرئزي، السلوك. ج2. ق3. ص785

² انظر: المقرئزي، السلوك. ج2. ق3. ص785

³ انظر: بيبيرس المنصوري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة. ص779. الدواداري، أبو بكر بن عبدالله بن أبيك: كنز الدرر وجامع الغرر. تحقيق هاني روبرت رويمر. د.ط. القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة. د.س. . ج9. ص101 - 102. ابن كثير، البداية والنهاية، ج14. ص27. المقرئزي، السلوك. ج1. ق2. ص943. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة. ج8. ص161.

⁴ انظر: بيبيرس المنصوري، مختار الأخبار. ص45. الدواداري، كنز الدرر. ج8. ص160. شهاب الدين النويري، نهاية الأرب. ج32. ص130، ابن كثير، البداية والنهاية. ج14. ص259. المقرئزي، السلوك، ج1. ق2. ص596.

⁵ انظر: الفاخري، تاريخ الفاخري. ص446 - 447. النويري، نهاية الأرب. ج32. ص228.

⁶ انظر: المقرئزي، السلوك، ج1. ق2. ص769.

وذهب نتيجة لبعض الكوارث الطبيعية بعض مصادر العيش الذي اعتمد عليها السكّن في رزقهم كالسفن والمراكب، ففي عام 666هـ " هبّت ريحٌ عظيمةٌ بمصر غرقت في النيل نحو مائتي مركب " ¹

وكانت الريح عاملاً مساعداً أدى إلى انتشار حريق القاهرة عام 721هـ إذ " اشتد هبوب الرياح فسرت النار في عدة أماكن، وغرقت المراكب ونشرت النار ²، "فاحترقت جميع دور القاهرة في المناطق المجاورة للحريق ، وهدمت من أعلاها وأسفلها والنار تآكل سقوفها ³."

3. الغلاء والجوع

انعكست الآثار السلبية للكوارث الطبيعية على حركة الأسعار في الدولة المملوكية، ما أدى إلى زيادة شقاء الناس و فقرهم و بؤسهم. فمن جانب، فإنّ المناطق المنكوبة تؤدّي بسكّانها إلى القيام بحركة هجرة داخلية أو خارجية بحثاً عن مأوى لهم، ومعظم هؤلاء المهاجرين من الفلاحين الذين تركوا أراضيهم. ومن جانب آخر يحصل ارتفاع في الأسعار على العامة؛ فعلى سبيل المثال، تعتمد الأراضي المصرية على نهر النيل، ويشكّل ارتفاع منسوبه و انخفاضه في سنة أخرى مشكلة كبيرة لدى الناس.

فإذا قصر عن الوفاء فات أوان الزرع، وما عاد في يد الفلاح حيلة لكسب الرزق، وإذا زاد عن حدّه العادي أغرق الحقول الواقعة على ضفتيه وجعلها غير صالحة للزراعة. وحين يقلّ ماء النهر عن الحد اللازم للزراعة، يقلق الناس ويخافون من حدوث المجاعة نتيجة لكساد الموسم الزراعيّ في ذلك العام، ومن ثمّ يسارعون لتخزين الغلال التي لديهم ضمّاماً لقوتهم وقوت عيالهم، كما يسارع التجار إلى تخزين الغلال طمعا في الحصول على مزيد من الأرباح، عن طريق رفع الأسعار، و يشتدّ الإقبال على شراء الغلال، بينما يقل المطروح من البضائع في

¹ الذهبي، تاريخ الإسلام. ج. 49. ص 46

² المقريزي، السلوك، ج. 2. ق. 1. ص. 220.

³ انظر: المصدر السابق. ج. 2. ص. 221.

الأسواق بطبيعة، ويشند تراحم الناس على الأفران وحوانيت الغلال، ويستتبع ذلك بطبيعة الحال زيادة كبيرة في الأسعار التي تمتد إلى كل ما يباع ويشترى من مأكول ومشروب وملبوس¹

ففي أثناء قصور النيل عام 694هـ "أجذب الوجه الغربي من بُرقة وأعمالها وما يتاخمها فلم يصبها شيء من الوبل و الطل. ولم يزرع بها ما حلّ ولا ما قل²" نتج عن ذلك ارتفاع في الأسعار فبلغ سعر القمح بالقاهرة ومصر مائة وخمسين درهماً، ونقرة³ الإردب⁴ والشعير مائة، درهم، والفول والحبوب نحو ذلك⁵.

وارتفعت الأسعار أيضاً حتى إنّ السلع كانت تبقى في الوكالة عشرين يوماً لا يباع منها شيء⁶.

واستمر الغلاء حتى عام 695 هـ حتى "بيع الفروج الواحد بعشرين درهماً، والبطيخة بمائة درهم، والسفرجلة بثلاثين درهماً⁷".

وتأخر المطر مع دخول الشتاء في السنة ذاتها " فبلغ القمح كل غرارة⁸ في دمشق بمائة وسبعين درهماً، والخبز كل رطل بدرهم، واللحم كل رطل بأربعة دراهم ونصف".

¹ اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى: *نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر*. تحقيق ودراسة د. أحمد خطيط. ط1، بيروت: عالم الكتب. 1986. ص 81

² بيبيرس المنصوري، *زبدة الفكرة*. ص 305 – 306.

³ ووردت النقيير نسبة إلى ما ورد في القرآن الكريم: " ولا يظلمون نقيراً ". سورة النساء آية 124. وهي وحدة للكيل في بلاد فارس وما وراءها وفي البلاد العثمانية، وترد في بعض الكتب (نقيرة) وهي مختلفة الوزن من بلد لآخر. فاخوري، محمود وصلاح الدين خوّام: *موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية وما يعادلها بالمقادير الحديثة*. ط1، بيروت: مكتبة لبنان ناشرون. 2000. ص 222

⁴ وهي من المكابيل التي كان يتعامل بها الناس في مصر، وهي صعبة الحساب، وتختلف من منطقة لأخرى ومن عصر لآخر، إذ كانت مقسمة إلى ستة عشر جزءاً متساوية تدعى كل واحدة (ويبة)، والويبة تقسم إلى 4 أقسام كل قسم يسمى (ربع) وهو بالتالي مقسم إلى جزئين متساويين كل جزء يسمى (ملوة)، والملوة إلى جزئين كل جزء يسمى (قدحا)، وكل واحدة لها مقدار. انظر: المرجع السابق. ص 231 – 232

⁵ بيبيرس المنصوري، *زبدة الفكرة*. ص 305 – 306.

⁶ انظر: ابن الجزري، *تاريخ ابن الجزري*. ج1. ص 282

⁷ بيبيرس المنصوري، *مختار الأخبار*. ص 309.

⁸ وهي "من المكابيل العرفية التي كانت تستعمل في بعض البلدان العربية والإسلامية لاسيما في بلاد الشام لكل الحبوب عامة والقمح خاصة، ولم تكن الغرارة ثابتة في مقدارها، بل كانت تختلف من بلد لآخر ومن عصر لآخر". محمود فاخوري، *موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية*. ص 275

وتتوالى الأسعار حتى عام 696هـ، ففي قصور النيل في ذلك العام بلغ سعر القمح مائة وسبعين درهماً وارتفع سعر الفول واللحم والفروج والفاكهة، حتى "أبيعت التفاحة والرمانة والسفرجلة كل واحدة بثلاثين درهماً، وأبيعت قطعة السكر بثقلها فضّة"¹ ولم تكن الديار الحجازية بمعزل عن البلاء، فزارها القحط وتأخر المطر سنوات متعددة، منها في عام 722هـ، الذي استسقى فيه أهلها فلم يسقط المطر، فوصل القمح فيها إلى مائتين وخمسين درهماً للإدرب².

ولم يكن الغذاء وحده الذي ارتفع سعره، بل ارتفع سعر الماء أيضاً، فكان الرجل المسافر إذا أراد أن يسقي نفسه أو دابته، عليه أن يدفع درهماً لدابته وربع درهم لنفسه³.

ولم تسلم الأسعار من تأثير آفة الفأر أو الجراد، ففي عامي 658-659هـ، هاجم الفأر بلاد الشام ففقرت محاصيلها، فبلغت غرارة القمح أربع مائة درهم بدمشق والمكوك⁴ بحماة كذلك⁵.

وتسببت الطواعين والأوبئة التي لم تمكن الفلاحين من زراعة أراضيهم إلى قلّة المحصول، و إلى ارتفاع أسعار السلع، فعندما اشتد الوباء بالشام عام 656 هـ بيع " الفروج بدمشق بثلاثة دراهم، وبحلب بعشرة دراهم"⁶

وفي قصور النيل عام 749هـ انتشر الطاعون في مصر " فلم يخضر إلا نصف الأراضي"⁷، وارتفع ثمن الماء حتى بلغت رواية الماء ثمانين درهماً للرجال والحمال⁸.

¹ انظر: ابن اياس، بدائع الزهور. ج.1. ق.1. ص.390.

² انظر: المقرئزي، السلوك، ج.2. ق.1. ص.238.

³ انظر: ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري. ج.1. ص.280.

⁴ وهو من المكابيل التي يقاس بها وهو كغيره يختلف من منطقة لآخرى ومن زمن لآخر، ويعادل صاعاً ونصف. فاخوري، محمود، موسوعة وحدات القياس العربية والإسلامية. ص 399-340. والصاغ المقصود به الصاع النبوي، وقد اختلف الفقهاء في تقديره باختلاف مفاهيم، فكانوا يقدرونه بقياسات مختلفة. المرجع السابق. ص 255

⁵ انظر: الداودري، كنز الدرر. ج.8. ص.85.

⁶ المقرئزي، السلوك. ج.1، ق.2. ص.409.

⁷ المصدر السابق. ج.2. ق.3. ص.785.

⁸ انظر: المصدر السابق. ج.2. ق.3. ص.786

إنّ هذا الازدياد المضطرد في أسعار السلع، وانعدام القدرة على تحصيل المواد الغذائية بسبب الغلاء نتج عنه موجةٌ من المجاعات التي حلت بالبلاد، فتوالت مشاهد الجوع في أعوام الجفاف 694 - 696هـ، " فلما اشتد الأمر على الناس أكلوا القطط والكلاب والحمير والبغال والحمير¹ وازداد بذلك ثمن هذه الحيوانات إذ بيع كل كلب بخمسة دراهم وكل قط بثلاثة². وتعدى الأمر ذلك حتى أكل الناس الميتة من الحيوانات، فتزايد في الوباء نفسه أكل " الناس الميتة من المواشي والكلاب³.

ويذكر بيبرس المنصوري في مختاره في السياق ذاته، " وشاهدتُ الناس يبيعون لحم الميتة على باب القراطين⁴، ورأيتُ أقواماً كلما أخرج شيء من جيب الميتة بادروا بسلخه وأكله⁵".

ولم يكن بيعُ غير المألوف للناس مقتصرًا على لحوم الميتة من الحيوانات، بل تعداه إلى بيع لحوم الآدميين، ففي فناء عام 718هـ عندما توقف نزول المطر، أكل الناس " الجمادات والحيوانات والميتان، وباعوا حتى أولادهم وأهاليهم، فبيع الولد بخمسين درهماً، وأقل من ذلك⁶. وبلغ الأمر ذروته عندما أكل بعض الناس لحوم إخوانهم من بني البشّر، يقول ابن الفرات في خبر وباء 695هـ " وتزايد الحال إلى أن أكل بعض الناس الميتة من المواشي والكلاب وبني آدم، وكانت النساء يأكلن أولادهن⁷".

¹ ابن إياس، بدائع الزهور. ج.1. ق.1. ص.391.

² انظر: المصدر نفسه. ج.1. ق.1. ص.191

³ ناصر الدين محمد عبد الرحيم بن الفرات: تاريخ ابن الفرات. . حققه قسطنطين زريق و نجلا عز الدين ط.1. بيروت: المكتبة الأمريكية. 1948. ج.8. ص.208.

⁴ باب القراطين أو الباب المحروق، وهو أحد أبواب القاهرة، إذ قام خلافٌ بين أقطاي الجمدار وهو أكبر أمراء البحرية من المماليك في عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب وبين المعز أيك أول ملك من المماليك، ثمّ إنّ الأخير دبّر لأقطاي من يقتله وتمّ له ذلك، فقام أصدقاء أقطاي من المماليك ومنهم بيبرس البندقداري وقلاون الألفي بحرق هذا الباب والهروب من أيك عام 650هـ فسمّي باب القراطين بالباب المحروق أيضاً.المقريزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرية. تحقيق محمد زينهم و مديحة الشرفاوي. ط.1. القاهرة: مكتبة مدبولي.1997. ج.2.ص.383

⁵ بيبرس المنصوري، مختار الأخبار، ص.102. ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات. ج.8. ص.208.

⁶ ابن كثير، البداية والنهاية. ج.14. ص.86.

⁷ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات. ج.8. ص.208.

وقد كان للأطفال النصيب الأوفر من هذا السلوك إذ إنّ " الناس من الجوع كانوا يأكلون لحوم الموتى و بخاصّة موتى الأطفال، وكانوا يجدون الرجل والمرأة ميتين وعند رأسهما لحم الميت، وكان يُمسكُ بعضهم، فيوجد معه كتف صغير، أو فخذة أو شيء من لحمه"¹.

4- المرض والموت

يُعدّ الموتُ من أبرز النتائج التي تمخضت عنها الكوارث الطبيعية في العصر المملوكي الأول، لا سيما على الإنسان، ويغلب على المؤرخين استخدام لفظيّ وباء و طاعون للتعبير عن الأمراض سريعة الانتشار و فتاكة الأثر، غير أنّ الطاعون أخصّ من الوباء، إذ يعدّ الأخير وصفاً لكلّ مرضٍ فتاكٍ ومنتشر.²

وليس الغرض هنا عرض آراء من يفرّقون بين الوباء والطاعون، ولكن من ضمن الآراء التي تشرح في أسباب الطواعين، تنسب المرض إلى فساد الهواء، الذي " يقضي تغيير الأخلاط وكثرة الأمراض والأسقام، وهذا يقتل بلا مرض، أو بمرض يسير"³.

وهذا ما سبّب مأساة طاعون عام 656هـ، إذ انتقل الهواء الفاسد الناتج عن تحلل الجثث بعد ملحمة بغداد وسقوطها في يد المغول عبر الرياح إلى بلاد الشام.⁴

فاشتد الوباء في الشام بشكل لا يحد ولا يوصف، قد أخذت الأدوية من عند العطارين وعز وجود الأطباء⁵، فكان يخرج من حلب في اليوم الواحد ألف ومائتا جنازة⁶، وكان الأمر سيئاً جداً بدمشق، حتى "عزّ مغسلو الموتى"⁷.

¹ العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. حققه ووضع حواشيه محمد أمين. ط1 القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1987. ج3. ص302.

² انظر: العسقلاني، الحافظ أحمد بن علي بن حجر: بذل الماعون في فضل الطاعون. ط1. تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب. الرياض: دار العاصمة. 1411 هـ. ص104.

³ المصدر السابق. ص105.

⁴ انظر: الذهبي، تاريخ الإسلام. ج48. ص42

⁵ انظر: المصدر السابق. ج48. ص42

⁶ انظر: المقرئ، السلوك. ج1. ق2. ص410

⁷ ابن الوردي، زين الدين عمر بن مصطفى: تاريخ ابن السوردي. ط1. القاهرة: دار الكتب العلمية، 1996م.

وقد يزداد فيضان النيل في السنوات على غير عادته فيشكل مستنقعات¹ تكوّن بيئةً جيدة لتكاثر الحشرات التي تؤدي إلى حدوث الأمراض ونقلها وانتشارها²، وهذا ما حصل عام 762هـ على سبيل المثال إذ كثرت المستنقعات الناتجة عن فيضان النيل، فانتشرت الأمراض بين الناس، وطعنوا في أجسادهم³.

ومن الأوبئة الشهيرة في العصر المملوكي ما حصل سنة 694 هـ حتى 696هـ الناتج عن قلة فيضان النيل، فأدى إلى مجاعة سببها ارتفاع الأسعار، وأفضت إلى انتشار المرض الموت، وابتدأ القحط ببرقة والوجه البحري بمصر، فهرب الناس من الجذب إلى الإسكندرية والبحيرة "وامتدّوا في الربي والوهاد، وجلبوا الوخم إلى العباد، ففشت الأمراض العامة ومُنّي الخلق بالطامة"⁴

ويشير ابن الجزري إلى سبب آخر لوقوع هذا الطاعون، فيذكر أن الجراد هاجم أهل برقة فأكل من لحم أكتاف أهلها، وانتشر الدم الفاسد بينهم، فهاجروا إلى مصر بالألوف المؤلفة، فهلكوا وأهلكوا أهل مصر معهم.⁵

ومات من الديار المصرية خلق كثير وختت بعض الدول من سكانها، وامتلات الأراضي من الأموات بين أزقتها، وكان أكثر من يموت بالقاهرة ومصر لا يجد أحداً يدفنه، بل يبقى ملقى على قارعة الطريق، إلى أن تأكله الكلاب.⁶

¹ انظر: ابن كثير، البداية والنهاية. ج 14. ص 276.

² انظر: أبا زيتون، منال أحمد إبراهيم: المجاعات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي (رسالة ماجستير غير منشورة). جامعة اليرموك. إربد. الأردن. 1998. ص 37

³ انظر ابن كثير، البداية والنهاية. ج 14. ص 276. سخاوي، وجيز الكلام في النيل على دول الإسلام. ج 1. ص 131

⁴ العيني، عقد الجمان. ج 3. ص 275.

⁵ انظر: ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ج 1. ص 257. مؤلف مجهول: عصر سلاطين المماليك. بيروت: دار القلم. 1980. ص 36.

⁶ انظر: بيبس المنصوري، مختار الأخبار. ص 101-102. زبدة الفكرة. ص 306.

وكان يُحمل يومياً إلى مغسلي الموتى قرابة خمسين ميثاً، وكانوا يُرصّون في حفر عند دفنهم، ويجعل الصغار بين الكبار حتى تستوي الحفرة وبعضهم تجرّه الكلاب،¹ وكان يخرج من مصر من دون القاهرة وما حولها في اليوم الواحد ألف وخمسمائة جنازة.²

ومن الطواعين المشهورة أيضاً طاعون 749هـ الذي سبقت الإشارة إليه، فكثر الموت بالناس، وكان إذا دخل بيت أحدهم حصده أهله جميعهم وتضاعفت أعداد الموتى، وقلّ عدد النفوس في البلاد، وكان يأتي إلى الجامع أعداد منهم تزيد عن مئة ميت، وبعض الموتى لم يكن يؤتى به ليصلّى عليه، وكان يموت حول البلد الواحد عدد لا يحصى.³ وكان يموت بالقاهرة ومصر ما بين عشرة آلاف إلى خمسة عشرة ألف إلى عشرين ألف في كل يوم، وعملت للناس التوابيت والدكاك لتغسيل الموتى للسبيل بغير أجرة، وحمل أكثر الموتى على ألواح الخشب وعلى السلالم والأبواب، وحفرت الحفائر وألقوا فيها، وكانت الحفرة يمدفن فيها الثلاثون والأربعون وأكثر، وكان المصاب بالطاعون يبصق دماً، ثم يصيح ويموت.⁴

وانتقل الطاعون العام إلى بلاد الشام فكان ابتداءه بأراضي دمشق وحلب، ثم عمّ جميع بلاد الشام، وبلاد ماردين وجبالها، وبلاد أهل الغور، وسواحل عكا، وصفد، وبلاد القدس، ونابلس والكرك، وعربان البوادي، وسكان الجبال والضياع، ولم يبقَ في بلدة جنين سوى عجوز واحدة خرجت منها فارة ولم يبقَ بمدينة اللد أحد، ولا بالرملة، وصارت الخانات ملأنة بجيف الموتى.⁵

وشمل الموت غزة هاشم، يقول ابن بطوطة في رحلته يصف ما رآه وسمع به في أوائل شهر ربيع الأول عام تسعة وأربعين و سبعمئة : بلغني الخبر في حلب أنّ الوباء وقع بغزة،

¹ انظر: ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري. ج1. ص282.

² انظر: المصدر السابق. ج1. ص282. ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات. ج8. ص209

³ انظر ابن كثير، البداية والنهاية. ج14. ص227.

⁴ المقرئزي، السلوك. ج2. ق3. ص772-773. ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج10. ص155. ابن إياس، بدائع الزهور. ج1. ق1. ص528.

⁵ المقرئزي، السلوك. ج2. ق3. ص774. ابن تغري البردي، النجوم الزاهرة. ج10. ص157.

انتهى عدد الموتى إلى زائد على الألف في اليوم الواحد، فسافرت إلى حمص فوجدت الوباء وقع بها ومات يوم دخولي إليها نحو ثلاثمائة إنسان".¹

وعزّ وجودُ قرّاء القرآن لكثرة الموتى لاسيما في مصر والقاهرة، فكان الناس يتركون حرفهم وأعمالهم ليصبحوا قرّاء عليهم²، فقد بلغ عدد الجثث في مصليات القاهرة ثلاثة عشر ألفاً وثمانمائة عدا من مات في الأسواق والحواري والدكاكين والأبواب من تأخر دفنه، وذلك كله في اليوم الواحد.³ وقيل بلغ عدد الأموات في اليوم الواحد عشرين ألفاً، وأحصيت الجنازات فقط في مدة شعبان ورمضان تسعمائة ألف.⁴

وشمل هذا الطاعون الديار الحجازية المقدّسة سنة 749هـ، وكان قد ورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنّ الطاعون لا يدخل المدينة المنورة، لكنّ بعض الفقهاء عزوا ذلك لدخول الكفّار فيها⁵، ودخل الطاعون مكة المكرمة أيضاً، فمات به جماعة من أهلها، ولم يعهد أن دخل هذه المدينة طاعون قط.⁶

وتوالت الطواعين التي حصلت بالبلاد للسبب ذاته، ومن ذلك طاعون عام 764هـ الذي أصاب القاهرة ومصر، فهلك الكثير من الناس صغاراً وكباراً⁷. وتلاه طاعون عام 775هـ الذي سبّب قحطاً في أرض مصر، فكان يخرج من القاهرة نحو ستمائة جنازة يومياً.⁸

وليست الطواعين وحدها - وإن نالت نصيب الأسد- التي سبّبت سقوط ضحايا من الناس، فقد أدت العوامل الجوية والطبيعية السيئة إلى خسائر بشرية أيضاً، ففي سيل عام

¹ ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله: رحلة ابن بطوطة. بيروت: دار التراث. 1968. ص 639

² انظر: المقرئزي، السلوك. ج 2. ق 3. ص 782-283.

³ انظر: المصدر السابق. ج 2. ق 3. ص 282

⁴ انظر: المقرئزي، السلوك. ج 2. ق 3. ص 282. ابن تغري بردي. النجوم الزهرة. ج 10. ص 155.

⁵ انظر: السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر ت (911هـ). رسالة في الأحاديث الواردة في الطاعون وسببه. مكتبة مصطفى الإلكترونية. ص 70

⁶ انظر: ابن إياس، بدائع الزهور، ج 1. ق 1. ص 530.

⁷ المصدر السابق. ج 1. ق 2. ص 6

⁸ المصدر السابق، ج 1. ق 2. ص 138.

669هـ " هلك به عشرة آلاف نفس¹، وفي عام 656هـ، واجه أهل الشام خطر البرد الشديد عندما خرج أهل دمشق منها خوفاً على أنفسهم من خطر التتار، فواجهوا جواً شديداً البرودة لم يحتملوه، إذ إنهم خرجوا في قوة الشتاء فمات خلق كثير فيه².

و أسفرت الزلازل عن قتل أعدادٍ لم يفصل فيها المؤرخون، لكنهم أشاروا إلى كثرة الضحايا، ففي زلزال عام 702هـ مات عدد كبير من الناس، ممن هلكوا تحت الردم³.

وقتل الريح السموم الحارقة التي هبت على مصر والقاهرة عام 728هـ جماعة من الناس⁴، وأهلكت ريح عظيمة أناساً كثيراً، قضوا تحت ردم المنازل التي تهدمت من شدتها⁵.

الجانب الإيجابي الاجتماعي

ترك الكوارث الطبيعية آثاراً إيجابية على الناس، فحجم الموت والمرض والدمار الذي خلفته هذه الملمات جعلت نفوس بعض الناس تتغير، مغيرةً نظرتها في الحياة الدنيا، وانعكس ذلك على سلوكها.

وتمثل ذلك في لجوء الناس إلى الله، والتشفع بالنبي الكريم ليخلصهم مما حل بهم، وفي عودة الضالين منهم إلى الهداية، وترك ما نهى الله تعالى عنه، لما أحسوا بدنو آجالهم، وقرب مفارقتهم للحياة الدنيا.

ومن ذلك ما حصل في أثناء بركان المدينة عام 656هـ، إذ تقرب الناس من الله سبحانه وتعالى بالطاعات فضجوا بالدعاء، ورثوا حالهم للنبي عليه الصلاة والسلام، وقد برز أكثر ذلك

¹ ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري، ج2. ص 266.

² انظر: ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيمن العائلي: نزهة الأنام في تاريخ الإسلام، دراسة وتحليل الدكتور سمير طبارة. ط1. صيدا: المكتبة العصرية. 1999. ص 225

³ انظر: الذهبي، شمس الدين أبا عبد الله بن أحمد بن عثمان التركماني الذهبي ت (748): دول الإسلام. ط2. حيدر أباد: مطبعة جمعية دار المعارف العثمانية. 1365هـ. ج 3. ص 161. السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر ت (911هـ): تاريخ الخلفاء. ط3. بيروت: دار الجيل. 1993، ص 553. ابن إياس، بدائع الزهور. ج1. ق1. ص 416

⁴ انظر: ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري. ج2. ص 26

⁵ انظر: المقرئ، السلوك. ج2. ق1. ص 192.

في الأدب¹. وتكرّر المشهد نفسه في معظم الملمّات التي وقعت بالناس فيضجوا بالدعاء إلى الله تعالى لرفع الرياح المهلكة مثلاً²، كريح السموم التي هبّت على مصر عام 745هـ فأحرقت حرث أهلها³ وابتهلوا وقرؤوا القرآن بخشوع وخضوع لتتكشف عنهم الطواعين⁴.

ولجأ الناس أيضاً إلى السنّة المشرّفة إذ كانوا يقومون بقراءة صحيح البخاري في أيام متوالية في أماكن مختلفة، ومن ذلك ما حصل في طاعون 749 هـ إذ قرأ الناس البخاري في الجامع الأزهر لعدّة أيّام⁵، وهي عادة جرى الناس عليها في ذلك العصر في الملمّات.

ولجأ الناس إلى أعمال الخير لتعجيلهم ممّا هم فيه، كالتصدّق على المحتاجين و ذبح الأبقار والأغنام الكثيرة ، لتفريقها على الفقراء ،⁶ وإراقة الخمر في الأسواق⁷، وإعتاق العبيد⁸.

الآثار السياسية: السلبية والايجابية

يُعد الاستقرار الداخلي والخارجي للدول من أهم متطلبات التنمية والازدهار، لذلك تسعى كل دولة للمحافظة على استقرارها بشتى الطرق، وهناك عوامل متعددة تساهم في خلخلة هذا الاستقرار والتأثير فيه، ومن بينها العوامل الطبيعية.

لقد أثرت العوامل الطبيعية السيئة في الناحية السياسية في الدولة الإسلامية في العصر المملوكي الأول، وبدا ذلك واضحاً من جانبين، الجانب الأول من حيث تأثيرها المعنوي على الجيوش والولاطين، والجانب الثاني من حيث تأثيرها المادي الملموس على معدّات ومنشآت الدولة العسكرية والسياسية، وفي رجالها وقادتها، وكلا الجانبين أثرا في سياسية الدولة، وقد تجلّت هذه الآثار في الآتي:

¹ انظر: الآثار الإيجابية للكوارث الطبيعية في الفصل الثاني ص 78

² المقريري، السلوك، ج.1. ق.3. ص 943

³ المصدر السابق. ج.1. ق.3 ص 673

⁴ انظر: السخاوي، وجيز الكلام في الذيل على دول الإسلام. ج 1. ص 34

⁵ انظر: المقريري، السلوك، ج.2. ق.3 ص 781

⁶ انظر: المصدر السابق. ج.2. ق.3. ص 780-781

⁷ انظر: المصدر السابق. ج.2. ق.3. ص 777

⁸ انظر: المصدر السابق. ج.1. ق.2. ص 398

الجانب السلبي للأثر السياسي

أ- الجانب النفسي

يُعدّ الجانب النفسي أحدَ أهمّ العوامل التي تساهم في نجاح العمليات العسكرية للجيش أو في الاستقرار السياسي للحكم. وقد كان لبعض الملمّات الطبيعية التي ضربت الدولة في ذلك الحين تأثيرها السلبي على هذا الجانب، ومن ذلك توقّف النيل بمصر، ففي عام 694هـ - على سبيل المثال توقّف النيل بمصر عن الزيادة، وحلّ القحط والجوع والمرض بسبب ذلك - كما سبق وأشير - ما أدى بالناس إلى التشاؤم من سلطنة كتبغا¹ الذي كان يحكم البلاد إبّانها.²

ومن الكوارث ما أثار في الجيش والعسكر، ففي أثناء نزول جيش بيبيرس الجاشنكير³ عام 698هـ في قرية قرنية⁴ في مهمة عسكرية هاجمهم الجراد فسدّ "الأفق بحيث حجب الأبصار عن السماء، فزاد تطيّر العسكر، وخشوا أن يكون منذراً بقدوم العدو وكسرة العسكر".⁵

وفي أول نزول للجيش في هذه البلدة سالت عليهم الأودية و"أتلّف السيل كثيراً من أبقالهم وتشاءموا به وتطيروا منه"⁶، وزاد قدوم الجراد حالتهم النفسية سوءاً.

وتكرر التشاؤم من السلطان في عام 709 هـ لنقص فيضان النيل، وكان السلطان بيبيرس الجاشنكير قد تولى الحكم، فتشاءم الناس من سلطنته وخافوا وقوع الغلاء الذي وقع في أيام كتبغا.

¹ هو أحد مماليك السلطان المنصور قلاوون، وقد تولّى السلطة عامًا واحداً بعد أن أخذ الحكم من السلطان محمد من قلاوون لصغر سنّ الأخير وتوفي عام 702هـ. انظر: ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد: الدرر الكامنة. القاهرة: دار الكتب الحديثة. د.س. ج.3. ص 349

² انظر: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة. ج.8. ص 648.

³ أمير من أصل مغولي، تولّى السلطة إثر خلعه للسلطان محمد بن قلاوون لصغر سنّ. توفي عام 708هـ. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات. باعتناء جاكين سوبلة وعلي عمارة. لبنان: دار الفكر. 1991م. ج.10. ص 348

⁴ قرية قرب بيت جبرين بفلسطين. الحموي، ياقوت: معجم البلدان، ج.3، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي. ط.1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1990. ص 363.

⁵ المقريزي، السلوك. ج.1. ق.3. ص 885. العيني، عقد الجمان. ج.2. ص 470

⁶ المقريزي، السلوك. ج.1. ق.3. ص 885. العيني، عقد الجمان. ج.2. ص 470

ومنهم من وصل به الأمر إلى الدعوة إلى قتل السلطان، ففي عام 775 هـ، عندما توقف النيل بمصر عن زيادته أيضاً، وعم القحط والغلاء في البلاد، ما كان من رجل من الشعب إلا أن جلس في الطرقات يردد: "اقتلوا سلطانكم ترخص أسعاركم، ويجري ماؤكم"¹.

ب- الجانب المادي

أثرت الكوارث الطبيعية في الناحية السياسية من جانب مادي، تمثل في تدميرها لمنشآت وأسلحة ومعدات للجيش، وفي قتلها بعض أصحاب المناصب العسكرية.

ومن ذلك أن أغرقت زيادة دجلة خزانة السلاح في بغداد عام 656 هـ²، وفي عام 683 هـ أخذ سيل جارف جمال الجيش المصري وأقاله في أثناء قدومه من دمشق³، وغرقت عدد من سفن المسلمين أيام حكم الظاهر بيبرس في أثناء توجهها إلى قبرص للقتال، وحصل ذلك إثر هبوب ريح قوية شديدة حطمت بعضها وقضت على حياة بعض من كانوا فيها، وأدت إلى أسر ألف وثمان مئة من المقاتلين والبحارة.⁴

وفي عام 685 هـ جاءت زوبعة عظيمة على حمص بأمر عظيم اتصل تأثيره من السماء بالغيم الأسود إلى الأرض، وانقضّ على عسكر دمشق فيها فما "صادف شيئاً إلا رفعه في الهواء كرمية نشاب وأكثر، وما صادف شيئاً من السروج والجواشن⁵، والعدد، والسيوف، والتراس، والقسي، والقماش، والشاشات، والكلوتات⁶، والنحاس، والأسطال، والأحبار طائراً في الهواء... إلى أن صاروا بغير عدّة ولا قماش"⁷

¹ ابن إياس، بدائع الزهور. ج1. ق2. ص124-125.

² انظر: الذهبي، تاريخ الإسلام. ج49. ص59. المقريزي، السلوك، ج1. ق1. ص594.

³ انظر: ابن كثير، البداية والنهاية. ج13. ص303.

⁴ نظر: الذهبي، تاريخ الإسلام. ج48، ص32. ابن كثير، البداية والنهاية. ج12. ص133. العيني. عقد الجمان. ج3. ص126.

⁵ جوشن أو جوسن، والجمع جواشن أو جواسن، وهودرغ من الجلد يُلبس حول الجزء الأوسط من الجسم وفي التدريب على الفروسية. انظر: نجم، زين العابدين شمس الدين: معجم الألفاظ والمصطلحات التاريخية. ط1. مصر: الزهراء كمبيوتر سنتر. 2006. ص192.

⁶ الكلوتة وجمعها كلوتات، غطاء للرأس، طاقية صغيرة تلبس وحدها أو بعمامة وتسمى أيضاً كلفة، وقيل إنها لاتينية وقيل معربة عن الفارسية. المرجع السابق. ص453.

⁷ ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات. ج8. ص37-38.

وقد تؤدي الكوارث الطبيعية إلى تلف أدوات حربية، ففي عام 746هـ في مصر، نشب حريقٌ عظيمٌ ساعدت الرياح في انتشاره كما ذكر المؤرخون، فأحرق جزءاً كبيراً من القلعة، و أتلف المنجنيق كله بالنار¹.

وأدت بعض الكوارث الطبيعية وعلى رأسها الطواعين إلى التسبب بوفاة بعض الشخصيات السياسية والعسكرية ممن شغلوا مواقع مهمة وحساسة في الدولة كالسلطين والأمراء²، والولاة³.

ومن هذه الشخصيات الملك الناصر داود⁴، وأمير المؤمنين الحاكم بأمر الله⁵. والأمير بكلك⁶، والأمير تومان كمر⁷، والأمير أوران⁸، والأمير لاجين⁹، والأمير إيوان¹⁰.

¹ انظر: المقرئزي، السلوك. ج2. ق3. ص695.

² وأمراء الدولة في العصر المملوكي هم المسؤولون عن "تفقد حال الأجناد، وتعليمهم رمي الشباب، على الخيل بحيث يعرفون الطعان والضرب والحرب". السبكي تاج الدين عبد الوهاب. معيد النعم ومبيد النقم. ط1. بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية. 1986. ص42.

³ وكان هذا الاسم قديماً لا يسمى به إلا نائب السلطان، وهو الآن اسم لمن إليه أمر أهل الجرائم واللصوص وغيرهم وله حق الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. المصدر السابق. ص40.

⁴ الملك الناصر داود، وهو الملك الناصر داود بن المعظم عيسى بن العادل أبي بكر بن أيوب، وقد توفي في طاعون عام 656هـ، إذ استدعاه الخليفة المستعصم بالله ليتولى شؤون قيادة العساكر المجهزة للقاء التتار وكان أيامها في الشوبك، فذهب إلى بغداد ملبياً استدعاء الخليفة. فلما وصل إلى دمشق بلغه دخول التتار إلى العراق وتدميرهم عاصمتها، فترك رسول الخليفة إليه، ولم يتمكن من مقاومة العدو في ذلك الوقت ولا بعدها إذ أصابه طاعون تلك السفن ومات فيه. انظر: ابن الوردي، تاريخ ابن الوردي. ج2. ص192. الكتبي، ابن شاكر، فوات الوفيات والذيل عليها. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر. 1973. ج1. ص425-426.

⁵ الحاكم بأمر الله، وهو أحمد بن سلمان بن أحمد بن الحسن القبي الذي يعود نسبه إلى العباس بن عبد المطلب. تولى الخلافة من سنة 742هـ حتى عام 749هـ إذ توفي بطاعون مصر في ذلك العام. انظر: الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيبك، ت (764هـ): أعيان العصر وأعيان الناصر. تحقيق علي أبو زيد ونبييل أبة عمشة ومحمد موعد ومحمد سالم محمد. ط1. بيروت: دار الفكر المعاصر. ج1. ص220-221.

⁶ وهو الأمير سيف الدين الجمдар الناصري، كان في صفد والياً، ثم أقام في مصر أمير جيش، وتوفي في طاعون 749هـ. انظر: الصفدي، أعيان العصر. ج2. ص52. نفسه، الوافي بالوفيات. ج10. ص288.

⁷ وهو الأمير سيف الدين الناصري مملوك الملك الناصر حسن، ولي نيابة طرابلس ثم حمص ثم أصبح أمير جيوش دمشق ثم تولى نيابة غزة حتى مات فيها في الطاعون 764هـ. انظر: الصفدي، أعيان العصر، ج2. ص142-144.

⁸ وهو الأمير سيف الدين السلاح دار، أحد أمراء الجيوش بدمشق، توفي بطاعون عام 749. الصفدي، أعيان العصر. ج1. ص636. نفسه، الوافي بالوفيات، ج9. ص442.

⁹ وهو حسام الدين لاجين وكان أمير جيش في دمشق ومصر، وقد توفي في طاعون مصر عام 664. الصفدي، أعيان العصر، ج4. ص182. نفسه. الوافي بالوفيات. ج24. ص389.

¹⁰ وهو الأمير سيف الدين الناصري، أقام في حلب أميراً، حتى توفي في طاعونها عام 749هـ. الصفدي، أعيان العصر. ج1. ص672.

الجانب الإيجابي للأثر السياسي

لقد كان للأثار السياسيّة للكوارث الطبيعيّة جانب إيجابيّ، تمثّل في التأثير في الأمراء والسلّاطين و الخلفاء ، وبدا أثره على العسكر أيضا. فالخلفاء كانوا يستجيبون للنداء في الملمّات، ويخرجون للدعاء والتضرّع لله لرفعها، ومن ذلك خروج الخليفة لصلاة الاستسقاء مع العامة والخاصة عندما أصاب مصر القحط في أثناء توقّف النيل عام 775 هـ.¹

واهتمّ السلّاطين والأمراء بالمحافظة على استقرار البلاد خوفا من ثورة داخلية أو موالة للأعداء، فقاموا في وقائع مختلفة بطرح المكس لسلعٍ متعدد تخفيفا منهم على الناس أعباءهم الماليّة في ظروفهم السيئة²

وقاموا بتفريق فقراء الناس على أغنيائهم لسدّ الحاجة³، وفرّق السلطان الصعاليك والحرافيش في البلاد على الأمراء⁴.

أمّا العسكر، فقد ابتلى الله جنود التتار والفرنجة بملمّات كسرت شوكتهم وكفّت جند المسلمين القتال وحفظت أمنهم، ومن ذلك أن تسببت ريحٌ عظيمة بغرق مراكب للفرنجة جاءت لنصرة التتار على المسلمين عام 668⁵ كما تسببت ريح هوجاء قلعت الأشجار من مكانها إلى غرق مراكب للفرنجة كانت تريد الوثوب على سواحل المسلمين في عام 747هـ⁶. وتسببت ثلوج كثيفة بعودة التتار من بلاد حلب، عندما لم ينالوا أربهم إذ تواترت عليهم الثلوج وهدمت عنهم الأقوات والمراعي، وانقطعت بإقامتهم البواعث والدعاوي فرجعوا خائبين⁷

¹ ابن إياس، بدائع الزهور. ج.1. ق 2. ص124

² انظر: الذهبي، دول الإسلام. ج.3. ص145. ابن إياس، بدائع الزهور. ج.1. ق 2. ص 192.

³ بيبيرس المنصوري، زبدة الفكرة. ص306

⁴ المرجع السابق، ص 306. العيني، عقد الجمان. ج.3. ص302. ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدير: النفحة المسكية في الدولة التركية. تحقيق عمر عبد السلام تدمري. ط1. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة و النشر.

1999. ص 214

⁵ انظر: أبا الفداء، إسماعيل بن علي بن أيوب ت(732هـ): المختصر في تاريخ البشر المعروف بتاريخ أبي الفداء.

د.ط. بيروت: دار المعرفة. د.س. ج.3. ص 151

⁶ النويري، نهاية الأرب، ج.39. ص 50. المقرئ، السلوك. ج.1. ق.2. ص 584

⁷ المنصوري، زبدة الفكرة. ص 351

الآثار الثقافية

ازدهرت الحياة العلمية والفكرية في العصر المملوكي، وكان ذلك ناتجاً عن أسباب متعددة، منها اهتمام السلاطين المماليك بالعلم والعلماء ووقفهم الأوقات لصالحهم، وشعور هؤلاء العلماء بواجبهم تجاه تراث أمتهم¹.

وقد أثرت الكوارث الطبيعية في الجانب الثقافي للدولة المملوكية الأولى كغيرها من النواحي، ويبدو الأثر السلبي للكوارث الطبيعية واضحاً في منشآت الدولة الثقافية والعلمية، و في علمائها ومفكرها.

ويُقصد بها الأماكن التي يتلقى فيها الناس علمهم ويتبادلون ثقافتهم العامة والخاصة، كالمساجد والكنائس والمدارس والروابط والخوانق وغيرهما.

ومن الكوارث التي كان لها أثر في المنشآت الثقافية والعلمية، سيل عام 686هـ، إذ دخل الماء إلى الحرم الشريف وأخرب ما بداخله².

وفي سيل بعلبك عام 717 هـ تهدم عدد من الجوامع منها الجامع الأموي، وأُتلف فيه المصاحف وكتب الحديث الشريف³. و هدم ثلاثة عشر مسجداً آخر وعدداً من المدارس⁴.

ومن ذلك أيضاً الزلازل، ففي زلزال عام 702هـ، الذي هدم منارات الجوامع وجدرانها ومنها منارة الجامع الحاكمي، فأسقط أكثر جدرانه وانتشقت منارة المدرسة المنصورية بالقاهرة، ومنارة جامع الفاكهانيين، ومنارة جامع الصالح بن رزيك، وتشققت جدر جامع عمرو بن

¹ انظر: سلام، محمد زغلول: الأدب في العصر المملوكي الدولة الأولى (648-783هـ). القاهرة: دار المعارف. 1971. ص106

² انظر: ابن الفرات، تاريخ ابن الفرات. ج8. ص 51

³ انظر: أبا الفداء، تاريخ أبي الفداء. ج 3. ص 82

⁴ انظر: المصدر السابق. ص 82

العاص، وهدم شيء كثير من منابر الجوامع والمساجد في مصر والقاهرة¹، وفي زلزال 741 هـ تَهَدَّمَت جوامع ومآذن كثيرة².

كان للعلماء والأدباء دورٌ بارزٌ في أثناء انتشار الكوارث الطبيعية في البلدان الإسلامية في ذلك العصر، فقد كان القاضي والفقير يقوم على موعظة الناس وحثهم على العودة إلى الله، ففي طاعون عام 749 هـ " أشارت العلماء أن الناس تخرج قاطبة إلى الصحراء، تحت الجبل الأحمر، ويفعلوا كما يفعلون في الاستسقاء؛ فخرجت الناس قاطبة"³. وكانت الناس تلجأ إلى الشيوخ والفقهاء بعمامة، وأحياناً تلجأ لمن عُرف من الناس بالصلاح والتقوى، لدرجة أن بعضاً من هؤلاء اقترن اسمه بإحدى الكوارث، ومن ذلك ما وردَ عن رجل، أنه لما " توقّف النيل عن الزيادة، توجه إليه الناس، وسألوه أن يدعوَ إلى الله تعالى بأن يفي النيل، وأن يمنّ عليهم بالزيادة عن قريب؛ فدخل إلى خلوته، وخرج إلى الناس في اليوم الثاني وهو يقول: وفا وفا، فلذلك يسمّى سيدي محمد وفا"⁴

وساهمت الكوارث الطبيعية وما أدت إليه من قحط وغلاء وانتشار للمجاعات، في إضعاف الحركة العلمية والثقافية، جرّاء ما لحق بأصحابها من سوء الحال وانتشار المرض والموتان.

ومن سوء ما حلّ بالعلم والعلماء، انهيار قيمهم الثقافية أمام ما وقع فيهم من جوع، اضطرهم أحياناً لبيع علومهم مقابل الخبز، ففي غلاء عام 694 هـ، فُقدت بمدرسة الفاضلية بالقاهرة جملةٌ عظيمة من الكتب في سائر العلوم يقال إنها كانت مئة ألف مجلد، " وكان أصل ذهابها أن الطلبة التي كانت بها لما وقع الغلاء بمصر سنة أربع وتسعين وستمئة والسلطان

¹ انظر: الداوداري. كنز الدر. ج.9. ص 101

² انظر: الحنبلي، أبو الفلاح بن عبد الحي ابن عماد (1089هـ): شذرات الذهب في أخبار من ذهب. ط2. بيروت: دار المسيرة العلمية. ج.6. ص 127

³ ابن إياس، بدائع الزهور. ج.1. ق.1. ص 531

⁴ المصدر نفسه، ج.1، ق.2. ص 6

يومئذ الملك العادل كتبغا المنصوري مسّهم الضر، فصاروا يبيعون كل مجلد برغيف خبز، حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب¹

وأدت الكوارث الطبيعية إلى موت عدد كبير من العلماء والأدباء، الذين اكتفى المؤرّخون بذكرهم دون تفصيل، كموت شيخ في صاعقة على مسجد²، لكنهم فصلوا في أسماء آخرين وصفاتهم، وترجموا لهم.

وشملت ترجمات هؤلاء العلماء والأدباء مناحي عديدة، كالفقه والنحو والشعر والخطابة والرياضيات والموسيقى وغيرها، وكان الواحد منهم يميزه أكثر من علم، فلقد كان العلم موضوعاً لديهم أكثر منه تخصصاً كما في أيامنا هذه، ومن هؤلاء الشاعر والشيخ ابن مكتوم النحوي³ والشاعر ابن عماد الدين بن أبي الخوف المعروف بعكوك أو عوكل⁴ وشهاب الدين أبو العباس الضرير المعروف بالمادح⁵، ومنهم أيضاً شهاب الدين الحاجبي⁶ وأبو العباس شهاب

¹ المقرئزي: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقرئزية، تحقيق محمد زينهم ومديحة الشرقاوي، مكتبة، القاهرة: مدبولي. 1997. ج 2. ص 297.

² انظر: ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري. ج 1. ص 323.

³ وهو أحمد عبد القادر بن أحمد بن مكتوم القيسي، الشيخ الإمام العالم الفريد تاج الدين، المعروف بأن مكتوم النحوي اشتغل بالحديث وفنونه، وكان بارعاً في النحو قائماً على غرائبه، عمل تاريخاً للنحاة وله كتاب (الدر اللقيط من البحر المحيط) من مجلدين، نظم الشعر ومات في طاعون مصر عام 749هـ. الصفدي، أعيان العصر. ج 1. ص 265

⁴ وهو أحمد بن محمد بن أبي بكر، شاعر فقير الحال، أبدع في المطالعات وكان يحفظ من شعر المتأخرين كثيراً، وله فضل في جمع شعرهم، وكان جيد النقد في القريض، توفي في طاعون 749هـ في دمشق وهو في الأربعين من عمره. الصفدي، أعيان العصر. ج 1. ص 364. نفسه الوافي بالوفيات، ج 8. ص 160.

⁵ وهو أحمد بن مسعود بن أحمد بن محمود بن برشق، وكان كثير المدح للرسول صلى الله عليه وسلم، وكان ضرير العينين، كانت له قدرة عظيمة على النثر وصفه الصفدي أنه كان "يبدع في أسلوبه فينظم قصيدة في كل بيت منها حروف المعجم، أو في كل بيت في كل كلمة من ضاد أو حرف طاء، أو غير ذلك من الحروف التي مالها في دور الكلام اعتضاد"، توفي في طاعون مصر 749هـ. الصفدي، أعيان العصر. ج 1، ص 388-389، نفسه. الوافي بالوفيات. ج 8. ص 179. العسقلاني، الدرر الكامنة. ج 1. ص 337.

⁶ أحمد بن محمد بن شهاب الدين المعروف بالحاجبي، له شعر بالمعاني الغامض والنظم الحلو القريب من القلب، توفي في طاعون 749 في مصر. الصفدي، أعيان العصر. ج 1. ص 366-369. نفسه، الوافي. ج 8. ص 161.

الدين ابن الأنصاري¹، والبهاء زهير الشاعر المعروف².

وقاضي القضاة تاج الدين السبكي³ و خليل بن أيك الصفدي الأديب والشاعر المعروف⁴،

والإمام نجم الدين الدهلي⁵، والعلامة علاء الدين الحنفي الصوفي⁶، والإمام الشاعر ابن

¹ وهو أحمد بن محمد بن قيس أبو العباس ابن الظهير الشيخ الإمام شهاب الدين بن الأنصاري شيخ الشافعيين بالسدير المصرية مولده في حدود السنين والستمئة، وتفقه على الظهير وسمع من ابن الخطيب المزرة ومات على تدريس المشهد الحسيني بالقاهرة في يوم عيد الأضحى سنة تسع وأربعين وسبعمائة شهيداً بالطاعون. السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقي الدين (ت771): طبقات الشافعية الكبرى. بيروت: دار المعرفة . ج5 . ص 62.

² وهو البهاء زهير بن محمد بن علي بن يحيى صاحب المنشئ أبو الفضل وأبو العلاء الأزدي المهلبى المكي ثم القوصي الكاتب، وله ديوان معروف، ولد سنة إحدى وثمانين وخمسائة، بمكة، كتب الانساب للملك الصالح نجم الدين ببلاد الشرق، فلما تسلطن بلغه أرفع المراتب ونفذه رسولاً، ولما مرض بالمنصورة تغير عليه وأبعده، وكان سريع التخييل والغضب والمعاقبة على الوهم، ثم اتصل البهاء بالناصر حاجب الشام وله فيه مداح، توفي في طاعون 656. الذهبي، شمس الدين محمد بن احمد بن عثمان ت(748هـ)، العبر في أخبار من عبر. ط1. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. 1997. ج2. ص24.

³ وهو قاضي القضاة تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السبكي الشافعي، ولد عام 727 في القاهرة، أجازه شمس الدين بن النقيب بالإفتاء والتدريس ثم اشتغل بالقضاء وعُزل وأعيد إلى القضاء غير مرة، وولي الخطابة، وحصلت له فتنة سجن في القلعة أضرها مدة ثمانين يوماً ثم عاد إلى القضاء، درّس في كبرى المدارس والجامع في مصر والشام، برع في الفقه والحديث والأدب والعربية، وكان ذا بلاغة وجرأة عالية، نال مناصب عليا لم ينلها قاض قبله، لكنه أؤذي بسبب مهنته أذىً كبيراً لكنه كان شجاعاً وكريماً ومتسامحاً، له كتب وتصانيف عديدة مثل شرح مختصر ابن الحاجب، توفي في طاعون عام 771هـ وهو في الرابعة والأربعين من عمره. الحنبلي. شذرات الذهب. ج6. ص221-222.

⁴ وهو خليل بن أيك بن عبد الله الأديب صلاح الدين الصفدي، ولد سنة 696 أو 697هـ، مهّر في الترجمة ثم برع في الأدب والخط ونظم الشعر والنثر والتواقيع، أخذ علمه عن شهاب الدين محمود وابن سيّد الناس وابن نباتة وأبي حيان وغيرهم، ألف كتباً كثيرة منها كتب عُنيّت بالتراجم كالوفاي بالوفيات، واعيان العصر وأعيان العصر، وألف كتباً كألحان السواجم بين البادي والمراجع، وتصانيف مثل جنان الجناس وغيرهما، له مئات المجلدات يُختلف في عددها، مات في طاعون عام 764 في دمشق. انظر: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى ج6. ص94. العسقلاني، الدرر الكامنة. ج2. ص176-177، ابن عماد الحنبلي، شذرات الذهب. ج6. ص210.

⁵ وهو سعيد بن عبد الله العالم الحافظ نجم الدين أبو الخير الدهلي الحنبلي، تنقل بين العراق والشام ومصر في طلب الحديث، كان عالماً بالتراجم والوفيات وما فيها من اختلاف في الروايات، وهو أمرٌ لا يعتني به إلا القليل، توفي في طاعون دمشق عام 749هـ. الصفدي، أعيان العصر، ج2. ص408-409، نفسه، الوافي بالوفيات. ج15. ص233، العسقلاني، الدرر الكامنة. ج2. ص228.

⁶ وهو علي بن محمود بن حميد العلامة البارع علاء الدين أبو الحسن القنوني الحنفي الصفدي، سمع من العلماء كالحجار والجزري ثم أصبح علامة ذا قدرٍ وافرٍ وتواضعٍ عالٍ، عربٌ لديوان الإنشاء الكتب الأعجمية التي كانت ترد إليه، تولى مشيخة الشيوخ مكان قاضي القضاة شرف الدين المالكي، ووافته المنية 749هـ في طاعون دمشق. الصفدي، أعيان العصر، ج3. ص542-543. نفسه، الوافي بالوفيات. ج22. ص188.

الوردي¹.

والقاضي علاء الدين بن الآمدي²، الشاعر عمر بن أقوش المعروف بابن الحسام الافتحاري³، والشاعر والعالم محب الدين المغربي المعروف بابن الصائغ⁴.

وعلى الرغم من هذه الآثار السلبية على العلماء والأدباء، إلا أن الكوارث الطبيعيّة حرّكت قرائح الأدباء والشعراء، فأبدعوا في التعبير عنها شعراً و نثراً، وتناولوا الكارثة بأسبابها وصورها و آثارها، منوعين في أساليبهم و نوع الفن الذي استخدموه، فمنهم من كتب في الشعر فقط، ومنهم من زواج بين الشعر والنثر، أمّا في الشعر، فمنهم من نظم أبياتاً متفرقة وهي كثيرة ومتنوعة، ومنهم من رصد للكارثة قصيدة كاملة نظمها في وصفها وبيان تأثيرها، وعددها أربع قصائد.

أما في النثر، فقد ظهرت الرسائل والمقامات والقصص الواقعيّة والخياليّة والخطب، وقد أكثر الأدباء من وصف الكارثة في الرسائل، التي أتاحت لهم التفصيل في وصفها وعكس

¹ عمر بن مطفر ابن عمر بن محمد بن أبي الفوارس، الشيخ الإمام الفقيه النحوي الأديب الشاعر الناثر زين الدين أبو حفص بن الوردي المعري الشافعي، كان فقيهاً وأديباً وشاعراً فاضلاً ومتميزاً، متفنناً في العلوم مجيداً لشعره ونثره، تولى القضاء في حلب، وترك أمر الولايات ورفضها، وبقي يزود الطالبين بعلمه وأدبه، وكان آخر ما كتبه رسالة مبدعه أسماها (النبا عن الوباء) تتحدث عن الوباء في حلب عام 749هـ، وهو عينه الطاعون الذي توفي فيه في السنة ذاتها. الصفدي، أعيان العصر، ج3، ص 677-608، نفسه، الوافي بالوفيات. ج3، ص157، ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد ت (852هـ): الدرر الكامنة. القاهرة: دار الكتب الحديث. ج3. ص272. السبكي، طبقات الشافعية الكبرى. ج6. ص243، الحنبلي. شذرات الذهب. ج6. ص161.

² وهو علي بن إسماعيل بن جعفر، إمام الحساب، فما يكاد المرء ينطق بتفاصيل الشيء حتى يحسبها له، عمل في الديوان الأوقاف، ولم يكن بين كتاب المسلمين له نظير في عصره، فكان عالماً بما أعطاه الله من تألق في الكتابة وسرعة وعدم تأن في الحساب، توفي عام 764 هـ في طاعون دمشق. الصفدي، أعيان العصر. ج3. ص301.

³ هو زين الدين أبو حفص الشبلي الدمشقي الذهبي الشافعي، ولد عام 684هـ، كان ينظم الشعر، ويسمع الحديث، وكان حسن الصحبة طهور اللسان، توفي في طاعون دمشق عام 749هـ. الصفدي، أعيان العصر. ج3. ص598، نفسه، الوافي بالوفيات. ج22. ص437، الكتبي، فوات الوفيات. ج3. ص131.

⁴ وهو محمد بن عبد الله بن محمد الأموي المروي، كان شاعراً جزلاً، وعالم لغة فريد يعرف غوامض الكلام وعامتته، وكان على معرفة تامة بالعروض، تعلم الحديث الشريف على يد شيوخ ونحويين، فبرع في اللغة وجاء بالفريد منها. الصفدي، أعيان العصر، ج4. ص540. نفسه، الوافي بالوفيات. ج3. ص375. الحنبلي، شذرات الذهب. ج6. ص165.

آثارها، ومناجاةٍ من وجَّهوا إليهم رسائلهم، وكانت معظمها تأتي على صورةٍ مكاتباتٍ بين أديبين، يصف كلٌّ منهما ما رآه و عانى منه.

وقد عكست تلك الفنون صدى الكوارث الطبيعيَّة في نفوس الناس، وفي كلِّ ما يحيط بهم، عندما شاهد الأديباء وسمعوا ما حلَّ بالعالم الإسلاميِّ في ذلك الحين.

الفصل الثاني

الدراسة الموضوعية

الفصل الثاني

الدراسة الموضوعية

يُعدُّ الأدب الذي تحدّث عن وَصَف الطبيعة من أبرز الأغراض التي نظمَ فيها الشعراء وكتب عنها الكُتّاب على مرّ العصور، فوصفوا مظاهر الطبيعة التي لفتت انتباههم وداعبت خيالهم وغير أمزجتهم، ووصفوا في الوقت نفسه مظاهر الطبيعة القاسية بوجه لا يشبهُ وجهها الباسم الهادئ، بل بوجه عبوس لا يوجدُ فيه تلك الدعة والراحة وذلك الأمان والرفق، وغير ذلك ممّا وجدته في حديثهم عن وجه الطبيعة الباسم.¹

وانبرى الشعراء والكتّاب من خلال ما نظموا وكتبوا، بالحديث عن الكوارث والنكبات الطبيعية التي ألمت بالعالم العربي والإسلامي، وفصلوا الحديث فيها، فكتبوا في أسبابها، وصوروا أثرها، وأجملوا نتائجها، وفي الآتي عرضٌ مفصّلٌ لذلك كلّهُ:

الصورة العامة للكارثة

لقد تحدّث الأدباء عن جوانب مختلفة للكارثة الطبيعية، ففسّرها بعضهم، وتحدّث آخرون عن انتشارها وعمومها، وعبر آخرون عن شدتها وعنفها، و في الآتي تفصيل في ذلك:

أولاً: تفسير الكارثة

تعدّدت الكوارث الطبيعية التي لاقت صدىً في أدب العصر المملوكي الأوّل، وكانت الطواعين هي الكارثة الأبرز انتشاراً في الأدب، يليها الحديث عن الزلازل التي ضربت بكلّ قوتها كلّ ما على الأرض وما شابهها مثل بركان المدينة المنورة، فعبر الأدباء عن رأيهم في تفسير الكوارث الطبيعية التي عاصروها، أو عايشوها، أو سمعوا عنها، فبرزت أسباب عزاها بعض الأدباء إلى الطبيعة، كالمقريري الذي أوضح أنّ ما يحدث من قحط وأوبئة " إنّما يحدث من آفات سماوية في غالب الأمر كقصور النيل بمصر، وعدم نزول المطر بالشام والعراق

¹ انظر: الهيب، أحمد فوزي: الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء. ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة. 1986.

والحجاز وغيره، أو آفة تصيب الغلال من سائم تحرقها أو رياح تهيقها، أو جراد يأكلها، أو ما شابه ذلك¹، بل كانت لهم نظرة وتحليل خاص.

ورأى المقرئ كغيره من الأدباء أيضا، أن أسباب الكوارث تعود إلى البعد عن الدين والأخلاق الحميدة، فوجه النقد إلى بعض السوكيات السلبية التي كان الناس يقومون بها، ما جلب عليهم وعلى غيرهم هذه الغمة، يقول:

"هذه سنة الله تعالى في الخلق إذا خالفوا أمره، وأتوا محارمه، أن تصيبهم بذلك جزاء ما كسبت أيديهم"². ومن الأمثلة على ذلك أيضا، ما نظمه ابن الوردي في طاعون 749هـ:

قالوا فساد الهوى يُردي فقالتُ يردي هوى الفساد
كم سيئات وكم خطايا نادى عليكم بها المنادي³

في البيتين السابقين، يفصح الشاعر عن رأي العامة بالطاعون، فهو في رأيهم كارثة سببها الهواء الفاسد الذي ينقل المرض من منطقة إلى منطقة، لكن ابن الوردي يرد عليهم، أن الفساد الأخلاقي هو الذي أوصل الناس إلى هذه النتيجة، لكثرة سيئاتهم وخطاياهم التي جعلت قدرهم يأتي على هذا النحو

. ويورد ابن الوردي في أبيات له كيف يقرُّ الناس بذنوبهم في أثناء الكوارث الطبيعية، فيرون أن ما فعلوه من ذنوب قد استوجب عليهم هذا العقاب، ألا وهو الكارثة، وفي ذلك يقول في طاعون 749هـ:

إنّا اعترفنا بالذنوب كُنّا عاصِ مُسيءٍ للعذاب استوجباً
إن كان لا يرجوك إلّا مُحسنٌ في العالمين فمن يجير المذنباً⁴

¹ المقرئ: إغاثة الأمة بكشف الغمة. دراسة وتحقيق كرم حلمي فرحات. القاهرة: عين للدراسات. 2007. ص 115

² المصدر السابق. ص 115

³ ابن الوردي، زين الدين عمر بن مصطفى: الديوان. تحقيق أحمد فوزي الهيب. ط 1. الكويت: دار القلم. 1986. ص 87

⁴ المصدر السابق. ص 372

يعكس ابن الوردي في هذين البيتين إيمانه وإيمان الناس الكامل بالله تعالى، فهم مسيئون بحق الله تعالى، ولذلك استحقّوا ما أوقعه الله عليهم، لكنهم يأملون الصّحّ عنهم حتّى لو كانوا مسيئين.

ويتفقّ الصّفي مع ابن الوردي في هذا التحليل، إذ إنّه يرى أنّ الناس كانوا في غفلة من أمرهم، ولذلك حقّ عليهم ما حلّ بهم، فيقول:

رَعَى الرَّحْمَنُ دَهْرًا قَدْ تَوَلَّى يُجَازِي بِالسَّلَامَةِ كُلَّ شَرِّطٍ
وَكَانَ النَّاسُ فِي غَفَلَاتٍ أَمْرٍ فَجَا طَاعُونُهُمْ مِنْ تَحْتِ إِبْطٍ¹

فإنّ الله تعالى كان يمهلّ الناس الذين يخطئون ويرحمهم، لكنهم نسوه، فأرسل إليهم الطاعون، ردّا على غفلتهم.

ويرى البوصيري في بركان المدينة، أنّه غضب من الله تعالى على عباده الذين أخطؤوا وأذنبوا، وغفلوا عن سنّة نبيّهم المختار أيضًا، فيقول:

وَلَمَّا أَسَاءَ النَّاسُ جِيرَةَ رَبِّهِمْ وَلَمْ يَرَعَهَا مِنْهُمْ رَيْسٌ وَلَا وَغْدٌ
أَرَى لَهُمْ مَقَامًا لَيْسَ يُرَعَى لِجَارِهِ ذِمَامٌ وَلَمْ يُحْفَظْ لِسَاكِنِهِ عَهْدٌ²

فإنّاس على اختلاف طبقاتهم لم يحسنوا في سوكرياتهم وأخلاقهم، فأساءوا بذلك لدين الله تعالى ونبيّه الكريم .

ويتساءل أديب آخر عن تباهي الناس بسوء أعمالهم، وعدم تدبّرهم للقرآن وما فيه من أوامر ونواهٍ، وما فيه من ذكر للموت وليوم القيامة، يقول أحد الخطباء في زلزلة 702هـ: "أيّها الناس، إنّ المعاصي كثر عمالها، حتّى تباهيت في أعمالها، وفشت في ساير الأرض وأعمالها

¹الصّفي، خليل بن أيبك: ألحان السّواجع بين البادئ والمراجع. تحقيق محمد عايش . ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 2007. ج 1. ص 114

²البوصيري، محمد بن سعيد: الديوان . ط1. بيروت: دار المعرفة. 2007. ص 86

﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾¹ فلذلك ﴿زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾²، ﴿وَقَالَ
الْإِنْسَانُ مَا لَهَا﴾³ ولولا رحمةُ الله لأخرجت الأرض أثقالها، فإيا لها من ساعةٍ يالها⁴

ويستشهد الخطيب في خطبته هذه بآيات قرآنيةٍ ليدلل على سوءِ عاقبةِ الناس الذين كثرت
معاصيهم لربهم، فحقَّ بذلك عذابهم، فيقرنُ بينَ ما حصلَ معهم في هذه الزلزلة وبينَ الزلزلة
التي وعدَ الله تعالى به عباده، وهي يومُ القيامة، وما يتبعُها من أهوال.

ويُجملُ بعضهم محناً وكوارثَ حلتْ بالناس خلال حقبه زمنيةٍ معينة، على أنها إنذارٌ من
الله تعالى. ومثال ذلك ما نظمهُ السيوطي بعد مجموعةٍ من الكوارث الطبيعية كان آخرها سيلٌ
687هـ. يقول:

فَهَذِهِ جُمْلَةٌ أَتَتْ نُذْرًا مُسْتَوْجِبَاتٍ لِلْخَوْفِ وَالْقَلَقِ
فَلْيَحْذَرِ النَّاسُ أَنْ يَحِلَّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِالْأَوَّلِينَ مِنْ حَقِّ⁵

في هذين البيتين، يلخص الشاعر نتيجة غير كارثة حلت بالناس، كالسيل والقحط وهبوط
النيل والزلازل، فلم يكن كل ذلك في رأيه إلا نتيجة لعصيان الله، فهو ينذر الناس ويحضهم على
الخوف والقلق على مصيرهم، ويحذرهم كي لا يحلَّ بالناس ما حلَّ بالأمم السابقة التي غضب
الله سبحانه وتعالى عليها.

وتعكس بعض الأشعار، أنَّ السبب في هذه الكوارث، هو إقبال الناس على شهوات
الدنيا، رغم خوفهم من الموت، لكنَّ الأولى تكون الغالبة دوماً، فيقول أحدُ الشعراء في أثناء
طاعون 749هـ:

تُرَوِّعُنَا الْجَنَائِزُ مُقْبِلَاتٍ وَنَلْهُو حِينَ تَذْهَبُ مُدْبِرَاتٍ⁶

¹ سورة محمد، آية (24)

² سورة الزلزلة، آية (1)

³ سورة الزلزلة، آية (4)

⁴ الدواداري، كنز الدرر. ج9. ص 102. مؤلف مجهول، عصر السلاطين المماليك. ص 137

⁵ السيوطي، جلال الدين بن عبد الرحمن بن محمد: حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. بيروت: دار الكتب
العلمية. 1997. ج1. ص 69

⁶ ابن إياس، بدائع الزهور. ج1. ق1. ص532

ويرى ابن الوردي في موضع آخر أنّ الكوارث كلّها مقدّرة من عند الله سبحانه وتعالى أيضاً، ويرى أنّها نزلت لتأديب الناس ووعظهم، فهو بذلك يؤمن بقضاء الله وقدره، فيقول في سيل أصاب دمشق:

إِنَّ الْمَصَائِبَ بِالْأَقْدَارِ كَائِنَةً لَكِنْ عَلَى حَسَبِ الْأَقْدَارِ تُحْتَسَبُ
وَإِنْ دَهْمُنَا بِسَيْلٍ أَوْ بِنَوْعِ أَدَى كَالْتَلَجِّ وَالنَّارِ حَرْنًا مَا هُوَ السَّبَبُ
أَفْسَمْتُ بِاللَّهِ لَوْلَا حِلْمُ خَالِقِنَا لَكَانَ مِنْ عَشْرِ مَا نَأْتِي بِهِ الْعَطْبُ¹

لا يرى ابن الوردي غير القدر سببا لكلّ مصيبة تصيب الناس، والقدر شيء مكتوب من الله تعالى، وأنّ أخطاء الناس هي السبب في هذه المصائب، لكنّ الله لطيف بعباده، إذ إنّ القليل من أعمالهم السيئة، كفيلة بإهلاكهم.

وهذا الإيمان يثبتته في كارثة أخرى وهي زلزلة عام 744هـ، فلقد عاقبت هذه الكارثة المحسنين أيضاً ممّن لم يرتكبوا المعاصي، لكنهم مؤمنون بأنّها قدرٌ من الله، وجب عليهم الصبر عليه، يقول:

قَدْ وَاثَبَتْ بِالْهَجْمِ مَنْ لَا عَصَى وَعَاقَبَتْ بِالرَّجْمِ مَنْ لَا زَنَى
حُكْمُ عَزِيزٍ قَادِرٍ قَاهِرٍ فِي كُلِّ حَالٍ لَمْ يَزَلْ مُحْسِنًا²

ويصوّر بعض الشعراء كيف عزا بعض الناس كالمنجّمين و علماء الفلك، أسباب بعض الكوارث كيفما يرون، مؤكّدين على إصرارهم ردّ الأحداث العظيمة في الكون إلى صاحب التدبير، إلى الله عزّ وعلا، وفي ذلك ينظم ابن الوردي في زلزلة عام 744هـ:

إِنِّي بِفِعْلِ اللَّهِ أَوْلُ مُؤْمِنٍ وَبِمَا قَضَاهُ النُّجْمُ أَوْلُ كَافِرٍ
كَذَبَ الْحَكِيمُ فَمَا لَهُ مِنْ قُوَّةٍ وَذَوُ النُّجُومِ فَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرٍ³

¹ ابن الوردي، الديوان. ص183

² المصدر السابق. ص150

³ المصدر السابق. ص150

يُظهر الشاعر في هذين البيتين إيمانه بقضاء الله وقدره الذي تمثّل في هذه الزلزلة القوية، في الوقت الذي شاعت فيه آراء الحكماء وآراء المنجمين، ويرجعون الرأي فيها إلى حركة النجوم، عن غير علم، وهم في نظر الشاعر مخطئون.

وليس عامّة الناس وحدهم العاصون، بل كان كثيرٌ من الساسة يسيؤون و يظلمون، وبذلك حقّ عليهم غضب الله تعالى، بوقوع الكارثة عليهم، فبعض البلاد اشتهرت بظلم حكامها، ومنها معرّة النعمان،¹ فقال ابن الوردي في ذلك:

رَأَى الْمَعْرَةَ عَيْنًا زَانَهَا حَوْرٌ لَكِنَّ حَاجِبَهَا بِالْجَوْرِ مَقْرُونُ
مَاذَا الَّذِي يَصْنَعُ الطَّاعُونَ فِي بَلَدٍ فِي كُلِّ يَوْمٍ لَهُ بِالظُّلْمِ طَاعُونَ²

قال ابن الوردي هذين البيتين في طاعون عام 749هـ، إذ إنّ الطاعون في ذلك الوقت، لم يكن قد دخل معرّة النعمان، وقد تناول ابن الوردي هذه الواقعة وعزا سببها لظلم صاحب السلطة فيها، فإذا كان الطاعون يأتي على سكّان البلد فيتسلّط عليهم بجبروت فتكه، فإنّ هذه البلد قد يكفيها ما بها من الظلم الواقع عليها، فهو كالطاعون الدائم. ويظهر في البيتين السابقين، براعة الشاعر في اقتناص الحدّث لنقد سلطان ظالم، فكلاهما محنةٌ على الناس، الطاعون و الحاكم الجائر.

وينقد الأدباء الحكّام مباشرة ، فيذكرون أسماءهم وصفاتهم، ويجعلون الكارثة الواقعة عليهم حجّةً في النقد، ومن ذلك قصيده لشهاب الدين أحمد بن عبد الدائم الشارمسي³ في مدح السلطان الملك الناصر⁴ يهجو فيها المظفر بيبرس⁵، والناس في أثناء فترة حكمه، يقول:

¹ انظر: عبد الرحيم ، رائد: رسالة " النبا عن الويا " لزين الدين ابن الوردي ت (749هـ) دراسة نقدية، مجلة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية). ع5. م 24 / 1503

² ابن الوردي، الديوان، ص89.

³ هو شاعر مصري ولد سنة 663هـ في منطقة شارمسي قرب دمياط ، توفي وهو شاب . انظر: الصفي، الوافي بالوفيات. ج7. ص36 . العسقلاني ، الدرر الكامنة .ج1. ص174

⁴ الملك الناصر محمد بن قلاوون، وهو أصغر أبناء أبيه، ولد عا 684هـ ، تولى السلطنة وهو في التاسعة من عمره ، وأقصى عن الحكم غير مرّة. مات في عام 741 هـ . الصفي. الوافي بالوفيات.ج4. ص353.

⁵ ركن الدين بيبرس البرجي الجاشنكير، كان له ملك وسلطة في عهد الملك الناصر محمد بن قلاوون، إذ استولى على السلطة بعدما انقلب عليه، لكنّ الناصر تمكّن منه وقتله عام 708هـ. انظر: الصفي، الوافي بالوفيات.ج10. ص349-

فَقُلْ لِبَيْبَرَسَ إِنَّ الدَّهْرَ أَلْبَسَهُ أثوابَ عاديّةٍ في طولِها قِصرُ
لَمَّا تَوَلَّى تَوَلَّى الخَيْرُ عَن أُمَّم لَمْ يَحْمَدُوا أَمْرَهُمْ فِيهَا وَلَا شَكَرُوا
وَكَيْفَ تَمَشِي بِهِ الأَحْوالُ فِي زَمَنِ لا النَّيْلُ وافي وَلَا وافيَهُمْ قَطْرٌ¹

يوجّه الشاعر نقده للسلطان بيبرس، فيبدو في نظره أنه ليس أهلاً للحكم، ويتّضح ذلك من خلال عَرَضِه لحال مصر في ذلك الوقت، فالنيل متوقّف عن الزيادة فيها، والمطر مُنقطع، والناس غير مطمئنة وراضية عن ذلك، وبذلك فإنّ السلطان هو مَنْ تقعُ عليه مسؤولية هذه الظروف العصيبة التي تصيب الأمة، فهو ليسَ كفئاً لإدارة البلاد، والدليل على ذلك، أنّ القصيدة نُظِمَتْ في مَدَحِ سلطانٍ آخر، أجاد حكمَ البلاد، فأحسن إدارة شؤونها.

وقد قال الناس في عهد بيبرس أشعاراً أخرى عامية، تناقلها الناس بينهم، ومن ذلك ما جاء على لسان العامّة في مصر:

سُـلْطَانُنَا رُكُـوَيْنَ وَنَائِبُنَا دُقُـوَيْنَ يَجِينَا المَاءَ مِنْ مِـنِّينَ
جِيـبُوا لَنَا الأَعْرَجَ يَجِيءُ المَاءُ وَ يَتَدَخَّرُ²

في هذا الشعر الشعبيّ الذي يعتمد اللغة المحكيّة، يظهر أنّ الناس كانوا ناقمين على السلطان بيبرس بسبب القحط وغلاء الأسعار ، فلَقَّبُوهُ بالرُّكُويْن وهو تصغير لاسمه (ركن الدين)، ولَقَّبُوا نائِبُه سَلارٌ³ بالدُقَيْن لِقَلَّةِ الشعر في ذقنه، آمليْن أن يعودَ ليحكمهم (الأعرج) وهو الملك الناصر الذي كان يعاني من عَرَجٍ في رجله.⁴

وقد أكّد على ذلك المقرئ الذي تناول بعض الكوارث الطبيعيّة في ذلك العصر بالعرَض والتحليل، فيقول في هذا الشأن: " وكان قد ظهر الخلل في الدولة لِقَلَّةِ المال وكثرة النفقات فتعدّدت المصادرات للولاية والمباشرين، وطرحت البضائع بأعلى الأثمان على التّجار"⁵

¹ السيوطي، حسن المحاضر. ج.1. ص.118. ابن تعزي بردي، النجوم الزاهرة، ج.9. ص.48.

² ابن تعزي بردي، النجوم الزاهرة، ج.8. ص.189.

³ وهو من أبرز أمراء المماليك في عهد الملك الناصر محمد، وكان نائب السلطنة أيضاً. توفي عام 710هـ. انظر: الصفدي، أعيان العصر. ج.2. ص.489

⁴ انظر: في حاشية ابن تعزي بردي، النجوم الزاهرة. ج.8. ص.189

⁵ المقرئ، إغاثة الأمة. ص.107. انظر أيضاً: صورة المجتمع في العصر المملوكي. (رسالة دكتوراة غير منشورة)

جامعة دمشق . 2006-2007. ص.36

يأتي رأي المقرئ في هذا إبان الغلاء في زمن السلطان كتبغا، يوم أقحطت البلاد بسبب قلة المطر، فيرى أن الدولة قد قصرت في مهامها تجاه الناس في تلك الظروف، وأن ما حل بهم مرده إلى سوء تدبير الحكام، فالكارثة تحدث جدياً وقلة في الموارد والسلع، لكن سياسة الحاكم في دولته هي التي تزيد الأمر سوءاً على الناس.

ومن الأسباب التي ذكرها الأدباء في نصوصهم، قرب يوم القيامة بظهور علامة من علاماتها التي ذكرها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، مثل وقوع بركان المدينة المنورة¹، وقد قال في ذلك ابن قزل:

فَقُلْتُ كَلَاماً لَا يَدِينُ لِقَائِلِ سِوَاكَ وَلَا يَسْتَطِيعُهُ رَبُّ مِقْوَلِ:
سَتَظْهَرُ نَارٌ بِالْحِجَازِ مُضِيئَةً لِأَعْنَاقِ عَيْسٍ نَحْوَ بُصْرَى لِمُجْتَلَى²

يرى الشاعر في هذين البيتين أن النار التي انتشر شعاعها، وأرهبت الناس وأذتهم، قد تنبأ الرسول الكريم بها من قبل، وهذا أمر لا يحدث لأشخاص عاديين.

وصدق النبوة هذا هو الأمر الذي اعتمد عليه غير شاعر، ليكون مقدمة للحديث عن أثر الكارثة، فهي هو الصرصري يصور إيمانه بما ورد عن النبي الكريم في هذه النار، فيقول:

لَعُمْرِي لَقَدْ شَاهَدْتُمْ صِدْقَ وَعْدِهِ بِإِظْهَارِ نَارٍ مِنَ الْحِجَازِ تَوْعَرَا
رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ الصَّدُوقُ وَمُسْلِمٌ بِأَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ مُخْبَرَا
سَتَخْرُجُ نَارٌ بِالْحِجَازِ مُضِيئَةً بِبُصْرَى لِأَعْنَاقِ الرِّكَائِبِ تُبْصَرَا
فَشَاهَدْتُمْ مَرَأً فُظِيْعاً وَشِدَّةً تَكَادُ لَهَا الْأَحْشَاءُ أَنْ تَتَفَطَّرَا
أَيْنَ مَجَالِ الشَّكِّ فِيهِ وَمَنْ يَعِشُ يَرَى الشَّمْسُ حَيْثُ الْغَرْبُ طَالِعَةً تُرَى³

في هذه الأبيات يُقسم الشاعر بصدق نبوة الرسول الكريم، التي وردت في صحيح الحديث الشريف، وهي نارٌ عظيمة الانتشار، فلم يقتصر أثرها على منطقة واحدة، لذلك فهو يجد

¹ إشارة إلى الحديث: "لا تقوم الساعة حتى تخرج نارٌ من أرض الحجاز تضيء أعناق الإبل ببصرى". البخاري، محمد ابن إسماعيل ت (256هـ): صحيح البخاري. بيروت: دار إحياء التراث. ج9. ص73

² ابن قزل، سيف الدين المشد علي بن عمر: الديوان. تحقيق مشهور عبد الرحمن الحبازي. القدس: مركز التعاون والسلام الدولي. 2003. ص337

³ الصرصري، جمال الدين يحيى بن يوسف: الديوان. تحقيق مخيمر صالح. إربد: جامعة اليرموك. د.س. ص172

في هذه النار وعداً على المسلمين، ولا بدّ أن يراه الناس ويعانوا من أثره، فيكونُ هذا الوعد الصادق من النبيّ الكريم مدخلاً ليكون باباً لعفوه.

ووجدت أسباباً تتعلّق بالجانب الغيبيّ، وتُعزّا إلى ثقافة المجتمع السائدة، التي يقوم بعضها على الإيمان بالجن، ودوره في التأثير في حياة البشر، وكان رأيهم هذا مستنداً إلى حديث شريف للرسول صلّى الله عليه وسلّم،¹ لم يثبت وجوده في الصحيحين، لكنه ذكر في أسانيد أخرى، يقول: " الطاعون وخز أعدائكم من الجن"²

في قصة تناقلها الناس بينهم في أثناء طاعون 745هـ، أن رجلاً: " رأى الجنّ عياناً على جبل كالجراد المنتشر، و بأيديهم رماح بعض أزقة الصالحية³، وطاعنهم وطاعنوه، وصار يحدث بذلك، ويحلف عليه الناس، والناس بين مصدّق ومكذّب، ولم يلبث أن طعن ومات، ورؤي في بدنه أثر الطعنات"⁴

في هذه القصة الشعبية، يظهر مدى تأثر الناس بالحديث الشريف، لدرجة أنهم نسجوا قصصاً عن وجود الجن وتأثيره في وجود هذا المرض الفتاك، فالرجل يحلف أنه رأى الجنّ عياناً، وأنهما طاعنا بعضهما، وأرى الرجل الناس آثار هذا الطعن، ما جعل الناس في حيرة من أمرهم، إذ إنّ الثابت أن الجن كائنات لا يستطيع الإنسان رؤيتها بعينه المجردة، لكنها بقيت قصة تعبر عن سبب الطاعون، تلك الكارثة التي أذهلت الناس وروعتهم، على الرغم من أن سببها لم يستند إلى حديث صحّ ذكره في الصحيحين، ولا إلى تفسير يقبله العقل والمنطق.

ثانياً: انتشار الكارثة في البلاد

ذكر الشعراء والكتّاب في نصوصهم الأماكن التي وقعت فيها الكارثة ووصلت إليها، وذلك للتدليل على انتشارها، وعظم بلائها؛ إذ لم تنحصر في مكان واحد.

¹ العسقلاني، بذل الماعون في فضل الطاعون. ص 118-119

² ابن حنبل، أحمد بن محمد: مسند الإمام أحمد ابن حنبل. م. 4. ط1. بيروت: دار الفكر. د.س. ص 295

³ قرية في دمشق، انظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان. ج. 3. ص 390

⁴ السخاوي، وجيز الكلام. ج 1. ص 199

ويُظهر بعض الأدباء كيف وصلت الكارثة إلى أماكن واسعة في العالم الإسلامي، وكان للطواعين النصيب الأكبر في ذكر المناطق التي وصلت إليها الكارثة، ومما ورد ذكره في الطواعين، ما كتبه ابن الوردي في طاعون عام 749هـ في مدينة حلب، وهي المدينة التي كتَب رسالة "النبأ عن الوباء" في طاعونها، فيقول:

إِنَّ الْوَيْبَ قَدْ غَلَبَا وَقَدْ بَدَأَ فِي حَلْبَا¹

يتحدّث الشاعر عن شدّة الطاعون الذي وصل إلى مدينة حلب، فهو غالب على مظاهر الحياة فيها، ثمّ يذكر مدناً أخرى في الشام وصلها الطاعون، منها مدينة حماة. يقول:

يَا أَيُّهَا الطَّاعُونَ إِنَّ حَمَاءَ مَنْ خَيْرِ الْبِلَادِ وَمِنْ أَعَزِّ حُصُونِهَا
لَا كُنْتَ حِينَ شَمَمْتَهَا فَسَمَمْتَهَا وَتَمَّتْ فَاهَاً آخِذَا بِقُرُونِهَا²

يبرز الشاعر أنّ حماة من أفضل البلاد، وأكثرها حصانة وقوّة ومنعة، لكنّ الطاعون استطاع أن يدخلها، ويصوّر ابن الوردي في البيت الثاني دخوله إلى مدينة حماة، وكأنّ حماة فتاة شريفة جاءها الطاعون مغتصباً، موضحاً الطريقة التي يفتك بها الطاعون بالناس، وهو استنشاق الناس للهواء الفاسد، فيدخل السمّ إليهم، ويصيبهم بالوباء.

ولم يحصر ابن الوردي الكارثة في العالم العربي والإسلامي فحسب، بل إنّ طاعون 749هـ، الذي استمرّ زمنه خمسة عشر عاماً³، وشمل دولاً وقارات وابتدأ خبره من "ماصين عن الصين"⁴، وشمل أراضي في الهند وما تلاها من بلدان كثيرة ووصل قارة إفريقيا و أوروبا أيضاً.⁵

¹ ابن الوردي، الديوان. ص 90

² المصدر السابق. ص 89

³ المصدر السابق. ص 86

⁴ المصدر السابق. ص 86

⁵ ابن الوردي، الديوان. ص 87. انظر أيضاً: عبد الرحيم، رائد: رسالة "النبأ عن الوباء" لزين الدين ابن السوردي ت (749هـ) دراسة نقدية. ص 1499

ويتحدّث الصفدي أيضاً عن سير الطاعون في بلاد الشام بادئاً من مدينة غزة، فقال في وصول الطاعون للشام شعراً:

قَدْ قُلْتُ لِلطَّاعُونِ وَهُوَ بَغَزَّةٍ قَدْ حَالَ مِنْ قَطِيَا¹ إِلَى بَيْرُوتِ²

ووضّح الصفدي مسير هذا الطاعون في الشام نثراً إذا قال:

"أول ما دخل هذا الطاعون إلى الشام من غزة، وأدخل إصبيع كل أحد في رزيته³ تحت رزة، وفعل فيها وفي تلك الناحية ما فعل، ورمى فلم يخطئ المقاتل كأنما هو رام من بني ثعل⁴، وما قطّ عنها حتى وثب إلى قطيا، وبات يبيري سهامه في بيروت برياً⁵."

يظهر الصفدي في الفقرة السابقة، تأثير الطاعون في الشام، إذ دخل إلى مدينة غزة التي يشكّل موقعها مكاناً استراتيجياً واصلًا بين قارتي آسيا وإفريقيا، أو بين مصر والشام على وجه الخصوص، وشبهه وكأنه مقاتل همام لا تخطى رميته، ولا يتوقّف عند حدّ معين، بل إنّ فتكّه امتدّ إلى قطيا، وبيروت شمالاً.

ويصف البوصيري تأثير بركان المدينة المنورة على محلّة بصرى، فيتوهج ضوء النار القادم من المدينة شدةً وخفوتاً، كما لو أنّها البصرة العراقية في مدّ بحرهما وجزره، فتضيء من شدّتها الليل ويرى أهلها الإبل العتاق كأنهم في وضح النهار، فهي في شدّتها وانتشارها في غير مدينة تعكس قدرة الله تعالى وصدق نبوءة نبيّه. يقول:

وقد أبصرتها أهل بصرى⁶ كأنما هي البصرة الجارية بها الجزر والمد
أضاءت على بعد المزار لأهلها من الإبل العناق والليل مرّبد
أشارت إلى أنّ المدينة قصدها قرائن منها ليس يخفى بها القصد⁷

¹ بلدة على الحدود المصرية. انظر: ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة. ص 50

² الصفدي، ألحان السواجع. ج 1. ص 112

³ وهي المصيبة الشديدة. انظر: ابن منظور، لسان العرب. مادة رزء

⁴ هو موضع معروف بنجد. انظر الحموي، ياقوت: معجم البلدان. ج 2. ص 112.

⁵ الصفدي، ألحان السواجع. ج 1. ص 112. انظر أيضاً: ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة. ج 10. ص 16

⁶ مدينة جنوب مدينة دمشق. ياقوت الحموي، معجم البلدان. ج 1. ص 441

⁷ البوصيري، الديوان. ص 86

ويذكر بعض الأدباء اسم بلدٍ لا اسم مدينة، ليعبروا عن امتداد الكارثة في هذا البلد بكلِّ مدنه وريفه، كذكرهم فلسطين، يقول الصفدي:

يا عامٍ طاميم ذال فيك عتاً قاسى الأتنام رداءه من فلسطين¹

ويصوّر الشاعرُ الشيخ بدر الدين حسن بن حبيب²، كيف يطوف الطاعون في البلاد كأنه مسافر بلا وجهة محددة حاصداً أرواح الناس. فيقول:

إنَّ هذا الطاعون يفتك في العا لم فتك امرئ ظلوم حَسودٍ
ويطوف البلاد شرقاً وغرباً ويسوق الخلق نحو اللُهود³

يعدّ الشاعر الطاعون في هذين البيتين، متجبراً، يحلُّ ظلمه بالعالم من جهاته كلها؛ ليفتك بالبشر.

وقد تعمّ الكارثة إلى حدّ يرى فيه الأدباء أنه لا يوجد بقعة في الأرض إلّا وشملتها الكارثة بمصائبها، وأكثر ما جاء هذا الوصف في ذكر الطواعين دون غيرها، إذ إنّها كالوباء يسهلُ انتشاره، يقول شاعر في طاعون 749هـ:

مُصيبةُ الطّاعونِ قد أصبحتْ لم يخلُ منها في الوريّ بقعة⁴

وإن كان الطاعون أكثر الكوارث الطبيعية التي أبرزت انتشار الكارثة في الأدب، إلّا أنّ بعض الكوارث الأخرى أظهرت ذلك أيضاً، كالسيول التي يتسبب فيها مطر قويّ، أو تلجّ غزير، وكان معظمها دون ذكر منطقة بعينها، بل ذكرت الأماكن بتضاريسها، ومن ذلك وصف الصفدي للتلوج التي انهالت على الجبال، وغمرت كلّ المرتفعات والمنخفضات، ولكنّ انتشار الثلج لم يكن مدعاةً سرورٍ للناظر، بل سبباً في الهلاك. يقول:

¹ الصفدي، ألحان السواجع. ج.1. ص113

² وهو شاعر من مدينة حلب، ولد عام 710هـ، وكان صاحب علم وأدب، وله مؤلفات عديدة، من أبرزها كتاب نسيم الصبا. توفي عام 779هـ. الصفدي، الوافي بالوفيات. ج.12. ص166

³ المقرئ، السلوك. ج.2. ق.3. ص790

⁴ المصدر السابق. ج.2. ق.3. ص791

"وقد هال الجبال أمره فشابت من المفرق إلى القدم، وغمرت سيوله الأباطح والربا ولكن من الزيادة بدم.¹

يتضح مما سبق أنّ كثيراً من الكوارث لم يقتصر أثرها على المنطقة التي حدثت فيها فقط، بل عمّت مناطق أخرى مجاورة لمنطقة الحدث، وقد يكون هذا الانتشار ظاهرياً دون وقوع أذى مدمر، فيقع الناس فريسة الخوف من وصول الكارثة عليهم، أو تؤثر في طرقتهم عندما ينتقلون، وقد يكون الانتشار واسعاً و عظيم التأثير كذلك، إذ ينتقل أثر الكارثة بالعدوى المرضية، وكانت الطواعين والأوبئة أكثر هذه الكوارث شيوعاً، وقد عبر الأدباء عن ذلك، في تصويرهم للكارثة .

ثالثاً: عنف الكارثة وشدتها

عكست أدب الكوارث الطبيعية محاولات كثير من الأدباء، التعبير عن شدة الكارثة وآثارها المدمرة، من خلال نصوصهم المختلفة، فأطلت بوجوه متعدّدة تصوّر قسوتها.

ومن هذه الصور، أنّ الطبيعة تبدو غاضبة هائجة، لا يستطيع أحد الوقوف في وجهها، أو السيطرة عليها أو النجاة منها، ومن ذلك ما قاله أحد الشعراء في بركان المدينة المنورة:

بَحْرٌ مِنَ النَّارِ تَجْرِي فَوْقَهُ سَفْنٌ مِنْ الْهَضَابِ لَهَا فِي الْأَرْضِ إِرْسَاءٌ
كَأَنَّهَا فَوْقَهُ الْأَجْبَالُ طَافِيَةٌ مَوْجٌ عَلَيْهِ لِفِرطِ الْبَهْجِ وَعَثَاءٌ²

فالبركان تسري ناره وحممه دون توقف كالبحر، وهذا يعكس الخوف منه والإحساس باقتراب الموت، لعموم مياهه على وجه الأرض.

وتتكرّر صورة الطبيعة الهائجة الغاضبة، وذلك من خلال تصوير ظواهرها العنيفة، فها هو بركان المدينة يقذف نيرانه، وذلك لشدة الضغط الذي يعانيه من الأرض، وفي ذلك يقول البوصيري:

¹ الصفدي، ألحان السواجع. ج2. ص 28

² أبو شامة، شهاب الدين أبو القاسم الدمشقي المقدسي: تراجم رجال القرنين المعروف بالذيل على الروضتين.. ترجمة. محمد زاهد بن الحسن الكوثري. مراجعة عزت العطار الحسيني ط2. بيروت: دار الجيل. 1974. ص 192

وَ تَرْمِي إِلَى الْجَوِّ الصَّخُورَ كَأَنَّمَا
وَتَخْشَى بُبُوتِ النَّارِ حَرَّ دُخَانِهَا
بِبَاطِنِهَا غَيْظٌ عَلَى الْجَوِّ أَوْ حَقْدٌ
وَيَزْدَادُ طُغْيَانًا بِهَا الْفُرسُ وَالْهِنْدُ
فَلَوْ قَرَّبْتُ مِنْ سَدٍّ يَأْجُوجَ بَعْدَمَا
بَنَى مِنْهُ ذُو الْقَرْنَيْنِ دُكَّ بِهَا السَّدُّ¹

وتظهرُ صورةَ الكارثةِ فيما سبق قويّةً وشديدةً، فالنارُ تسودُ العالمَ إذا غضبت، فتقذفه بحمما الحارقة، و تزيد عزيمة المتجبرين ممّن يعبدونها، و تدمّر لشدّتها ما لا يقدر عليه أحد.

ويقول الصفدي في موضعٍ آخر، مصورًا غضب الطاعون، الذي يأتي على كلّ كائن حيّ، فيفتنك به. يقول:

كَمْ قَدْ رَأَيْنا فَناءً فِيهِ نَهْرُ فَناءِ تَدورُ مِنْهُ طَواحِينُ الطَّواعِينِ²

وفي سيل بعلبك سنة 717هـ، ينزل المطر بشكلٍ غير مألوف، ومن ذلك ما وردَ في رسالة عنه: "نزل من السماء عمودٌ عظيمٌ من نارٍ بأوائل السيل، و رأوا الدخان"³

وتظهر الطبيعة هنا متجبرة في عليائها، فهي لا تُرسل المطر المدرار فقط، بل تتقدّمه بمظهر مفرع، وكأنّ النارَ تسبقُ المطرَ فتندثر بكارثيته.

في هذه الصورة الشديدة، يبدو أنّ ذلك المطر الهائل الذي أحدث سيل بعلبك الجارف، قد سبقه برق ورعدٌ شديدان لم يعهدهما الناس، أو ربّما سبقته صاعقةٌ أذهلتهم، وأعيت فهمهم، فجعلتهم يتصوّرون ويتخيّلون، أنّ السماءَ أرسلت إليهم مطراً كأنّه عمودٌ من النار.

وتظهر السحب الكثيفة وكأنّها إنسانٌ صاحب سطوة أيضاً، فيرسلن ثلجهن دون رافةٍ أو رحمة، وفي ذلك يقول ابن الوردي أيضاً:

إِنَّ السَّحَابَ قَدْ طَغَيْنَ بِجَلْقٍ وَبَثَّ ثَنَ ثَلْجاً لَا سَلْمَانَ سَحَابِيا⁴

فالسحب تتوقّف عن عمل ما يحلو لها، ولا خيرَ فيما تعطيه، لذلك فهي متجبرة ولا حيلة لأحدٍ أمامها.

¹ البوصيري، الديوان. ص 85

² الصفدي، ألحان السواجع. ج.1. ص113

³ الفاخري، تاريخ الفاخري. ج. 1. ص424

⁴ ابن الوردي، الديوان. ص 185

وتبدو الطبيعة في مواضع أخرى، شيئاً ينفّرُ الناس منه، ومن ذلك ما عبّر عنه الصفدي

في إحدى مكاتباته عن السيول والتلوج:

فَلَيْتَ هَذَا الشِّتَاءَ الصَّعْبَ مُذْ وَقَعَتْ عَيْنِي عَلَيْهِ افْتَرَقْنَا فُرْقَةَ الْأَبَدِ¹

فالشتاء الذي هو فصل الخير، وهو الفصل الذي ينتظره الناس لبركة مطره، وهو الذي

جعل الناس في هذه السنة، يتمنون انقضاءه إلى الأبد، من شدة عنفه.

وتظهر الطبيعة قويّة جدًّا، مثل حيوانٍ مفترس، في ذلك يذكرُ ابن الوردي في بيتٍ له

وصول الطاعون إلى مدينة اسكندرية:

اسْكَنْدَرِيَّةُ ذَا الْوَبَاءِ سَبْعُ يَمَدٍ إِلَيْكَ ضَبْعُهُ²

وتظهر صورةً مشابهةً، في كارثة أخرى كالسيل، ومن ذلك

سَحَابُ الْبَرْدِ الْمُرْفَضِ صَائِلَةٌ عَلَى جِنَانِ دِمَشْقَ صَوْلَةَ الْأَسَدِ³

تظهر السحب في هذه الصورة مغرورةً وعنيفةً، فهي تسيطر على البلاد التي تمرّ

فوقها.

وتتشابه الصورة العامة لدى جميع الكوارث الطبيعيّة، فهي كوارث قويّة و مدمرةً،

يظهر الإنسان ضعيفاً أمامها، فهي تتسّف ما يعترض طريقها، وكأنّ بها غضباً شديداً تريد أن

تعبر عنه، فربطها الأدباء بالإنسان المسيطر أو الحيوان المفترس، الذي لا حول ولا قوة لردّه إلّا

بالله تعالى.

¹ الصفدي، ألحان السواجع. ج.1. ص 169

² ابن الوردي، الديوان. ص 87

³ المصدر السابق. ص 186

رابعاً: نتائج الكوارث الطبيعيّة

نتج عن الكوارث الطبيعيّة نتائج متعدّدة، منها نتائج سلبية، تمثّلت بالحالة النفسية للناس في أثناء الكارثة، والأثر الاجتماعيّ والاقتصاديّ والثقافيّ لها، وأخرى إيجابية، تمثّلت في التغيّر الاجتماعيّ والسياسيّ، وبروز الشكوى لله والمديح النبويّ، كأحد موضوعات هذا الأدب.

الآثار السلبية

أ. الأثر النفسي للكارثة

1- الخوف والقلق

أثارت الكوارث الطبيعيّة حالةً من الخوف والفرع عند الناس الذين عاصروها، فعبّر الأدباء عن هذا الخوف عند التحدّث عن كلّ مظهر من مظاهر الدمار، ومن ذلك ما نظمه ابن دانيال الموصلّي في خبر زلزلة 702هـ التي أسقطت البنايات:

أَهْوَى لَهَا بُنْيَانُ كُلِّ مَشِيدٍ وَارْتَاعَ دُعْرًا مَنْ رَأَى أَهْوَالَهَا¹

يعبّر الشاعر عن خوف الناس عندما تسقط بيوتهم وعمائرهم، فإذا كانت الزلزلة قادرة على تدمير كلّ شديد غليظ من البنايات، فكيف بحال الإنسان الضعيف؟

ويعبّر الأدباء عن مظاهر متعدّدة للخوف، ومن هذه المظاهر حالة الذهول التي أصابتهم عند حلول الكارثة، ومن الأمثلة على ذلك، قول الصفدي في تواتر المطر والثلج عام 753هـ الذي أصاب الناس بالبأساء: "أما ترى هذا النوء الذي ذمّ نواله، وحمد نواه، وأذهل الصائم عن صومه فما بيّت أمره، ولا نواه وشغلّه عن حسّه، فما يدري أفطر على تمرّة أم نواة".²

يُظْهِرُ الصَّفْدِيُّ فِي عِبَارَتِهِ السَّابِقَةِ، حَالَةً مِنَ الذَّهُولِ وَعَدَمِ الْوَعْيِ الَّتِي أَصَابَتْ النَّاسَ .

¹ ابن دانيال، شمس الدين محمد بن دانيال الموصلّي الكحال: المختار من شعر ابن دانيال. اختيار الإمام صلاح الدين خليل ابن أبيبك الصفدي، حققه وعلّق عليه واستدرك محمد نايف الديلمي، د.ط. الموصل: مكتبة بسام. 1979 م. ص 192

² الصفدي، ألحان السواجع. ج2. ص 27-28

ومن مظاهر الخوف أيضا، أنّ الكارثة تجعل الناس في حالة من القلق والأرق، ومن ذلك قول ابن قزل في نار المدينة المنورة:

وَلَمَّا نَفَى عَنِّي الْكَرَى خَبَرُ السَّيِّئِ أَضَاعَتْ بِإِذْنِ تَمِّ رَضْوَى¹ وَيَذْبُلُ²⁻³

يُظهر الشاعر في هذا البيت حالة الأرق التي أصابت الناس في أثناء هذا البركان، فقد امتدّ شعاع النار وكأنّها قريبة منهم ، فشعرَ الناس بالخوف الذي منعهم من النوم ، وظنّوا حدوث الضرر و الأذى.

وتتجلّى الصورة ذاتها في كوارث متشابهة، كالزلازل والبراكين مثلا، فكلاهما يحدثان حركةً غيرَ اعتيادية في طبقات الأرض، وهزّات في أوقات زمنيّة غير متوقّعة، فهما من أكثر الكوارث الطبيعيّة التي يخاف الناس منها حتّى في أوقات الهدوء، التي توهمهم بأنّ الكارثة انتهت، فتجعلهم في حالة من القلق الشديد، ومن الأمثلة على تأثير الزلازل قول ابن الودري:

نَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْ مِثْلِهَا زَلْزَلَةً أَسْهَرَتِ الْأَعْيُنَ⁴

يعكس الشاعر في هذا البيت شدّة الزلزلة، ويستعيد من شرّها، فهي من قوتها لا تجعل الناس ينامون خوفا، فتُجافيهم الرّاحة في النهار والليل.

وجعلت الكوارث الطبيعيّة الناس يُقلعون عن الأكل والشرب كما جعلتهم يقلعون عن الرقاد، ومن ذلك ما جاء في رسالةٍ أوردها أبو شامة، في خبر نار المدينة:

"ولها دويٌّ ما يدعنا نرقدُ، ولا نأكلُ، ولا نشرب، وما أقدر أصف لك عظمها، ولا ما

فيها من الأهوال"⁵

¹ جبل في المدينة المنورة. انظر: الحموي، معجم البلدان. ج.2. ص 51

² جبل مشهور في نجد. انظر: المصدر السابق. ج 5. ص 433

³ ابن قزل، الديوان. ص336

⁴ ابن الورددي. الديوان. 150

⁵ أبو شامة، الذيل على الروضين.ص 192

يظهر أبو شامة سبب الخوف الذي أصاب الناس، فقد كان للبركان صوتٌ قويٌ ولّد الذعرَ في قلوبهم، فجعلهم يُقلعون عن عاداتهم ونشاطاتهم اليومية.

ويورد أديبٌ سببا آخر لفقدان الناس القدرة على الهدوء النفسي والرقاد، وهو التخوّف من الإصابة بالأمراض التي تطيحُ بحياتهم، إذ شكّلت الطواعينُ رعباً حقيقياً للناس، فلم يعد الأمر مقتصرًا على سقوط البنايات أو سماع أصواتٍ مخيفة، بل بالجيوش الزاحفة التي تغزو جسدَ البشر دون استئذان، يقول الصفدي في طاعون 749هـ: "فإنّه قد عمّ البلاد والعباد، وغمّ النفوس وأذاب الأكباد، وفد مصرَ في أوّل السنة، ففقد أهلها القرار والسنة، وقدم بعسكرٍ من المنايا، وألقى الرعب في قلوب البرايا، وأبقى في صدورهم البلياء" ¹

وعبر الصفدي عن سوء حال الناس في هذا الطاعون، إذ كانوا ينتظرون الموت ويتوقّعون، مذعورين خائفين، فقال:

"قالناس بين ميتٍ و مائت، ومتوقّع للفوات وفانت، وأصبح كلّ جبارٍ وهو خائف، ويظنّ أنّ الموت على بابهِ واقف، ومات كلّ حيٍّ بالقوّة، وجّهز أهب الموت نحوه" ²

إنّ مصدرَ الرعب الذي أصاب الناس في الطاعون، هو إدراكهم أنّ الوباء لا يفرّق بين أحد منهم، فلا أحد يستطيع النجاة منه مهما فعل، فإن أتاه الطاعونُ فلا رادّ لوقوعه.

ومن مظاهر الخوف صراخ الناس، الذي يعدُّ تعبيراً عن حجم الذعر الذي نزل في نفوسهم، ومن الأمثلة على ذلك ما ورد في رسالةٍ عن زوبعةٍ الغسولة ³ التي انتهت بسيل جارف، فرأى الناسُ من الزوبعةٍ "عمودَ هواءٍ عظيم ورأوا الدخان، وسُمع من الصرخات في الأكوان ما يضعف الحيل". ⁴

¹ الصفدي، ألحان السواجع. ج.1. ص 109

² المصدر السابق. ج.2. ص 109

³ قرية من قرى دمشق. انظر: الحموي، معجم البلدان. ج.2. ص 204

⁴ الفاخري، تاريخ الفاخري. ج.1. ص 417

ومن المظاهر البارزة للخوف أيضاً، أنّ الكوارث الطبيعية ذكّرت الناس بمشاهد يوم القيامة، فقرنوها بها لشدّتها، فأوردوا بعض صفاتها في أدبهم؛ للتدليل على وطأة ذلك اليوم، ومنه ما أورده ابن قزل في بركان المدينة إذ قال:

وَأخْبَرْتَ عَنْهَا فِي زَمَانِكَ مُنْذِرًا بِيَوْمِ عَبُوسٍ قَمَطَرِيرٍ مُطَوَّلٍ¹

و في هذا البيت يورد الشاعر كيف أنّ بركان المدينة المنورة، كان يوماً موعوداً، إذ تنبأ النبيّ الكريم به في زمانه، لكنّه أرادَ وَصَفَ ذلك اليوم، فهو يومٌ كريه، عظيم الهول، تعبس فيه الوجوه عبوساً شديداً، وهي بعضُ أوصاف يوم القيامة، وأثرها على العباد.

ومن مظاهر يوم القيامة أيضاً، خشوعُ الناس، و إيمانهم بقدره الله سبحانه وتعالى، وذهولهم من شدّة الكارثة، ومن ذلك ما ورد في رسالة الصفة القبلية عن سيل عجلون:

"ولم تزل الأمطار متواترة الهطل والبروق تلمع، وأصداء الجبال و الأودية بأصوات الرعود للقلب تصدع، حتى ظن أهلها أن قد أزفت الأزفة، فارتفعت الأصوات بأن ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾² وكشفت الرؤوس، ووجلت القلوب، وطاشت الألباب"³

ومن صور الذهول أيضاً ما أورده شافع بن عليّ⁴ في مقامته عن زلزلة 702هـ: "وأكبّها الخوف على وجوهها، فمرغت في التراب الجبأ، وبلغت القلوب الحناجر"⁵

ومن مشاهدتها أيضاً، نفخُ إسرائيل في البوق، ومن ذلك ما يصوره شافع بن عبد الظاهر في مقامته، كيف ظنّ الناس أن إسرائيل نفخ في الصور لشده ما رأوه، فيقول: " لحظةً ظنّ بما أرته أنّ إسرائيل نفخ في الصور، وداهية أزلت ظلماتها الأنوار"⁶

¹ ابن قزل. الديوان ص 337

² سورة النجم ، آية(58)

³ ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري. ج.2. ص 274

⁴ هو شافع بن علي بن عباس العسقلاني المصري، ولد عام 649هـ ، له نظم وشعر كثير، وباشر ديوان الإنشاء بمصر حتّى أصابه العمى. توفي عام 730هـ. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات. ج 6. ص 77

⁵ السيوطي، جلال الدين أبو الفضل عبد الرحمن الخضير، كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة. تحقيق عبد اللطيف السعداني، ط 1. الرباط : وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي . 1971. ص 54.

⁶ المصدر السابق. ص 53

وبعدُ هذا المظهر من أكثر المظاهر الدالّة على الخوف، فهو مظهر يدلُّ على انتهاء الحياة الدنيا وبداية القيامة، وتعيُدُ المخيَّلة للتفكير في شكل المَلَك وماهيّة الصور وما يتبع ذلك، واستحضارُ الأديب لهذا المظهر دليلٌ على شدّة الخوف الذي أصاب الناس، وأربك تفكيرهم.

ومن مظاهر الخوف أيضا، هروب الناس من مساكنهم، وقد عبّر ابن دانيال عن هذا المظهر في أثناء تصويره حال الناس في زلزلة 702هـ:

يَا قَوْمِ أَرْضُكُمْ الْكَرِيمَةُ هَذِهِ قَدْ زُلْزِلَتْ عِنْدَ الضَّحَى زِلْزَالُهَا
وَقَدْ خَرَجْنَا هَارِبِينَ مَعَ الرَّدَى أَوْ قِيلَ عَنَّا أَخْرَجَتْ أَثْقَالُهَا¹

يخاطب الشاعر هنا الناس، متأثرا بالآية الأولى من سورة الزلزلة في عجز البيت الأول، بما تضيفه من اقتران معنوي بين يوم القيامة و زلزلة 702هـ، بأنّ الأرض الخيرة التي سكنوا فيها، قد تهدمت بفعل الزلزال، فخرج الجميع منها هاربين من الموت .

ويصوّر الأديب اختيار الناس للصحاري أو الفلوات للهروب من كارثة معينة، حتّى لا يصابوا بالأذى الذي توقعه، ومن ذلك ما يذكره ابن الوردي في زلزلة 744هـ، فيقول:

إِنَّا نُبِذْنَا بِالْعَرَا لَخَوْفِ زِلْزَالِ طَمَا
لَا مَا عَلَيْنَا مِنَ الْـ صَحْرَاءِ سِوَى قَطْرِ السَّمَاءِ²

يصوصّر الشاعر كيف خرج الناس إلى المناطق الأكثر أماناً في أثناء الزلزلة، وكرّر هذا المظهر غير مرّة نثرا أيضا في الرسالة نفسها، إذ وصف الصحراء بأنها أصبحت سكنا للناس الهاربين من الكارثة، فقال: " وسكنوا من خوفه الصحاري و الفلوات "³

¹ ابن دانيال، المختار من شعر ابن دانيال.ص192. انظر أيضا: هنا سببنا، صورة المجتمع في العصر المملوكي. ص47

² ابن الوردي، الديوان. ص 151

³ المصدر السابق. ص 140

وفي هذا التكرار، دليلٌ التشرّد الذي أصاب الناس، خوفاً على حياتهم. وهذا المظهر، هو المظهر نفسه الذي كان قد عبّر عنه شافع بن علي بن عبد الظاهر في مقامته التي كتبها في زلزلة 702هـ، فقال فيها إنّها "نبذت سكانَ المدن بالعراء"¹

ويختلفُ مكان اللجوء حسب نوع الكارثة، فالكوارث التي تُحدثُ انهياراً في المباني وتشقّقاً في الأرض، يلجأ الناس فيها للهروب إلى الأماكن المنبسطة الخالية حتّى لا يواجهوا انهيار خطر الأبنية والعمائر، وفي كوَارث أخرى كالسيول، يلجأ الناس إلى المناطق العالية، لدرء خطر الماء الذي يهدّد حياتهم بالغرق، ومن ذلك ما جاء في إحدى رسائل ابن فضل العمري² إلى الصفدي، إذ قال: "والركبُ قد حبس وما انطلق، ولجأ إلى ذروةٍ وخاف الغرق"³

في الحالة الأخيرة، يصرّ الكاتب كيف اختار الناس اتّقاء السيل بالهروب إلى منطقة جبلية مرتفعة، تحميهم من الخطر المحدق بهم.

وفي المناطق التي يصيبها الجذب، يظهر الناس غير قادرين على التعايش مع قلّة المصادر الغذائيّة، وارتفاع أثمان المتوفّر منها، فيضطر الناس لتترك أماكن سكّنتهم، للتوطن في مناطق أخرى، ومن ذلك أيضاً ما وصفه ابن صقيل الحرّاني⁴ في مقامة له بعنوان (اللادقية)، يصف فيها كيف أجذبت وانتشرت المجاعة فيها ما جعله غير قادرٍ على إطعام صبيته، فيقول:

"نويت مفارقة اللادقية والأقران الممادقية، لغلبة غلباء، وسنة شهباء، ما لمعت لها بروق، ولا لمعت بها لامع ولا بروق، وكنت في تلك المجاعات وتهافت الجماعات، صاحب صبية"⁵

¹ السيوطي، كشف الصلصلة. ص 53

² كاتب الإنشاء بالشام ومصر، وهو أديب ومؤرّخ، ولد في دمشق عام 700هـ. وتوفّي في طاعونها عام 749هـ. الصفدي. الوافي بالوفيات. ج.8. ص 163

³ الصفدي، ألحان السواج. ج.1. ص 166

⁴ كاتب، ومسنن الديار المصرية ولد 594هـ و توفي 686هـ. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات. ج.18. ص 523

⁵ البغدادي، أبو الندى معد بن نصر الله بن رجب (المعروف بابن الصيقل الجزري): المقامات الزينية. دراسة وتحقيق عباس مصطفى الصالحي. دار المسيرة. 1981. ص 111.

يكشفُ ابن صيقل عن مظاهر الجذب الذي عانت منها اللاذقية في تلك السنة، فلم يكن فيها مظهرٌ من مظاهر فصل الشتاء، ولا استيشارٌ بالخير، ونتج عن ذلك ظهورُ المجاعات، التي جعلت الناس يهاجرون منها بالجماعات طلباً للكأ والماء.

وبصور ابن صيقل أيضاً أنّ مفارقتَه لمدينته كانت مفارقةً صعبةً ، لكنَّ شحَّ الخصبِ فيها أجبره على ذلك، فكأنَّ كلَّ شيءٍ فيها أُجذب حتَّى خصوبته حتَّى النساء، فأصبحت اللاذقية مدينة قاحلة يسودها الغبار، وكأنَّ الخصار لم يكن سمَّها المعروفة، فهاجرَ منها الأديب هجرةً قسريَّة، شبَّهها بطلاق زوجةٍ حبيبة، فيقول: " فحينَ نجمَ دخانَ خضرائها، وأنجم دخانَ غبرائها، وتتجزم نسل نساءها، وانجرمَ النسل بأرجائها.. منحتها مرَّ الطلاق " ¹

ومع تزايد القحط في البلاد المنكوبة، ينصح الشعراء الناس بالانتقال إلى مناطق أخرى، بحثاً عن مكان يليق بالسكن ومُتطلباته، دون الإشارة إلى وجود عامل اجتماعي، كإطعام الأطفال أو غيرهم، أو وصف للمكان الذين سيلجؤون إليه، فيكفيهم ما حلَّ بهم من القحط، ومن هؤلاء البدر ابن حبيب، الذي دعا في شعره إلى تركِ مدينة حلب، يقول:

لا تَقْمُ بي على حَلَبِ الشَّهْبَاءِ وَتَرَحَّلْ فَأَخْضِرْ العَيْشِ أَدْهَمُ²

في البيت السابق، يدعو الشاعر الناس إلى تركِ حلب، فلقد تحولت إلى منطقة مقفرة، إذ أذهبَ الجذبُ خضارها ويناعتها، والعيش الهنيء فيها.

وينفرُ أديب آخر من المكوث في بلد ما، لتتابع الملمات عليها، ومن ذلك ما نظمه إبراهيم ابن عبد الرحيم بن جماعة³ في الطاعون 776هـ:

وما بِمِصْرَ مِنَ المَوْلِمَاتِ فَذُو اللَّبِّ لا يَرْتَضِي يَسْكُنُ
فتركُ وجورُ وطاعونُ وفرطُ غلاءٍ وهُمُّ وغمُّ والسراجُ يدُخِّنُ⁴

¹ البغدادي، المقامات الزينية.ص112

² السخاوي. وجيز الكلام. ج.1. ص 213

³ وهو قاضِ القضاة في مصر والشام وكان إماماً و فقيهاً معروفاً. توفي 799هـ. انظر: السبكي، طبقات الشافعية الكبرى. ج.3. ص 139

⁴ السخاوي، وجيز الكلام. ج.1.ص205

يجمل الشاعر في البيتين السابقين، بعض ما يعانیه الناس في مصر، فهُم يتركون سكنهم لما أصابهم من تتابع في المصائب، ويعانون من ظلم سياسي، و وباء عظيم، وارتفاع في الأسعار، وتعاسة وبؤس.

2- الحزن والألم والنظرة السلبية للحياة

رافق الخوف من الكارثة حالة نفسية سيئة، تمثلت بالشعور بالحزن والألم، والتشاؤم من الحياة، فدعا بعض الشعراء إلى عدم الثقة في الحياة، ما يعكس الصورة القاتمة التي تشكلت لديهم ولدى الناس الذين عاصروا الكوارث الطبيعية وعاشوها، ومن ذلك ما قاله الصفي في الطاعون:

لا تَثِقْ بِالْحَيَاةِ طَرْفَةَ عَيْنٍ فِي زَمَانِ طَاعُونُهُ مُسْتَطِيرٌ
فَكَانَ الْقُبُورَ شُعْلَةً شَمَعٍ وَالْبِرَايَا بِهَا فَرَّاشٌ يَطِيرُ¹

يدعو الشاعر إلى عدم الركون إلى الحياة الدنيا، فالطاعون كفيل بأن يهزّ هذه الثقة، فالناس قد انتشرت مقابرهم في كل مكان، وكأنهم هم الذين يطلبون الموت بأنفسهم، ويُقبلون عليه، كالفرشات يذهبن بأرجلهن إلى مصدر النار الذي يحرقها.

وتغيّرت نظرة الناس إلى الخير الآتي من الطبيعة، فلم تعد الطبيعة تأتي بالخير والبركة، بل بالهموم والمشاكل، ومن ذلك ما قاله ابن الوردي في سيل دمشق:

أَظْمَنْتَنِي الدُّنْيَا فَلَمَّا جِئْتَهَا مُسْتَسْقِيًا مَطَرَتْ عَلَيَّ مَصَائِبًا
سُحِبُ بَوَارِقٍ أَوْ تُلُوجٍ خَلْتَهَا زَنْجًا تَبَسَّمَ أَوْ قِذَالًا² شَائِبًا³

يعكس الشاعر في البداية شكواه من قلة المطر، وعندما دعا الله لذلك، أمطرت السماء بخير لا خير فيه، فقد كانت الظاهر الطبيعية المرافقة لذلك المطر شديدة، لدرجة أنها أصبحت

¹المقريزي، وجيز الكلام. ج.2. ق.3. ص.788

²جماع مؤخر الرأس من الإنسان. ابن منظور، لسان العرب. مادة قذل

³ابن الوردي، الديوان. ص.185

مصدر نازلةٍ أَلَمَّتْ به، فصوِّرت الحياة في نظره سوداء مظلمة، ليس فيها سوى بعض هذا البياض الذي أحدثه الثلج فيها.

وصوِّر أدباء آخرون كيفَ تحدثُ الكوارث من تغيُّر حياة الناس وأمزجتهم، فكلُّ شيء ينقلبُ إلى ضدِّه السيء في نظرهم، ومن ذلك ما عبَّرَ عنه ابن فضل العمري في رسالةٍ للصفدي في وصف الشتاء والسيول، فيتساءل: "كيف يهناً العيش وبروق الجوِّ سيوفٌ تختلط، نفسُ هذه الرعود يخرجُ بعدما حُبسَ في حشا و انضغط، وإلحاح سائل هذا المطر فلو كان قطره دراً لما مدَّ الفقير إليه كفاً ولا التقط" ¹

ويصوِّر الأدباء كيف فقد الناس الإحساس بالأيام، فهي متشابهةٌ لا تغيُّر فيها، ومن ذلك ما وصفه ابن فضل العمري في رسالةٍ أخرى إلى الصفدي، في تلوج دمشق وسيولها :

طالَتْ عَلَيْنَا لَهُ أَيَّامٌ مَدَّتِهِ كَأَنَّ أَيَّامَهُ أَضَحَّتْ بِبِلا عَدَدِ
لَقَدْ جَرَى وَهُوَ مُمْتَدُّ الْعِنَانِ بِبِلا نِهَائِيَّةٍ فِي مَدَى سَبْقٍ وَلَا أَمَدٍ ²

فقد أتعبت أيام الشتاء قلوب الناس، فلا شيء يميِّز اليوم السابق عن اللاحق، ولا شيء يوقف دوران هذه الأيام الصعبة التي تبدو لا نهاية لها، فيبقى الناس منتظرين فرصة الانعتاق من هذا البرد المخيف، الذي منَعهم من ممارسة حياتهم الطبيعيَّة.

ويصوِّر في موضعٍ آخر كيف أصبحت الحياة في نظر الناس شيئاً سرمدياً، لا تعاقب فيه للأيام، ولم تعد مظاهر الكون تسري كما هي عليه، فعمَّت الوحشة قلوب الناس، وانعدم الأمل:

"كأنَّ الأيام قوافٍ اندمجت في الليل، أو النجوم أقاحٍ ولكن غطاها تراكم السحاب الذيل، أو كأنَّ الله جعل الزمن سرمداً، فلم يتعاقب شمس ولا قمر، ولا تصفو لجة الأفق بضوءٍ ولا

¹ الصفدي، ألحان السواجع. ج.2. ص28

² المصدر السابق. ج.1. ص 164

ترميها الدياجي بكدر، وقد تزاومت الغياهب على المواقيت بالمناكب، وجُهلّت المدد فيا وحشتنا
لحاجب الشمس ومحيا القمر وعيون الكواكب¹

وضاعفت الكوارث الأحزان في قلوب الناس، ومن ذلك ما قاله ابن الوردي في الثلج
الواقع على دمشق:

أثلوج ضاعفت الهموم وظالما كلفتني ما ضررتي تكليفه²

يقول الشاعر إنّ الثلوج زادت في الحزن الذي في قلبه، فقد ترتب على هذا الكمّ الكبير
منها عبء كبير في نفسه، وجعلته يفكر فيما تضعه الثلوج من معيقات.

وتحسّر بعض الأدباء على من فقدوهم في أثناء الكوارث، وحننوا عليهم كثيراً، فقد زاد
موت الأحبّة في نفوسهم حسرةً فوق حسرة الكارثة ونتائجها، ومن ذلك ما قاله الصفدي في رثاء
الشيخ الإمام شمس الدين أبو عبد الله الأنصاري المعروف بابن الأكفاني³، في أثناء الطاعون:

من الطاعون قلبني في انقلاب فإن لكل من تلقاه فاني
ولما مات شمس الدين نادى كفاني فقد أكفاني كفاني⁴

فالصفدي يعاني حسرة الموت، فقلبه ينفطر للأعداد الكبيرة التي قضت في الطاعون، و
عندما عرف بموت الأكفاني، لم يستطع قلبه التحمل، فكفاه من سمع خبره.

ويكشف الصفدي في موضع آخر، كيف أثر الطاعون في نفوس بعض الفئات
الاجتماعية كالحرافيش، الذين أصابهم الغم من شدة الجوع وقلة القوت بأيدي الناس، فما عادوا
يطلبون منهم حتى القليل منه :

¹ الصفدي، ألحان السواجع. ج.2. ص 28

² ابن الوردي، الديوان. ص184

³ ولد في سنجار، وأصله مصري، جمع أشنات العلوم وبرع في علم الحكمة وخاصة الرياضية والهندسة والحساب.
توفي 749هـ. انظر: العسقلاني، الدرر الكامنة. ج.3. ص366

⁴ الصفدي، أعيان العصر. ج.4. ص 230

فقد صور الأديباء، عزوفُ بعض الحرافيش عن السرقة في أثناء حلول الكوارث الطبيعية.

وَأَصْبَحَ الحُرْفُوشُ صَاحِبَ كَسْرَةٍ مِّنْ طَلَبِ الكِسْرِ فِي شُغْلٍ¹
يَتَّضِحُ مِمَّا سَبَقَ، كيفَ أترُّ الكوارث الطبيعية في مشاعر الناس، فخلقت قلقاً وإرباكاً
وخوفاً، وشعوراً بالتعاسة وقصور الأجل.

ب- الآثار الاقتصادية والاجتماعية

وصف الأديباء الطبيعة القاسية وما تحدثه من آثارٍ سلبية و مدمرة على الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية، فمن الآثار التي تركتها الكوارث الطبيعية، ما دمر الأبنية و العمائر السكنية والحربية والثقافية وغيرها.

1- أثر الكوارث في المنشآت العمرانية والثقافية

من الكوارث الطبيعية ما لا تقوى المنشآت العظيمة على الوقوف أمامه، فيأتي على كل ما حوله حتى بنايات العالية والضخمة، ومن ذلك ما قيل في بركان 654 هـ الذي زلزل الأرض زلزلة عظيمة فأحدث هزة عنيفة في طبقات الأرض، وطالت الأحجار الصلبة بالضرر، ولم تسلم منها حتى البروج العالية. يقول أحد الشعراء فيها:

زِلْزَالٌ تَخْشَعُ الصَّمُّ الصَّلَابُ لَهَا وَكَيْفَ يَقْوَى عَلَى الزَّلْزَالِ شَمَاءُ
وَقَدْ أَحَاطَ لَهَا بِالْبُرُوجِ إِلَى أَنْ كَادَ يَلْحَقُهَا بِالْأَرْضِ إِهْوَاءُ²

يتساءل الشاعر عن شيء يستطيع أن يقف في وجه البركان، فكل ما هو قاسٍ ومنيع لا يستطيع الوقوف في وجهه، وهي إشارة منه إلى قوة البركان وأثره في بنايات، وهو ما أكده في البيت الثاني عندما أشار إلى أنها وصلت البروج، بما تحمله هذه البروج من معاني المنعة والعلو، فتضررت منها، حتى كادت النار تطيح بها.

¹الصفدي،: تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب. ق2. تحقيق إحسان بنت سعيد خلوصي

وزهير حميدان المصصام. ط1. دمشق: منشورات وزارة الثقافة. 1992. ص 274

²أبو شامة، الذيل على الروضتين. ص193

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً، ما أورده ابن الوردي، الذي قال:

طَارَتْ لِقَلْعِ الْقِلَاعِ زَلْزَلَةٌ مَا خَشِيَتْ رَامِيًا وَلَا صَائِدًا
إِذَا دَرَى الْحِصْنَ مِنْ رَمَاهُ بِهَا خَرَّ لَهُ فِي أَسَاسِهِ سَاجِدًا¹

يصور ابن الوردي كيف تأتي الزلزلة على القلاع دون مانع يمنعها، وكيف تأتي على الحصون بقوتها لتسويها بالأرض، وكأن شيئاً لم يكن.

ويوضح بعض الأدباء، أثر الكوارث الطبيعية على المباني التي تتعلّق بالحياة اليوميّة للناس، كالأسواق والحواري والعَرَصات وغيرها، وهي أشدُّ تأثيراً من غيرها من المباني المنيعّة، إذ إنّ العوام لا يعتنون بمنشآتهم كما يعتني أصحاب السلطنة بمناعة القلاع والحصون والأبراج، لما لها من أغراض عسكرية، ومن ذلك ما ورد في رسالة والي الصفة القبليّة لما حصل من أثر في سيل عجلون، فمن الناس من " احتسبَ عند الله جميع ماله وعقاره وخرسه، فأخذ هذا السيل العظيم ما كان في ممره من الدور والقياسر² والأسواق، ودخل الطواحين والبساتين، وأخذ جانبا من حارة المشاركة المجاورة للوادي، وأخذ العرصة، وسوق الأدميين، وسوق القطانين، وبعض دار الطعم، وسوق الأقباعيين، وسوق الخليع، وقيسارية التجار المعروفة بإنشاء الأمير سيف الدين بكنمر، والقيسارية القديمة. وأخذ من قيسارية مولانا ملك الأمراء الموقوفة على المارستان الذي بصفد عشرين حانوتا وضعع بقيّة الجدر، وهدم الأبواب، وهدم سوق الصاغة وأخذه، وهدم سوق الفاميّة الذي بقرب العين " ³

ويصفُ الفاخري هنا تأثير السيل في حياة الناس، فمنهم من فقد كل ما لديه، إذ أفقدَ هذا السيلُ عجلونَ بعضَ أسواقها بما تشتمل عليه من سلعٍ ضرورية لحياة الناس، ما سبّب خسائر ماديّة للتجار، وتشويهاً للشكل الحضاري والعمراني للبلدة، وتهدمت حوارٍ بأكملها بما حويه من بيوت سكنيّة خسرها أهلها، وتشرّدوا بضياعها، إضافةً لإغراق بعض البساتين والأوقاف الخاصّة بالجوامع.

¹ ابن الوردي. الديوان. 152

² هي صفة للمنيع الشديد القوي من الأبنية، انظر: ابن منظور، لسان العرب. مادة قسرّ

³ الفاخري، تاريخ الفاخري. ج.1. ص436

وبصوّر بعض الأدباء، ما حدث لمعالم عمرانية من تدمير كليّ أو جزئيّ، و هذا يبدو في رسالةٍ أوردّها الفاخري في كتابه عن سيل بعلبك، فيقول: " فلما اجتمعت وثقلت خرق من الصّور ما مساحته أربعون ذراعاً، مع أنّه محكم البنيان، شديد الأركان، و حصل لما يليه التصدّع مع أنّ سمكه نحو خمسة أذرع، وأخذ برجاً على حاله على التمام والكمال، وبعض بدنه عن الشمال، وهذا البرج ذرعه من كلّ جانب خمسة عشر ذراعاً فحملة الماء وهو على حالته لم ينتقص حتى مرّ على فسحة عظيمة نحو خمس مائة ذراع من الأرض"¹

بصوّر الكاتب في ما سبق أثر سيل بعلبك على منشآت عمرانية دون سواها، فالسيل خرق السور، وأحدث صدعاً في الجزء الباقي منه، رغم متانة بنائه، وعندما أتى على أحد الأبراج في المدينة هدّمه، وأخذهُ في أثناء مسيره.

وذكر بعض الأدباء تأثير الكوارث الطبيعيّة على المنشآت دون أن يذكروا اسم هذه المنشأة، بل جعلوا تأثير الكارثة كاسحاً لدرجة أنّها كان يأتي على كلّ ما يعترضه، فقد تقسّم كارثة ما البلد الواحد إلى قسمين، ومن الأمثلة على ذلك، ما فعله سيل بعلبك كما وصفه الفاخري في قوله:

"وانفرق على البلد فرقتين، فرقة في الناحية الشرقية بقبلة سالت حتى انتهت إلى بحر النهر، وبحرت بحرة عظيمة على الصور، حتى كادت تبلغ شرفاته ارتفاعاً، وتزايدت في طوله عظماً واتساعاً، ولطف الله سبحانه وتعالى، وثبت الصور وما كاد، وتصرف مع جريان النهر، ولم يحصل بحمد الله تعالى بسببه كبير ولا كثير فساد. والفرقة الثانية ركبت البلد ما بين باب دمشق وباب نحلة شرقيّ البلد بشمال، وانزجرت هنالك على الصّور نحواً من ذلك المنوال"²

بصوّر الكاتب ما فعله السيل ببعلك بعد أن قسمها قسمين، القسم الأول أخذ ما أخذ من سور المدينة، الذي خلف بعده بحيرة من الماء تجمّع في الثقب الحاصل فيه من قوّة السيل،

¹ الفاخري، تاريخ الفاخري. ج.1.ص423

² المصدر السابق. ج.1. ص 423

ومشى بمخلفات الصور وما أخذه بالطريق حتى وصل إلى النهر، والقسم الثاني كان تأثيره على بابين من أبواب المدينة، وفعل بجزء من السور كما فعل القسم الأول من السيل فيه.

إنّ هذا الانقسام الذي تحدّثه بعض الكوارث في المناطق المنكوبة، يغيّر بعضاً من ملامح الأرض وشكل تضاريسها، فمن الكوارث ما تمحو آثار المكان فلا يُعرف بعدها، ومن ذلك ما ذكره القاضي بدر الدين الغزي¹ عن أمطار وسيول الشام في رسالة له، فيقول في طرقها: "والطرق قد شرقت بالسيول فلا تنطق آثارها المغرّبة ولا المشرّقة"²

يعكس القاضي الغزيّ هنا كيف تحوّلت طرق الشام المحروسة إلى أماكن مقفرة من المعالم، فلا يكاد ناسها يعرفون آثارها في مناطقها كلّها، وذلك لعظم ما فعله السيل فيها.

وتؤثر المظاهر السلبية التي تتركها الكوارث الطبيعية في الطرُق على المسافرين، وبشكل خاص على الحجاج، الذين لا يملكون سوى وقتٍ محدّد لسفرهم في كل عام، فتأتي الكارثة لتغيّر في الطرُق، فتسدّها أو تجعلها صعبة، فتجعلُ الناس يتجهون إلى طرقٍ أخرى أقلّ صعوبة للوصول إلى مبتغاهم، ومن ذلك ما عبّر عنه ابن فضل العمري في إحدى رسائله للصفدي في سيول الشام: "وكان الركبُ الحجازيّ في هذه السنة بحراً يعجّ عجاجه، وبراً يضيقُ بنازليه فجاجه، وأكثر القومُ غرباً فجاؤوا من بعيد المسرى، وأتوا من خلف دار قيصر وكسرى، وركبوا الأهوال، وبدلوا الأموال، وخاضوا الأوحال، إلى هذه الأحوال"³

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً ما فعله بركان المدينة، الذي سالت ناره المتوهّجة في طرقاتها وما فعلته من تغيير في الطرُق، يذكر أبو شامة في إحدى الرسائل التي كتبها في النار:

"وقد سالت أودية منها بالنار على وادي شطا سيل الماء، وقد سدّت سبيل شطا وما عادت بسبيل، والله طلّعنا جماعة نبصرها فإذا الجبال تسير نيرانا وقد سدّت الحرة طريق الحاج

¹ حسن بن علي بن حمد بن حميد بن شنار، قاضٍ وكاتب الإنشاء في الشام. ولد سنة 706هـ وتوفي عام 753هـ.

انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات. ج. 12. ص 157

² الصفدي، ألحان السواجع. ج. 2. ص 27

³ المصدر السابق. ج. 1. ص 166

العراقي، فسارت إلى أن وصلت الحرّة، فوقفّت بعد أن أشفقنا أن تجيء إلينا، ورجعت تسير في الشرق¹

في النص السابق، يظهر كيف حفرت النار في الأرض على شكل أودية، وسدّت بعض الطرق المفتوحة كطريق الحجاج العراقيين، وبقيت تسيل في الطرق حتى توقّف وحدها محدثةً بعض التضاريس التي لم تكن موجودة، ففي الرسالة نفسها، يصف الكاتب كيف كوّنت النار وادياً، بعد أن كانت الجبال تذوب من شدة النيران، فيكتب: "وقد سال من هذه النار وادٍ يكون مقداره أربع فراسخ وعرضه أربعة أميال، وعمقه قامة ونصف، وهي تجري على وجه الأرض وهو صخر يذوب حتى يبقى مثل الإنك، فإذا خمد صار أسود، وقبل الخمود لونه أحمر"²

يصور الكاتب هنا كيف أذابت النار الصخور التي تعترضُ طريقها، فحفرت بذلك وادياً بمساحة تدلّ على شدة حرارتها، و تكون نوعاً من الصخور البركانية التي تشكّلت بعد ذوبان الصخر الأصلي، وخمول البركان و برود حممه.

وأثرت بعض الكوارث الطبيعية على المنشآت العلمية الثقافية كالمساجد والمدارس، ودمرت محتوياتها، ومن ذلك ما ورد في رسالة والي الصفقة القبلية يذكرُ فيها عن السيل:

"وأخذ المدرسة النقيبية، وهدم رواق الجامع القبلي، وباب الجامع الشرقي.... وأخذ طهارة الجامع"³

كما وصف الأدب ما حلّ بالمراكز العلمية من خراب، ففي سيل بعلبك يصور الكاتب ما حلّ بمقتنيات المساجد من كتب علمية ومصاحف شريفة، فقال:

¹ أبو شامة، الذيل على الروضتين.ص 190

لمصدر السابق. ص 191

³ ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري. ج.2.ص 275.

"ثمّ لم ينزل حتّى دخل الجامع الأعظم والمدرسة التي تليه فانزجر بها حتّى كاد يبلغ رؤوس العُمد في تناهيه، فأُتلف ما فيها من المصاحف والرّبعات، وكتب العلوم والأحاديث النبويّة، فشعّت فيهما وخرّب وغرق"¹

يصوّر النص السابق، تدمير السيل مقتنيات هذه المؤسسات التعليمية والدينيّة، وهذا يعكس حرص الأدباء على تصوير أثر الكارثة على الناحية العلمية والثقافية في البلاد الإسلامية. ويبيّن الأدباء أيضا كيف منعت الكوارث الطبيعيّة إقامة الصلوات و الدروس، ومن ذلك ما كتبه الصفدي في سيل بالشام:

"وساءت أحوال المدينة، وطاف طوفانه بالجامع وغرق السفينة.. وأذى الموانئ و المؤذنين، وأخرس القراء والمؤمنين"²

يبيّن الصفدي النتيجة النهائية لكل ما حلّ بالمنشآت العلمية والثقافية من دمار، إذ إنّ الدروس العلمية والصلوات لم تعد تقام فيها، فلم تعد هذه المنشآت تقوم بعملها وتقدّم رسالتها للناس، ولم يعد الناس ينتفعون منها، ما أثر بالتالي على الحركة العلميّة في ذلك العصر.

يُلاحظ مما سبق، أنّ الأدباء كانوا حريصين على وصف الكارثة بدقّة تعكس اهتمامهم بها وانفعالهم بروؤية آثارها، كوصفهم ما تحدّثه من تغيير، وكيفية حصول هذا التغيير، بل ومساحته الفعلية على الأرض، وما أحدثته بالتالي من خسائر اقتصادية لمن شملتهم هذه الكوارث، وما تسبّب عنه من نتائج اجتماعيّة أو ثقافية، تمثّلت في تشريدهم عن بيوتهم المنكوبة.

2- آثار الكوارث الطبيعيّة في الزراعة

صوّرت نصوص الأدباء في هذا العصر ما فعلته الكوارث الطبيعيّة في المزروعات والأراضي الزراعيّة، فمن الأدباء من تحدّث عن أثر الكارثة في المحاصيل، ومنهم من صوّر أثرها في الأراضي الزراعيّة بعامة.

¹ الفاخري، تاريخ الفاخري. ج.1. ص.423-424

² الصفدي، ألحان السواج. ج.1. ص.158

أما المحاصيل، فعكست بعض النصوص تأثير كارثة ما على سلعة زراعية بعينها، ومن ذلك ما قاله أحد الشعراء، عن كارثة الجراد الذي غزا محصول القمح عام 701هـ، يقول:

مَرَّ الْجَرَادُ عَلَى زَرْعِي فَقُلْتُ لَهُ مُدَّ الْجَنَاحَ وَلَا تَجْنَحْ لِإِفْسَادِ
فَقَالَ مِنْهُمْ خَطِيبٌ فَوْقَ سُنْبِلَةٍ أَنَا عَلَى سَفْرِ لَا بُدَّ مِنْ زَادٍ¹

يصور الشاعر تأثير الجراد على سنابل القمح بشكلٍ ساخر، إذ جرى بينه وبين أحد المزارعين حوار، يحاول المزارع من خلاله إقناع الجراد بعدم المساس بمحصوله، لكن الجراد يردُّ عليه جواباً مقنعاً، فهو حشرة لا تستقرُّ في مكان، ومن يسافر عليه أن يحمل معه ما يقويه، وسنابل هذه المزارع هي طعام هذا الجراد الذي لم يُبقِ ولم يدر.

إنَّ هذا النوع من الخسائر لا يقتصرُ على الناحية المادية للمزارع فقط، بل يقلل من كمية الغذاء ونوعيته.

ويذكر أدباء آخرون تأثير الكارثة على عدد من المحاصيل الزراعية المهمة، ومن ذلك ما أورده المقرئ في أثر الريح السوداء التي حلت بمصر عام 695هـ، وأفسدت بطريقتها غلالها: "فعند إدراك الغلال هبت ريح سوداء مظلمة من نحو بلاد برقة هبوبا عاصفاً، وحملت تراباً أصفر كسا زروع تلك البلاد، فهافت كلُّها ولم يكن بها إذ ذاك إلا زرع قليل، فسدت بأجمعها، وعمت تلك الريح والتراب إقليم البحيرة والغربية وإقليم الشرقية ومرت إلى الصعيد الأعلى، فهافت الزرع، وفسد الصيفي من الزرع، كالأرز والسمن والقلقاس وقصب السكر، وسائر ما يُزرع على السواقي، فتزايدت الأسعار"²

يعكس المقرئ هنا الحالة التي صارت عليها المزروعات عندما حان وقت حصادها، الذي تزامن مع هبوب تلك الريح المفسدة التي عمّت مناطق كثيرة، فكثرت ضررها، وعدد أربعا من المحاصيل التي فسدت، وكلها محاصيل مهمة يطلبها العامة، فكانت قلتها تمهيداً لزيادة أسعارها في السوق.

¹المقرئ، السلوك، ج1، ق2، ص 923

²المقرئ، إغاثة الأمة، ص 107

وبصوّر ابن فضل العمري في رسالته عن الثلج، إهلاك المطر و الثلج للمحاصيل الزراعية في الشام إذ إنه أتلف " من الأموال والمتاع والغلال ما لا يُعدّ " ¹، وهي إشارة منه إلى فساد المنتج الزراعيّ في ذلك الشتاء، ثمّ يعكس بصورة مؤلمة كيف تدخل الآلات لجرف الثلج المترام على المحاصيل، فيقول: إنّ الأراضي الزراعيّة التي شملها الثلج بضرره قد " دخلتها بالجواريف البقر لجرف الثلج، وما دخلت آلة الحرث دار قوم " ²

فبدل أن تدخل الآلات التي تجرّها الأبقار لحصاد المحاصيل الناضجة، ها هي معدّات الجرف تدخل الأرض لإزالتها بعد أن أفسدها الثلج، لدرجة أنّ الناس لم يستخدموا آلات الحرث في تلك الفترة، بسبب كساد محاصيلهم ذلك الشتاء.

وقد يحصّد موضع حدوث الكارثة أو مسيرها مزيداً من الأضرار على المزروعات، فبعض الأمطار كانت تسيل مع السواقي، وتلتقي مع مجاري الأنهار، ما يؤديّ إلى فيضانها، فتزيد الكميّة المطلوبة للنبتة، ما يؤدي إلى الإضرار بها وتلفها، ومن ذلك ما أشار إليه ابن فضل العمري أيضاً في رسالته، إذ تساءل عن الحال في تلك الأيام، فيقول في المطر: "وغرر هذه الأيام المغرورة، وسواقي هذه الغيوث المذرورة، وذرر هذه الأنواء الرّواء بالأرض المضرورة، وسيوف هذه السيول الحرّة المطرورة، ونزول هذه الثلوج بعقد البلاء المصرورة، ومشى الخلائق في أردية هذه السحب المزرورة، وعبوس هذه الثنايا الضاحكة وما هي مسرورة، و نوازل هذه الأمطار التي وُلدت بمواقعها النهر مسرورة، وعواصف هذه الأيام التي كأن بها جنّة أو هي لكثرة المرور ممرورة " ³.

بعد ابن فضل هنا تلك الأيام الشتوية العاصفة بأنّها مغرورة بقوتها، فقد سألت حتّى أضرت بالأرض، فكانت كالسيف عليها، ونزل بعدها ثلج جَلَب البلاء لها، فكان كلُّ ما عليها مستاءً ممّا حصل، فتكاثفت الأمطار والثلوج على الأرض، وكذا العواصف القوية المجنونة التي أوقعت الضرر بالمحاصيل.

¹ الصفدي، ألحان السواجع. ج.1. ص 157

² المصدر السابق. ج.1. ص 159

³ المصدر السابق. ج.1. ص 158

يتضح فيما سبق، أنّ الأدباء عبّروا عن تأثير الكوارث الطبيعيّة على الجانب الزراعي، من خلال إشاراتهم لأنواع هذه الكوارث التي تؤثر على التربة و المحصول، وبالتالي على المزارع والتاجر، إذ إنّ الأوّل عانى من كساد محصوله الذي هو مصدر رزقه الذي يعتاش منه، والثاني الذي لم يجد بداً من رفع سعر المحصول لقلّته، أو احتكاره في بعض الأحيان، الأمر الذي انعكس على عامّة الناس، التي عانت نتيجة لذلك من قلّة الغذاء.

3- الغلاء

عاشّ الناس الذين عاصروا الكوارث الطبيعيّة في هذه الفترة الزمنية في ضيق اقتصاديٍّ شديدٍ، وتشردٍ وقلقٍ، نتيجة ما خلفته هذه الكوارث من خراب في المنشآت العمرانيّة والقطاع الزراعيّ، ولم يعد الأمر محصوراً بهؤلاء الناس، بل مسّ الناس بعامّة بطريقة غير مباشرة، من خلال ارتفاع أسعار السلع الاستهلاكيّة ولا سيّما الغذائيّة.

ويفصّل بعضُ الأدباء كالمقريزي، أثمان الزروع والسلع التي ارتفعت، فقال في غلاء 695هـ: "وبيع الفروج بثلاثين درهماً، والبطيخة بأربعين، والرطل من البطيخ بدرهم، والسفرجل ثلاث حبات بدرهم، والبيض ثلاث حبات بدرهم، وتزايد القمح إلى مائة وتسعين الأردب والشعير إلى مائة وعشرين، والفل والعدس إلى مائة وعشرة دراهم، وأقحطت بلاد القدس والساحل ومدن الشام إلى حلب، فبلغت الغرارة من القمح إلى مائتي درهم وعشرين، والشعير بالنصف من ذلك، واللحم الرطل إلى عشرة دراهم، والفاكهة إلى أربعة أمثالها"¹

يتضح من السابق الترابط بين السلع الغذائيّة للإنسان، فالمقريزي يبدأ كلامه بذكر ثمن الفروج الذي يعدّ ثمنه أعلى من غيره من السلع النباتية في الأحوال الطبيعيّة، فيصوّر بشكل غير مباشر كيف أنّ الناس استتنت في تلك الفترة الاعتماد على السلع الحيوانية، وكيف أصبحت الفاكهة أعلى ثمناً من غيرها، فيُنهي حديثه بثمانها المضاعف عن ثمن اللحم، فالغطاء النباتي لم يكن وحده المتضرّر، بل الحيوانات التي تعتمد عليه، ما أدّى إلى نفوق الحيوانات نفسها.

¹ المقريزي، إغاة الأمة. ص 108

وَيَصَوِّرُ الشَّيْخَ مُحَمَّدَ بْنَ النَّوَوِيِّ فِي رِسَالَةٍ لَهُ عَنِ الْجَدْبِ فِي الشَّامِ: " أَهْلُ الشَّامِ فِي هَذِهِ السَّنَةِ فِي ضَيْقٍ عَيْشٍ وَضَعْفٍ حَالٍ، بِسَبَبِ قَلَّةِ الْأَمْطَاءِ وَغَلَاءِ الْأَسْعَارِ، وَقَلَّةِ الْغَلَّاتِ وَالنَّبَاتِ، وَهَلَاكِ الْمَوَاشِي وَغَيْرِ ذَلِكَ " ¹

وَحَوَّتْ بَعْضَ النُّصُوصِ صُورَةً سَاخِرَةً، تَبَيَّنُ الْحَالَةَ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا النَّاسُ فِي أَثْنَاءِ الْغَلَاءِ وَقَلَّةِ الْغِذَاءِ، إِذْ أَصْبَحَ النَّاسُ يَخْبِتُونَ الطَّعَامَ فِي أَمَاكِنَ خَاصَّةً عَنِ عَيُونِ أَوْلَادِهِمْ لِتَجْزِيئِهِ عَلَى الْيَوْمِ بِأَكْمَلِهِ، وَهِيَ صُورَةٌ تَبَيَّنَ حَجْمَ الْمَعَانَاةِ الَّتِي كَانَ الْأَهْلِيَّ يَعْانُونَهَا مَعَ أَطْفَالِهِمْ عَلَى وَجْهِ الْخُصُوصِ، وَمِنْ ذَلِكَ مَا نَظَّمَهُ ابْنُ دَانِيَالٍ فِي وَصْفِ حَالَتِهِ مَعَ أَطْفَالِهِ يَوْمَ أَقْحَطَتْ مِصْرَ لِتَوَقُّفِ النَّبْلِ فِيهَا، يَقُولُ:

إِنَّ عِنْدِي مِنْ عِيَالِي صِيبِيَّةً مِثْلَ الْخَبَايَا
يُخْرِجُونَ الْخُبْزَ لَوْ خَبَّأَ تُوهُ تَحْتِ الْحَشَايَا
وَلَوْ أَنِّي كُنْتُ بِحَرًّا شَرَّبُونِي بِالرَّوَايَا ²

يَصَوِّرُ الْمُوصَلِيَّ أَطْفَالَهُ يَطْلُبُونَ الْخُبْزَ وَيَبْحَثُونَ عَنْهُ وَلَوْ كَانَ فِي الْأَحْشَاءِ، وَهِيَ صُورَةٌ تَعْبَّرُ عَنْ قَسْوَةِ الْحَالَةِ الَّتِي كَانَ يَعْيشُهَا الشَّاعِرُ مَعَ أَطْفَالِهِ جِرَاءَ قَلَّةِ الْغِذَاءِ، وَهُوَ أَمْرٌ مِنْ بَدَهِياتِ الْحَيَاةِ لِلإِسْتِمْرَارِ فِيهَا، لَكِنَّ هَذَا الطَّلَبُ يُوجِبُ الْيُوجِبُ بِالْسُخْرِيَّةِ مِنَ الشَّاعِرِ الْأَبِّ كَمَا هِيَ الْحَالُ فِي الْبَيْتِ الْأَخِيرِ، فِي هَذِهِ السَّنَةِ الْمَجْدِبَةِ الَّتِي ارْتَفَعَ فِيهَا سَعْرُ كُلِّ شَيْءٍ.

وَمِنْ ذَلِكَ أَيْضًا وَصَفُ الْبَدْرِ بْنِ حَبِيبٍ، كَيْفَ تَضَاعَفَتْ أَثْمَانُ بَعْضِ السُّلُوعِ الْأَسَاسِيَّةِ فِي حَلَبَ:

كَيْفَ لِي بِالْمَقَامِ وَالْخُبْزُ فِيهَا كُلُّ رَطْلٍ بِدِرْهَمَيْنِ وَدِرْهَمٍ ³

يَتَسَاءَلُ الشَّاعِرُ فِي الْبَيْتِ السَّابِقِ، عَنِ الْحَالِ الَّذِي سَيَعِيشُهُ لَوْ بَقِيَ فِي حَلَبَ الَّتِي عَانَتْ مِنْ كَارِثَةِ الطَّاعُونَ، وَضُرِبَ مِثَالًا عَلَى سُلْعَةٍ أُسَاسِيَّةٍ فِيهَا وَهِيَ الْخُبْزُ الَّذِي بَلَغَ ثَمَنُ رَطْلِهِ ثَلَاثَةَ دِرَاهِمٍ.

¹ السيوطي، حسن المحاضرة. ج.1. ص 105

² ابن دانيال، المختار من شعر ابن دانيال. ص 180

³ السخاوي، وجيز الكلام. ج. 1. ص. 213

ويزدادُ الغلاءُ مع استمرار الكارثة، ويجوع الناس ويعاني الأطفال، فيزداد إقبال الناس على النزوح من بلادهم إلى مناطق أخرى تُوفّر لهم الأمن الغذائي، ليضمنوا عيشهم وعيش أولادهم، وهم يظنون أنّ الهجرة ربّما تكون حلّاً لمشكلتهم.

4- انتشار الموت

حظي تصوير الموت بنصيب وافر عند الأدباء؛ لما في الموت من صدمة نفسية للإنسان، ومعاناة مضاعفة له، لا سيما في هذه المرحلة التي قاسى فيها الناس كثيراً من الكوارث الطبيعية وآثارها، التي سببت لهم كثيراً من الأضرار النفسية والاقتصادية، وتسببت في تركهم ديارهم بحثاً عن مكان آمن لهم ولأطفالهم، تتوفر فيه مقومات الحياة، وكان ذلك شائعاً في المناطق الريفية التي يعتمد سكانها على الفلاحة حرفة لهم، فإذا عمّت الكوارث أرضهم كالجراد أو الفيضانات أو القحط، كانت تلك السنة سنة لعنة عليهم.

وبعض الناس لم يستطيع التحمل أكثر، لا سيما المهاجرين، الذي كان نزوحهم يتطلب غذاءً وماءً ودواءً لمرضاهم وقوةً بدنيةً لتحمل مشاق السفر، ففقدوا بعض أحبّتهم جرّاء ذلك، وازداد الموت بينهم جوعاً وعطشاً، وتراكمت الجثث، وحمّت الرياح معها الهواء الفاسد الناتج عن انتفاخ بعض الجثث، ما سبّب انتشار الطواعين والأوبئة بينهم.

ويشير المقرئزي إلى انتشار الطواعين في المناطق الريفية تأثرت بالكارثة أكثر من غيرها، فيقول: "عظم الوباء في الأرياف والقرى، وفشت بالقاهرة ومصر، وعظم الموتان"¹

فالبلاء الأكبر في نظر المقرئزي في المناطق الزراعية، إذ مات الكثير منهم فلم يُدفنوا، وخرج آخرون منها فنقلوا المرضى أو هلكوا على الطريق، وساعد فساد الهواء في نقل المرض إلى المناطق الحضرية، التي سرعان ما تأثرت بالأوبئة، فانتقل المرض، ومن لم يُصَب بالمرض، تأثّر بالغلاء والجوع، فحصل له ما حصل لغيره.

¹ المقرئزي، إغاثة الأمة. ص 109

واهتمّ الأدباء بتصوير الأمراض التي شاعت بين الناس، وأدت إلى ظهور وباء اجتاح مناطق واسعة من العالم في ذلك الوقت، فصوروا أعراضه و طرق انتشاره وسرعة نفاذه في مناطق متعددة، وكان أكثر ذلك في الشعر.

وكانت أعراض مرض الطاعون أكثر ما صورّه أدباء العصر المملوكي، فأكثرُوا من ذكر المواضع التي يظهر فيها المرض، فكان من أهمّ أعراضه، خروج بثرات أو حبوب من جسد المريض، بما كان يُعرف بين العامة بالطلوع أو الكبة.

يقول جمال الدين ابن نباتة مصوراً ذلك:

سِرُّ بِنَا عَن دِمَشْقِ يَا طَالِبَ الْعَيْشِ فَمَا فِي الْمَقَامِ لِلْمَرءِ رَغْبَهُ
رَخِصَتْ أَنْفُسُ الْخَلَائِقِ بِالطَّاءِ عَوْنِ فِيهَا فَكُلُّ نَفْسٍ بِحَبِّهِ¹

يدعو ابن نباتة إلى ترك مدينة دمشق بسبب وجود الطاعون فيها، فقد رخصت حياة الإنسان التي باتت تساوي في أيام المرض خروج حبة من جسمه تؤدي به إلى الهلاك.

وأورد غير أديب هذا الغرض في أبيات مختلفة، مصورين أثره على مدينة دمشق، وها هم الأدباء يدعون لها بالصلاح في صورة مؤثرة، وكأنها هي المسؤولة عن هذا المرض، وفي ذلك يقول ابن الوردي في طاعون 749هـ:

أَصْلَحَ اللَّهُ دِمَشْقاً وَحَمَاهَا عَنِ الْمَسَبِّهِ
نَفْسُهَا خَسَّتْ إِلَيَّ أَنْ تَقْتُلُ النَّاسَ بِحَبِّهِ²

وقد يستعير الأدباء أسماء أخرى للمدينة نفسها، كي يعبروا عن هذا العرض الذي انتشر في أقيانها، فأدى بالناس إلى الهلاك، فعلى سبيل المثال، استخدام الشعراء اسم "جلق" وهو اسم من أسماء مدينة دمشق، يقول الصفدي:

أَسْفَى عَلَى أَكْنَافِ جَلِّقٍ إِذْ غَدَا الطَّاعُونَ فِيهَا ذَا زِنَادٍ وَآرِي

¹المقريزي، السلوك، ج2، ق3، ص775

²ابن الوردي، الديوان، ص 88

الموت أرخص ما يكون بحبة وَالظلم زاد فصار بالقتل¹

يأسف الصفي على الحالة التي وصلت إليها مدينة جلق " دمشق "، وهو يصفها بالمدينة الظالمة، إذ إنها أصبحت رمزاً للموت، تطلقه على كل من فيها، بوساطة حبة تظهر عليهم، حتى أصبحت هذه المدينة مكاناً لهذا المرض الذي بات يُعرف من خلال بروز هذا العرض.

ويعبر بعض الأدباء عن هذه الحبة القاتلة دون ذكر مكان معين، مصوراً رخص حياة الإنسان فيها بفعل الطاعون، ومن ذلك قول جمال الدين بن المعمار:

فَبِحُ الطاعون داءً فُقِدَتْ فِيهِ الأحيّة
بيعت الأنفس فيه كُـلُّ إنسان بحبّة²

يعبر الشاعر في البيتين السابقين أثر داء الطاعون، فهو المسؤول عن موت من نحّبهم، بحبة تظهر في أجسادهم.

يظهر من السابق أنّ عناية الأدباء بذكر هذا العرض في أشعارهم؛ فهو العرض الذي أقلقهم وأفرعهم، وارتبط بالموت لديهم، وزاد في ذلك أنه لم يكن سوى حبة تظهر في جسد المريض، وصفها الصفي في رسالته عن الطاعون بأنها " يعزُّ نعتها على من وصف أو شبهه"³.

ومن المناطق التي تظهر هذه الحبة الصغيرة، هي منطقة خلف الأذن، وفي ذلك يقول الصفي متعجباً من ذلك:

تَعَجَّبْتِ مِنْ طاعونِ جَلِقِ إِذْ غَدَا وَمَا فَاتَتِ الآذانَ وَقَعَةَ طَعْنِهِ
فَكَمْ مُؤْمِنٍ تَلَقَاهُ أَدْعَنَ طَائِعاً عَلَى أَنَّهُ قَدْ مَاتَ مِنْ خَلْفِ أُذُنِهِ⁴

ويصف الصفي في أبيات أخرى موضعاً آخر تظهر فيه الحبة القاتلة، وهو تحت إبط المريض، وهو مكان خفي قد لا يدركه المريض بعينه بشكل مباشر كالموضع السابق، وقد عبّر عن ذلك الصفي في بيتين يشيران إلى ذلك الموضع.⁵

¹ الصفي، ألحان السواج، ج.1، ص 113

² ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج.10، ص168، ووردت في المقرئزي، السلوك، ج.2، ق.3، ص791: " كل نفس بحبيبة".

³ الصفي، ألحان السواج، ج.1، ص 113

⁴ الصفي، ألحان السواج، ج.1، ص 114، المقرئزي، السلوك، ج.2، ق.3، ص 789

⁵ انظر: تفسير الكارثة 33

ويذكر الشعراء عرضاً آخرَ يظهر على المريض، وهو خروج شيء على جسده يشبه شكل (الخيارة)، فسميَ بهذا الاسم وورد في الشعر هكذا، كما يبدو في قول الصفدي معبراً عما نزل بمدينة دمشق من قضاء الله وقدره:

ثَلَّ هَذَا الطَّاعُونَ عَرْشَ دِمَشْقٍ بِقِضَاءٍ مِنْ رَبِّنَا سُبْحَانَهُ
فَأَكَمَّ مَاتَ بِالْخِيَارَةِ شَخْصٌ كَانَ يَبْدُو كَأَنَّهُ رِيحَانُهُ¹

ويصور الصفدي في موضع آخر من رسالته في الطاعون هذا العَرَضَ، فيقول: "وقاسى الناس منه أهوالاً وشدةً، ثمَّ إنَّه جاء بخيارة، تطلع في الأريية مما كان للناس منها الخيرة، ولا نجَّاهم التسليم والانقياد ولا التشاؤم"²

يعكس الصفدي في قوله هذا، معاناة الناس من ظهور (الخيارة)، وهي تظهر في المناطق المرتفعة الظاهرة من جسد الانسان، فتكون سبباً في هلاكهم، ولا ينفعهم ما يتخذونه من سُبُلٍ تقيهم هذا العَرَضَ.

ويصور الأدباء أعراضاً أخرى تصيب المريض وتكون مصاحبةً لظهور الحبة أو الانتفاخ في الجسد، يشعرُ بها المريض ويعاني منها أياماً أو أقل، ثمَّ يموت، ومن هذه الأعراض، بصقُ المريض الدَّمَّ من فمه، وفي هذا العَرَضُ يقول الصفدي:

كَمْ هَالِكٍ نَفَثَ الدِّمَّ مِنْ حَلْقِهِ أَوْ مَا تَرَاهُ بغيرِ سَكِينٍ ذُبِحَ³

يبدو من البيت الأخير أنَّ الأدباء كانوا يعكسون نظرَهم للمرض، بوصفه شيئاً يدمر المصاب به من الداخل، فلا يجدُ المريضُ في البداية غير حبة خلف أذنه أو تحت إبطه، ثمَّ يجد أنَّه يفتتت من داخله، بدليل خروج الدم من داخل جسده عبر فمه إلى الخارج.

ويعرض ابن الوردي نظرته إلى المرض، وكأنَّه يسخرُ من أعراضه التي لا توازي

نتيجته، فيقول في أعراض طاعون 749هـ:

¹الصفدي، ألحان السواجع. ج.1. ص 114

²المصدر السابق. ج.1. ص 114

³المصدر السابق. ج.1. ص 115. المقرئزي، السلوك. ج.2. ق.3. ص 789

أَصْبَحَتْ حَبَّةٌ سَوِيَّةٌ تَقْتُلُ النَّاسَ بَبْرَقَةٍ¹

يجمع الشاعر في هذا البيت بين عَرَضين للمرض ترافقا للفتك بالناس، وهما حبة يعرف بها المريض بإصابته، وبصقة تطيحُ به إلى الموت.

ومن أهمّ النصوص التي صوّرت أعراضَ المرض أيضاً، القصص الشعبية التي رواها الناس في أثناء المرض، وتناقلوها فيما بينهم، فصاغها الأدباء والكتّاب في مؤلفاتهم، فتناولت العرضَ وشكله في جسد المريض، وليسَ هذا فقط، بل صوّرت كيفية انتقال العدوى بين الناس، وسُرعة انتشاره، ومن ذلك ما كتبه ابن تغري بردي في قصة مغسلة للموتى في أثناء انتشار الطاعون، إذ قال: "دخلت امرأة غاسلة لتغسل امرأة، فلما جرّدتها من ثيابها، ومرّت بيدها على موضع الكبّة، صاحت الغاسلة وسقطت ميتة، فوجدوا في بعض أصابعها التي لمست بها الكبّة، كبة قدر الفولة"²

تصوّر القصّة السابقة أمرين مهمّين، هما طريقة العدوى وسرعة انتشارها، فالحبة التي تظهر على جسد المريضة، انتقلت بشكل سريع إلى الغاسلة بمجرد لمسها لها، وقد ظهر مكانها في المنطقة التي لامست فيه الغاسلة الحبة مباشرة، وكانت النتيجة سريعة جداً، إذ إنّ الغاسلة لفظت أنفاسها فوراً.

وقد قدّم الأدباء صوراً مختلفة للمرض، تدلّ على سرعة فتكه بالناس، فهذا الصفدي يصوّر الطاعون بالوحش المفترس الذي ينقضُّ على فريسته على حين غرة فيقتلها في حينها:

لَمَّا افترستَ صِحَابِي يَا عَامَ تِسْعٍ وَأَرْبَعِينَا
مَا كُنْتَ وَاللَّهِ تِسْعاً بَلْ كُنْتَ سَبْعاً يَاقِينَا³

يُصوّر الصفدي سرعة الموت، فقدّم صورة (الافتراس) كأفضل صورة تعبّر عن سرعة انتهاء أجل المريض بالطاعون، فهذا العام وهو 749هـ، لم يكن عاماً عادياً، بل كان عام الموت، فينقضُّ الموت على الناس مُسرِعاً كما ينقضُّ السبعُ على فريسته.

¹ ابن الوردي، الديوان. ص 91

² ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة. ج10. ص 164

³ الصفدي، ألحان السواجع. ج1. ص 113. ابن إياس. بدائع الزهور. ج1. ق1. ص 532

وَبِصُورِ الصَّفْدِيِّ سُرْعَةَ فَنَتِكَ الطَّاعُونَ بِالنَّاسِ فِي أَبْيَاتٍ أُخْرَى، تُؤَكِّدُ قَضَاءَهُ عَلَى أُسْرِ
بِأَكْمَلِهَا، وَهِيَ صُورَةٌ حَزِينَةٌ أَنْبَرَى شِعْرَاءُ وَكُتَّابٌ لِتَصْوِيرِهَا، فَيَقُولُ فِي هَذَا:

قَدْ نَغَّصَ الطَّاعُونَ عَيْشَ الْوَرَى وَأَذْهَلَ الْوَالِدَ وَالْوَالِدَةَ
كَمْ مَنَزَلٍ كَالشَّمْعِ سُكَّانُهُ أَطْفَأَهُمْ فِي نَفْخَةٍ وَاحِدَةٍ¹

تأتي الصورة في هذين البيتين حزينة تعبر عن مأساة اجتماعية وفاجعة إنسانية كبيرة،
فالإنسان الذي يعيش سنوات وسنوات لينشئ أسرة له، يأتي الطاعون بلمح البصر ليقضي عليه
وعلى أهل بيته كلهم، فإن بقي أحد منهم، فإنه يعيش لكدر العيش، لا سيما الوالدين.

وَبِصُورِ ابْنِ الْوَرْدِيِّ أَيْضًا مَا يَفْعَلُهُ الطَّاعُونَ عِنْدَمَا يَدْخُلُ إِلَى بَيْوتِ النَّاسِ:

يَدْخُلُ إِلَى الدَّارِ وَيَحْلِفُ مَا يَخْرُجُ إِلَّا بِأَهْلِهَا
مَعِيَ كِتَابُ الْقَاضِي بِكُلِّ مَنْ فِي الدَّارِ²

يعكس الشاعر هنا أثر الموت الفتاك بشكل قاس، إذ إن الوباء يأخذ الناس بالجُملة، وكأنه
مكلف بذلك، وهي صورة تؤكد سرعة انتشار المرض، لا سيما في المناطق المحصورة.

ومن الكوارث الطبيعية التي صور فيها الأدباء الموت السيول، وهي مشابهة في
صورتها لصورة الطاعون، فالسيل القوي إن دخل على قرية أو بيت دمره، وجاء على كل من
فيه، لا سيما الأهل والأحبة، ومن ذلك ما رواه الأدباء من قصص واقعية، مثل قصة حصلت
للقاضي تاج الدين أبو سعد السعدي المعروف بابن البارنباري³ أنه " في سنة خمس وأربعين
وسبع مئة، كان في الشتاء نائماً هو وأولاده فجاء سيل عظيم، وكانت داره على النهر، وكان
للسيل ضجة من الناس وضوضاء، فقام من فراشه ليعلم ما الخبر وعاد فلم يجد داراً ولا سكاناً،
وراح البيت وولده، وأحدهما موقَّع والآخر ناظر الجيش، وجميع ما في البيت إلى البحر، وانتبه

¹الصفدي، ألحان السواجع. ص115

²ابن الوردي، الديوان. ص 93

³محمد بن محمد بن عبد المنعم، وهو قاض وكاتب وشاعر ونائر، ولد سنة 696هـ، عمل كاتب إنشاء في مناطق متعدّدة،

مات في القدس سنة 757هـ. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات. ج.1. ص 259

الناس لهذه المصيبة العظمى، وركب النائبُ وتوجهوا إلى البحر إلى أن طلع الضوء وقذف الموج ولديه وهما ميّتان¹

تعكسُ هذه القصةَ معاناةَ الناس في أثناء كارثة السيل، فهي تأتي فجأة، ولا يدري عنها أحد، فمن أحسّ بها هو الذي نجا منها، وتكشّفت له آثارها بفرعٍ بعد انتهائها، فهذا القاضي، لم يجد بدءاً من استيضاح أمر السيل الذي عمّ القرية، فقام من أجله فزعا من نومه، فما عادَ إلّا والسيل قد أتى على أهل بيته وأهلكهم، ودمّر بيته معهم، وكلّ من كانوا قريبين من ذلك الموضع، ليجد جثتي ولديه على الشاطئ، وهو منظرٌ مؤلم.

ويبدو من خلال القصة أن هناك بعض الأمور التي ساعدت على زيادة قوّة السيل في إهلاك الأنفس، وهو وجود النهر، الذي زاد من قوّة دفع السيل، فلم يدمر المنشآت فقط، بل أهلك الناس أيضا.

وتصور بعض القصص تدرّج الكارثة في التدمير، فبعض الكوارث تدمر المنشآت، ثم تعود لتهلك الناس الذين لم يبق لهم شيء من قبل، فتأتي على أسرٍ بأكملها، ومن ذلك ما روي عن عاصفة هوجاء في نواحي طرابلس، قتلت نحو ستّة عشر فرداً في موضع واحد، في الوقت نفسه، ومن بينهم رجلٌ كانت له بيوتٌ هناك، جاءت العاصفة عليها و " بقيت على بيوته ساعة زمنية تروح عنه يميناً وشمالاً، ثم تعود إلى البيوت، فما تركت له شيئاً، لا من البيوت، ولا من الأثاث، فلما عاين ذلك الرجل قال: يا ربّ قد أخذت جميع الرزق و تركت العائلة بلا رزق، أيش تركت لي حتى أطعمهم؟ فعادت الريح على بيوته صورة تّنين، فأهلكته، وأهلكت زوجته، وابنته و ابني ابنته، وجاريتته، وجماعة عددهم إحدى عشر نفراً².

تصور هذه القصة كيف تأتي الكارثة على عائلة بأكملها، وعلى كلّ شيء يخصّها، وتأخذ طابعا مميّزا هو ضرورة إيمان الناس بقضاء الله وقدره، فجاءت العاصفة المخيفة رداً على عدم ثقته بما قدر الله تعالى.

¹الصفدي، أعيان العصر. ج.5. ص 171

²الفاخري، تاريخ الفاخري. ج.1. ص 431

وقد تأخذ القاص طابع المفاجأة السارّة فيما يتعلّق بالموت، حين يُظنُّ أنّ أحدهم مات، ثم يخرج من المحنة على قيد الحياة، وهو طابع تغلب عليه ميزة الأعجوبة، ومن ذلك ما روي عن بائع لبن دُفن تحت ردم زلزلة عام 702هـ لثلاثة أيام، وفي ذلك " قيل إنّ شخصاً كان يبيع اللبن، فسقطت عليه الدار، فظنّ الناس أنه مات، فأقام تحت الردم ثلاثة أيام بلياليها، فلما شالوا عنه الردم، وجدوا فيه الروح، وقد تصلب عليه أخشاب الدار فسلم، وسلمت معه جرة اللبن التي كانت في يده، وهذا من العجائب."¹

تصوّر هذه القصة حجم المعاناة التي كان يعاني منها الناس في أثناء الزلازل، إذ إنّ معالم الكارثة تستمرّ وقتاً على الحالة نفسها من الدمار، وقد تحمل بين هذه المعالم ضحايا بعضهم يدفن من غير تابوت، وبعضهم يكون على قيد الحياة، ينتظرُ فرصة النجاة.

يتضح ممّا سبق، أنّ الموت كان من أبرز النتائج التي رافقت حلول الكوارث الطبيعيّة، فكان الناس يموتون بالكارثة بشكل غير مباشر؛ وذلك عن طريق الأمراض التي تسببت الكوارث بشيوعها بينهم، فانبهرى الأدباء لتصوير المرض وكيف يؤدي في النهاية للموت، وصوروا الموت كيف يحلّ بطريقة مباشرة ودون مقدمات، فور حدوث الكارثة، وذلك باستخدام فنون أدبيّة مختلفة، تظهر فداحة الكارثة وطرق فتكها بالناس، والأعداد الكبيرة التي كانت تقضي فيها.

5- مظاهر سلبية أخرى

انتشرت مظاهر سلبية أخرى في أثناء الكوارث الطبيعيّة، منها شماتة الناس ببعضهم، فبعد الطواعين التي عصفت بالمجتمع الإسلامي في العصر المملوكي وما خلفته من مأس إنسانيّة، تعرّض هذا المجتمع للشماتة من أعدائه، ومن ذلك ما عكسه ابن الوردي في أثناء طاعون 749هـ، يقول:

¹ ابن ياس، بدائع الزهور. ج2. ق.1. ص 416

سَكَانٌ (سيس) ¹ يَسْرَهُمْ مَا سَاعَنَا وَكَذَا الْعَوَائِدُ مِنْ عَدُوِّ الدِّينِ
اللَّهُ يَنْقُلُهُ إِلَيْهِمْ عَاجِلًا لِيَمِزَّقَ الطَّاعُونَ بِالطَّاعُونَ ²

يصور حالة الفرخ التي اعترت سكان هذه البلاد، لما حل في البلاد الإسلامية من وباء عاصف، وهو يستبشرُ بوصول الوباء إليهم، ليردَّ الله كيدهم. ³

وعكس ابن الوردى في الموضوع ذاته حالة الغضب التي اعترت المسلمين جرّاء هذه الشماتة، يقول: "ومما أغضب الإسلام، وأوجب الآلام، أنّ أهل سبب الملاحين، مسرورون لبلادنا بالطواعين، حتّى كأنهم منه في أمان، أو عليه أن لا يقربهم ضمان، أو كأنهم إذا ظفروا، وربّنا لا تجعلنا فتنةً للذين كفروا" ⁴

يعكس ابن الوردى نظرتَه إلى الشاميتين بمصائب غيرهم، فالوباء هو أمرٌ محتوم لا رادّ له، ولا تستطيع أمة اختياره أو الهروب منه، وفي ذلك تتساوى الإنسانية في المرض والموت، وشماتة الأمم ببعضها هو أمرٌ يَصوّرُ ازدراءً بعض الشعوب لبعضها وقت حدوث الكوارث، وهو قيمة اجتماعية سلبية، لا تعكس رقي الجانب الإنساني في هذه المجتمعات.

وتناول الأدباء في مواضع أخرى، ظواهر سلبية انتشرت في المجتمع الإسلامي الذي عانى من وقع الكارثة، ومن أهم مظاهرها، انتشار السرقات بين العامة، ومن ذلك ما رواه المقرئ في إمساك المطر عن مصر وتعرضها للقط عام 695هـ:

"واشتدّ الأمر بمصر، وكثر الناس بها من أهل الآفاق، فعظم الجوع، وانتهب الخبز من الأفران والحوانيت، حتى كان العجين إذا خرج إلى الفرن انتهبه الناس فلا يحمل إلى الفرن، ولا

¹ ويقال له سيسة أيضا، وهي من أعظم الثغور الشامية، ارتبط اسمها بمسكن سلاطنة الأرمن فيها. انظر: الحموي، معجم البلدان. ج 3. ص 297-298

² ابن الوردى، الديوان. ص 94

³ انظر أيضا: عبد الرحيم، رائد، رسالة "النبأ عن الوباء" لزين الدين ابن الوردى ت (749هـ) دراسة نقدية. ص 1504

⁴ ابن الوردى، الديوان. ص 92 انظر أيضا: عبد الرحيم، رائد، رسالة "النبأ عن الوباء" لزين الدين ابن الوردى ت (749هـ) دراسة نقدية. ص 1504

يخرج الخبز منه إلا ومعه عدة يحملونه بالعصا من النهاية، فكان من الناس من يلقي بنفسه على الخبز ليخطف منه، ولا يبالي بما ينال رأسه من الضرب، لشدة ما نزل به من الجوع¹

يرى المقريزي أنّ السرقة كانت من أبرز النتائج الاجتماعية السلبية التي انتشرت في المجتمع الذي حلت به كارثة طبيعية، وضرب المثل على ذلك بما حلّ بأهل مصر إذ زاد الجوع بينهم، وبالتالي لجؤوا لسرقة الخبز والطحين أيضاً، ويبدو أنّ من قاموا بالسرقة هم من العوام العاديين، إذ لم يُشر المقريزي إلى كون هؤلاء من اللصوص، والدليل على ذلك أنّهم قاموا بسرقة الخبز، وهو القوت الرئيسي الذي يقوم به جسد الإنسان، ولم يشر إلى سرقة أشياء أخرى ثانوية، كما أنّ هؤلاء الناس كانوا يحتملون ما يتعرّضون له من عنف في أثناء انقضاءهم على الخبز، الذي كان عياناً بين الناس، وهذا دليل على أنّ الغرض الرئيس من السرقة هو سدّ غريزة الجوع.

ومن الظواهر الاجتماعية السلبية، ما كان بعيداً عن الدين والثقافة الاجتماعية البعد كلّ، وانتشر بين بعض الناس، ففي أثناء الكوارث، روى الأدباء في نصوصهم ما شاع بين الناس عن بيعهم أولادهم لشراء الطعام، ومن ذلك ما يرويّه المقريزي: "وعدم القوت ببلاد اليمن واشتدّ الوباء، فباعوا أولادهم في شراء القوت."²

يعكس المقريزي صورةً تبعثُ على الدهشة والعجب والألم في الوقت نفسه، إذ إنّ الآباء لجؤوا لبيع أطفالهم مقابل الحصول على مالٍ لشراء الطعام أو مقابل الطعام نفسه، وهي صورةٌ تعكسُ حالةً القهر التي وصل إليها الناس في ذلك الوقت، وانحطاط المبادئ والقيم الاجتماعية لديهم.

ومن المظاهر السلبية التي تتعارض مع الدين ومع قيم المجتمع وثقافته، أكل الناس لموتاهم، وهي ظاهرة غريبة على المجتمع العربي والمسلم، أخرجت الإنسان عن آدميته، فجعلت من بعضهم مثل آكلي لحوم البشر، وقد كثرت القصص التي تحدّثت عن هذا الجانب

¹المقريزي، إغاثة الأمة. ص 108

²المصدر السابق. ص 108

الاجتماعيِّ المأساويِّ، ومن ذلك ما رُوِيَ على لسان رجلٍ كانَ يخدمُ في ديوان نقيب المماليك السلطانية، يقول:

"طلعتُ في الغلا ذات يوم فنظرتُ تحت القلعة إلى جماعة كبيرة مجتمعين وبينهم شيء، فأتيتُ إليهم فوجدت ثلاث نفرٍ قد مسكهم متولي القاهرة، واحد مع الجمارية¹ صغير سباعي العمر، قد قطع يده ورجلاه وجوف ودهن بزعفران، وقد شوي كما يُشوي الجدي أو الخروف، فسألت، فقيل لي، إن هؤلاء الثلاثة وجدناهم جلوساً يريدون أكله، فهجمنا عليهم، وقررناهم، فاعترفوا أنهم فعلوا بالأمس بأخرى مثل هذا الفعل، فرسم بشنقهم، فشنقوا بيات زويلة، ولم يصبح منهم شيء، فقد أكلهم غيرهم، فكما أكلوا أكلوا، وهذه من غرائب البلايا".²

تعكس القصة السابقة لجوء بعضهم إلى أكل الميتة من الناس، والكيفية التي كانوا يأكلون بها، فكان الميت يُقسَّم وينظف كما تنظف الحيوانات التي يأكلها الإنسان في العادة، وتضاف إليه النكهات التي تجعل طعمه مقبولاً للأكلين، ويُشوي حتى ينضج كما لو كان لحماً سائغاً للأكل، وكان الفاعل يعترف بذلك وينال عقابه من الدولة، حتى إذا نال جزاءه وشنق، نال بعد موته كما فعل من قبل، فيلنقطه آخرون جائعون ويأكلونه، ويظهر من خلال القصة أن لحوم الأطفال كانت مستساغة أكثر من غيرها لدى الأكلين، وقد يرجع السبب في ذلك أن الأطفال كانوا من أكثر الفئات التي تتعرض للموت، أو ربما كان طعم لحمها مستساغاً أكثر من غيره.

ولا يقتصر الأمر على الرجال، فللنساء نصيب من أكل لحوم الأدميين أيضاً، لا سيما الأطفال، ومن ذلك ما رواه المقرئ في قحط عام 749هـ، عن قصة المرأة التي وجدها بعض الأمراء تستعطي عند باب في السوق فأخذها أحدهم إلى داره فأطعمها وسقاها وكانت في كل

¹ هو " من يتصدى لإلباس السلطان أو الأمير لباسه " دهمان، محمد أحمد: معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي.

ط1. لبنان: دار الفكر المعاصر. 1990. ص 54

² الدواداري، كنز الدرر. ج8. ص 364

مرة يأتي لها بإناء طعام تشتهي الجوع فيلحقها بإناء آخر حتى استندت في آخر أمرها الى حائط ونامت، ثم ماتت، ووجدوا معها جراباً¹ فيه أطراف طفل.²

ويتعدى الأمر ذلك إلى أكل الآباء أبناءهم كما تروي القصص أيضاً، ومن ذلك ما يرويّه ابن الجزري في تاريخه على لسان أحدهم الذي روى له القصة في أثناء مروره بالديار المصرية إلى مدينة دمشق، يقول: "كنتُ ركباً في طريق قلعة القاهرة، وأنا أساير بعض الأمراء، وإذا بامرأة وقدامها لحم مشوي وعليه أبازير جرة، فقيل لها، أيش هذا؟ فقالت هذا ولدي، فلاموها على ذلك، فقالت: وهذا وحده؟ قد عملت باتنين قبله مثله".³

تبدو القصة السابقة الأكثر عجباً ومأساويةً، فالأمُّ التي هي رمز التضحية والحب تصبحُ آكلةً للحوم أبنائها الموتى، وهي لا تشعرُ بالندم كما يظهر من خلال القصة، بل إنها قد أكلت غير ولدٍ من أولادها، وتبدو ظاهرةُ أكل لحوم الأطفال وكأنّها شائعة ومألوفة، فالأمراء وهم رمزٌ من رموز السلطة، لاموا المرأة على تصرفها، ولم يذكر الراوي العقاب الذي وقع عليها، واكتفوا بإظهار اللوم، لأنّ لم تحاول إنكار فعلتها أو الكذب، فلقد أجابت عن سؤال الأمراء بإجابة محسومة العواقب، بل واعترفت أيضاً بجرائم أخرى دون أن تُسأل عن ذلك.

يظهر ممّا سبق، أنّ هناك ظواهر اجتماعية سلبية رافقت الكوارث الطبيعية، وزادت الأوضاع سوءاً على الناس، وبعض هذه الظواهر ما كان بين مجتمعين مختلفين، ومنها ما كان داخل المجتمع الواحد، ويلاحظ أنّ القصص هي أكثر فنّ تناول هذه الظواهر، وقد بدت قصصاً غريبةً، وربّما مبالغاً فيها، لكن الملاحظ أيضاً أنّ غير كاتبٍ أورد قصصاً مشابهة، تعكسُ الصورة نفسها التي تظهرُ هذه العادات الاجتماعية السلبية التي ظهرت في المجتمع الإسلامي، و التي خلّفتها الكوارث الطبيعية في ذلك العصر.

¹ وعاء من القماش توضع فيه الأشياء، ويقال له جراو أيضاً ومفرده جرواة. انظر: دهمان، محمد، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المموكي. ص52

² انظر: المقرئزي، السلوك، ج1. ق.3. ص814

³ ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري. ج1. ص284

ج- الآثار الإيجابية في أدب الكوارث الطبيعية

رصدَ بعض الأدباء الذين أنتجوا أدباً للكوارث الطبيعية في العصر المملوكي الأول، نتائج إيجابية على المجتمع أحسوا بوجودها رغم الدمار الكبير الذي خلفته هذه الكوارث.

فقد عكست بعض النصوص شجاعة الأدباء في التصدي للكارثة، فهم يناون بأنفسهم عن الخوف الذي يعتري الناس في الكوارث الطبيعية، ويدعون إلى الإيمان بالموت الذي هو أمرٌ محتوم على الخلق، وهو نهاية كلِّ حيٍّ، وقد قيل في ذلك:

نَحْنُ بِنُو الْمَوْتِ فَمَا بَالُنَا نَخَافُ مَا لَا بُدَّ مِنْ شُرْبِهِ
تَبَخَّلُ أَيُّدِينَا بِأَرْوَاحِنَا عَلَى زَمَانٍ هِيَ مِنْ كَسْبِهِ¹

ومن المظاهر الإيجابية التي سطرها الأدباء، هو احتساب الموتى في الكوارث الطبيعية شهداء، وفي ذلك ينظم ابن الوردي في قتلى زلزال:

وَلَيْسَتْ وَفَاتُهُمْ بِالرِّدْمِ نَقْصاً لِقَدْرِهِمْ فَقِي الشُّهْدَاءِ صَارُوا
وَمَا لَيْسَ فِي سَطْوَةِ الْخَلْقِ عَيْبٌ وَلَا فِي ذَلَّةِ الْمَخْلُوقِ عَارٌ²

يرفع ابن الوردي من منزلة الذين قُضوا نحبهم في الزلزلة التي جاءت على حين غرة، فلم يتمكن بعض الناس الهروب من دمارها، فهم لم يموتوا ميتةً تنقص من قدرهم كونهم هلكوا تحت الأنقاض، بل هم مُكْرَمُونَ عند ربهم، وهذا يعكس إيمان الشاعر بربه، واعترافاً بقوته وجبروته.

وبرزت مظاهر إيجابية عند الطبقة الحاكمة في أثناء الكوارث الطبيعية، تمثلت في تغيير أخلاق الحكّام، وحسن تصرف بعضهم في أثناء الأزمات، ومن ذلك ما قيل عن أمير المدينة المنورة وقت بركان المدينة، إذ عاد إلى العدل وأرجع الحق إلى نصابه: " حصل بطريق هذه

¹ ابن ياس، بدائع الزهور. ج.1. ق.2. ص 66

² ابن الوردي، الديوان. ص 153

النار إقلاع عن المعاصي والتقرب إلى الله بالطاعات، وخرج أمير المدينة عن مظالم كثيرة إلى أهلها¹

يظهر مما سبق كيف أصلحت نار المدينة حال أولي الأمر فيها، فخرجوا عن معاصٍ كانوا اقترفوها بحق العباد.

ومن الأدباء من فصل في أمر هذا التغيير الإيجابي الذي حصل للسلطنة وقت اندلاع الكوارث، ومن ذلك ما يذكره المقرئ في السلطنة كتبغا عندما أصاب الجذب مصر، قال: "فلما تجاوز الأمر الحد أمر السلطنة بجمع الفقراء وذوي الحاجات، وفرقهم على الأمراء، فأرسل إلى أمير المائة مائة فقير، وعلى أمير الخمسين خمسين، حتى كان أمير العشرة عشرة، فكان من الأمراء من يطعم سهمه من الفقراء لحم البقر مثروداً من مرقعة الخبز، يمدّه لهم سمطاً يأكلون جميعاً. ومنهم من يعطي فقراءه رغيفاً، و بعضهم كان يفرق الكعك، و بعضهم يعطي رفاقاً، فحفف ما بالناس من الفقر"²

يكشف قول المقرئ اهتمام السلطنة بأمر ذوي الحاجة من الرعية وقت الكارثة، وذلك بإعداد خطة تتضمن توزيع المحتاجين على الأمراء المقتردين، واختلف اهتمام الأمراء بالمحتاجين، غير أنه كان لبعضهم دور إيجابي في تخفيف حدة الأزمة.

وبعض السلاطين من وضع خطة اقتصادية تتضمن طرح مدخرات السلطنة نفسه والأمراء من السلع الأساسية في السوق، وبيعها بسعر يناسب الناس، وكان من هؤلاء الملك الناصر محمد ابن قلاوون، إذ امتنع النيل في زمنه عن الفيضان، ما أثر في أحوال الناس وتدبرهم لحاجاتهم، فجمع السلطنة الأمراء وقال لهم: "يا أمراء! شهر عليكم، وشهر عليّ، وشهر على الله، ففتح الأمراء الشون، وباعوا كل إدرج بثلاثين درهماً، ففرج عن الناس، وفتح

¹ أبو شامة، الذيل على الروضتين. ص 191

² المقرئ، إغاثة الأمة. ص 109

السلطان حواصله في شعبان، و باع كلَّ إدرج بخمسة وعشرين درهماً، ودخل الفول الجديد و الشعير، فأكل الناس منه إلى أن دخل شهر رمضان، فجاء القمح الجديد، و انحلَّ السعر¹

وأوردت الرسائل التي كتبت في هذا الشأن عن مواقف للطبقة الحاكمة تعكس اهتمامها بالتخفيف عن الناس، ومواجهة الكوارث والمشاكل .

ومن ذلك ما يرويهِ ابن الجزري ممّا وصلت إليه الأخبار " إلى دمشق ، بأمر السليل الكائن ببعلبك، فعند ذلك رسم الأمير سيف الدين تنكز² ، للقاضي كمال الدين الشريشي³ وكيل بيت المال المعمور بالشام المحروس بالسفر إلى بعلبك بسبب الحَوَطات على أموال من عُدِم، والاحتراز على ذلك⁴

وصورَ الأدب دورَ العلماء في التخفيف عن الناس في ظلّ ما حلّ بهم من كوارث، فقد قام العلماء بدورٍ إيجابيٍّ، نتجَ عنه حراكٌ دينيٌّ وثقافيٌّ في المناطق المنكوبة، فقد عرف هؤلاء أنّ سبب هذه الكوارث هو ظلم الحاكم وفسادُ الناس، ومن هنا راحوا يعظونهم؛ ليخفف الله عن الأمة محتتها، ومن هؤلاء القاضي تاج الدين السبكي، الذي قال:

"فمن لا يعلمُ حقارة الدنيا وكدرتها، وامتزاج لذاتها بالهموم فاسد العقل، فإن المشاهدة والتجربة ترشد العقلاء لذلك"⁵

وخصَّ العلماء الحُكَّام بهذه العِظة، ففي كتاب ورد عن بركان المدينة المنورة، يَصوِّر كيف لزمّت النار مكانها، وخفَّ لهيبتها، فإن ذلك مكرمة من الله تعالى وإيداناً بضرورة العودة إليه، إذ صعد الفقيه والقاضي إلى الأمير يعظانه.⁶

¹ المقربي، إغاثة الأمة. ص 113

² نائب السلطنة في الشام، توفي 742هـ. انظر: الصفي، الوافي بالوفيات. ج10. ص 420

³ ولد بسنجار، وهو إمام في المذهب الشافعي أيضاً، و تولّى عدّة مناصب مها شيخ دار الحديث في بعض المدارس. انظر:

الصفي، الوافي بالوفيات. ج7. ص 337

⁴ الفاخري، تاريخ الفاخري. ج1. ص 425

⁵ السبكي، معيد النعم ومبيد النقم. ص 95

⁶ انظر: أبو شامة، الذيل على الروضتين. ج1. ص 192

ويذكر قاضي المدينة المنورة شمس الدين سنان بن عبد الوهاب الحسيني¹، في كتاب أنشأه في بركان المدينة ما قام به من وعظ وإرشاد للأمير، ونتائج ذلك كله في الناس: "وطلعتُ إلى الأمير وكلمته وقلت له: قد أحاط بنا العذاب، ارجع إلى الله، فأعتق كل مماليكه وردّ على جماعة أموالهم، فلما فعل هذا قلت له اهبط الساعة معنا إلى النبي صلى الله عليه سلّم فهبط وبتنا ليلة السبت والناس جميعاً، والنسوان وأولادهم ولا بقي أحد في النخيل ولا في المدينة إلا عند النبي صلى الله عليه وسلّم"²

وقد حفلت كتب التاريخ والأدب في العصر المملوكي بالكثير من الممارسات والأخلاق السلبية التي ذكرها مؤلفوها لما كان شائعاً في تلك الفترة كالبخل، وطفيف الكيل، واختلاس أموال الناس بالباطل، وانتشار اللواط وغيرها، وكان إقلاغ كثير من الناس عن بعض هذه الممارسات السلبية إثر أي كارثة تنبئاً لوجودها.

ومن الأدباء من رصد مظاهر التغيرات الاجتماعية التي بزرت عن الناس في ذلك الوقت، ومن أهم هذه المظاهر، إقلاغهم عن المعاصي والتقرب لله سبحانه وتعالى بالأعمال الحسنة، وقد أجمل ابن الوردي هذه النتيجة في أبياته التي قالها في أثناء طاعون 749هـ:

فَهَذَا يُوصِّي أَوْلَادَهُ	وَهَذَا يُودِّعُ إِخْوَانَهُ
وَهَذَا يُهَيِّئُ أَشْغَالَهُ	وَهَذَا يُجَهِّزُ أَكْفَانَهُ
وَهَذَا يُصَالِحُ أَعْدَاءَهُ	وَهَذَا يُلَاطِفُ جِيرَانَهُ
وَهَذَا يُوسِّعُ إِنْفَاقَهُ	وَهَذَا يُخَالِلُ مَنْ خَانَهُ
وَهَذَا يُعَيِّرُ أَخْلَاقَهُ	وَهَذَا يُعَيِّرُ مِيزَانَهُ ³

في هذه الأبيات يصور الشاعر كيف تغير حال بعض الناس، فلم تبق الدنيا شغلهم الشاغل، ذلك أن الكارثة أشعرتهم بدنو آجالهم، ما جعلهم يحضرون أنفسهم للقاء الله، فيقبلون

¹ وهو أديب وله نظم جيد، وكان الأمراء في المدينة لا يقطعون أمراً من دونه مات 754 هـ. انظر: العسقلاني، الدرر الكامنة. ج.5. ص 138

² أبو شامة، الذيل على الروضتين. ص 191

³ ابن الوردي، الديوان. ص 94. انظر أيضاً: عبد الرحيم، رائد، رسالة النبا عن الوبا لزين الدين بن الوردي ت (749 هـ) دراسة نقدية. ص 1502

على ما شرع الله، من الوصاية بالخير والإنفاق في سبيل الله والكف عن الغش في المعاملات التجارية ويعفون عن المسيئين طلباً لمرضاته، وغيرها.¹

ويرى ابن الوردى بذلك أنّ في كارثة الطاعون فوائد، على الرغم من كلّ المآسي التي خلّفتها، فيضيف مُجماً رأيه: "ومن فوائده تقصير الآمال، وتحسين الأعمال، واليقظة من الغفلة، والتزوّد للرحلة"²

ويجعل ابن الوردى كارثة الطاعون سبباً لجعل الموت بين ناظريّ الإنسان دائماً، فإن أراد التفكير بالدنيا وحدها ونسج أحلامه وطموحاته ونسيان الآخرة، كان الطاعون بالمرصاد.

ويجعل غير أديب الكوارث الطبيعيّة باباً من أبواب الفائدة التي تأتي بالرحمة من الله تعالى، لدرجة أنّ بعضهم يدعو لها بالدوام، ومن ذلك ما عبّر عنه الصفدي في إحدى رسائله عن الثلوج، إذ ظهر مؤمناً بجدوى الأهوال التي يكابدها الناس في الثلوج الهائلة و السيول الفيضة، فكلّ ابن آدم خطّاء، وهذه الأهوال تمحو ما يرتكبه الناس من آثام: "فالله يديم لنا هذه الفؤاد، التي هي لذنوب هذه الشدائد كفارة، ولهذه السيئات الشتوية غفارة"³

وغيّرت الكوارث الطبيعيّة في بعض العادات الاجتماعيّة التي اعتاد الناس ممارستها في حياتهم اليومية، ومن ذلك ما ذكره أبو شامة في رسالة له في بركان المدينة المنورة، يقول: "وبالله يا أخي إنّ عيشنا اليوم مكثرة والمدينة قد تاب جميع أهلها ولا بقي تسمع فيها رباب، ولا دف، ولا شرب"⁴

يصور أبو شامة هنا كيف تاب الناس عن بعض عاداتهم التي فيها إغضب الله تعالى، ومنها الموسيقى وشرب الخمر. ويعكس قوله وجود مجالس لهُو اعتاد الناس حضورها، فلم يذكر الأدوات الموسيقية - وهي أدوات تقليدية - وحدها، بل عطفها على شرب الكحول أيضاً.

¹ انظر: سينيّاتي، صورة المجتمع في الشعر المملوكي. ص 42

² ابن الوردى، الديوان. ص 93

³ الصفدي، ألحان السواجع. ج 1. ص 169

⁴ أبو شامة، الذيل على الروضتين. ص 109

وارتبطت الظاهرة بالمديح النبوي والتوسل إلى الرسول الكريم، فكانوا يشكونه داعين متضرعين لكي يرفع الله سبحانه وتعالى عنهم العذاب الذي يقاسونه في أثناء حدوث الكوارث الطبيعية، فكان الأديب يكتب ما تأثر به من مشاهدته لتلك المحن التي أصابت الناس ، "فيكتب ليعظهم ويبصرهم ويعيدهم الى حظيرة الدين"¹. ومن ذلك ما قاله ابن قزل في بركان المدينة:

يا كاشفَ الضرِّ صَفْحاً عَن جَرائِمِنا لَقَدْ أَحاطتْ بنا يا رَبُّ بِأَسْءِ
نَشكو إِلَيْكَ خُطوباً لا نَطيقُ لَهَا حَمِلاً وَتَحَنُّنُ بِهَا حَقّاً أَحْقَاءِ
فاسْمَحْ وَهَبْ وَتَفَضَّلْ وَامْحُ واعْفُ وَجُدْ وَاصْفَحْ فَكُلِّ لِفِرطِ الْجَهْلِ خَطَاءً²

يشكو الشاعر في هذه الأبيات المصائب التي حلت على الناس في أثناء البركان، معترفاً بأنهم خطّؤون، لذلك فهو يطلب إلى الله تعالى أن يسامحهم في آية زلّة اقترفوها، حتّى يُذهب الله عذابه عن الناس ويرحمهم.

ومنهم من يلجأ لعرض نماذج حزينة أثر عليها ما ألمّ بالناس من كوارث في معرض رجائه الله تعالى وطلب الغوث منه، فيقول شهاب الدين محمود عندما توقف النيل بمصر عن الفيضان إلى الحدّ المطلوب، عام 709هـ:

ارْحَمْ بِفَضْلِكَ رُكْعاً أَمْ رُضْعاً أَمْ رُتْعاً فِي ذِي الْوُجُودِ بِأَسْرِهِ
وَأَعْتِ عِبَادَكَ فِي بِلادِكَ بِالْوُفَا وَابْسُطْ عَلَى الْمَقْيَاسِ خِلْعَةَ سِتْرِهِ³

ويعدّ طلب التوبة من أبرز ما يطلبه الأدباء من الناس، مذكرين إياهم بالآخرة وضرورة التزوّد لها، ففي خطبة زلزلة 702هـ قال صاحبها:

"فالتوبة والتوبة عباد الله في الأيام الباقية الفانية، واستحيوا ممّن لا تخفى عليه خافية، واعتبروا بمن هلك تحت ردمها فجأة، وقد كان في تلك الساعة في عافية... فرحم الله امراء تاب

¹سّلام، الأدب في العصر المملوكي. ص 99

²ابن قزل ، الديوان . ص339

³ابن الوردي، الديوان. ص 150

عما جنى، وتقرب من فعل الخير ودنا، وتزود للأخرة، فإن الدنيا ليست لحيّ وطناء، ولبس للخير
أثواباً، فلا بد أن يلبس للقبر كفنًا¹

تعدّ التوبة أولى خطوات الرجوع إلى الله تعالى، وتكون بالتقليل من شأن الدنيا ومذاتها،
وأخذ العبرة، والتذكير بيوم القيامة، فالإنسان ليس مخلدًا في الدنيا.

وبعض الشكوى كانت مقرونةً بالفزع إلى المساجد، والتضرّع إلى الله وقتاً طويلاً حتى
يأتي الله برحمته، ففي أثناء بركان المدينة واشتداد لهيب النار " فزع الناس إلى المسجد النبويّ و
أقروا بذنوبهم وابتهلوا إلى الله سبحانه، واستجاروا بنبيّه عليه السلام، و أتى الناس إلى المسجد
من كلّ فجّ ومن النخل، وخرج النساء و الصبيان و اجتمعوا كلّهم فأخلصوا، وغطّى حمرة النار
السماء كلّها حتى بقي الناس في مثل ضوء القمر، وبقيت السماء كالعلقة، وأيقن الناس بالهلاك
منها أو العذاب، وبات الناس تلك الليلة بين مصلّ، وتال للقرآن، وراكع، وساجد، وداع إلى الله،
ومتصلّ من ذنبه، ومستغفرٍ وتائب، ولزمت النار مكانها وتناقص تضاعفها و لهيبها"²

يشير الأديب إلى قدسيّة المساجد للناس، فهي المكان الذي يلجؤون فيه إلى الله تعالى،
ويقرّون بذنوبهم، فيدعونه ويستغفرونه، مستشعرين الأمن وصدق الدعاء وقربهم إلى الله تعالى.

ومن الشكوى ما تعكس التزام الناس بما أمر الله تعالى به، فلقد حضّ الله تعالى على
الالتزام بسنة النبيّ الكريم، وعدم الخروج عنها، ومن ذلك ما أورده ابن الوردي في طاعون
749هـ، إذ قال:

"وما منعنا الفرار منه إلّا التمسك بالحديث³، فهلمّ بنا نستغيث، إلى الله تعالى في رفعه
فهو خير مغيث، اللهم إنا ندعوك بأفضل ما دعاك به الداعون، أن ترفع عنا الوباء والطاعون، لا

¹ الدواداري، كنز الدرر. ج9. ص 103. مؤلّف مجهول، الأدب في عصر السلاطين المماليك. ص 137

² أبو شامة، الذيل على الروضتين. ص 192

³ قصد به ابن الوردي قول الرسول الكريم في النهي عن الخروج من البلد المطعون: " إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا
عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا ". البخاري، صحيح البخاري. ج7. ص 169

نلتجئ في رفعهما إلّا إليك، ولا نعول في العافية منها إلا عليك نعوذ بك يا ربّ الفلق من الضرب بهذا العصا، و نسألك رحمتك فهي أوسع من ذنوبنا ولو كانت عدد الرمل والحصى¹

يصور النصّ السابق عدم خروج الناس عمّا أوصى به الرسول الكريم، والقاضي بعدم خروج الناس من بلدهم إذا أصابها الطاعون، فهم بذلك يقدمون ولاءهم لسنة نبيّه وعملهم بها، وعدّوه مدخلاً لطلب الرحمة من الله تعالى، الذي يكافئ المحسن، ويعفو عن المسيء. فلولا حديث الرسول الكريم الذي ينهى فيه عن الخروج من البلد الذي حلّ بها الطاعون لفرّ الناس من البلاد، ولكنّ البقاء وقاء وعبادة، والموت فيه شهادة، وكان قد أكد ذلك في رسالته عندما قال في المرض:

"وهو للمسلمين شهادةٌ وأجر، وعلى الكافرين رجزٌ وزجر، إذا صبر المسلم على مصيبته فالصبرُ عبادة، وقد ثبت عن نبيّنا صلى الله عليه وسلّم أنّ المطعون شهيد، فهذا الثبوت بالشهادة"²

وكثيراً ما اقترنت الشكوى إلى الله تعالى، بالتقرّب منه بذكر النبيّ الكريم، أو بالشكوى إليه عليه الصلاة والسلام، فهو خاتم الأنبياء، وشفيع الناس جميعاً والمسلمين يوم القيامة، وهو خير البرية، لذلك شكّوا أمرهم إلى النبيّ الكريم ليخلصهم ممّا هو فيه في دنياهم.

وجاءت الشكوى بصورٍ مختلفة، منها إظهار الضعف واستعطاف النبيّ الكريم لقرب منزلته من ربّه عزّ وجل، وممّا نظمه الشعراء في هذا الشأن، ما قاله ابن الوردي في طاعون 749هـ إذ قال:

يا ربُّ بالهادي النبيّ المُجتبى أعمد عن الإسلام أسيافَ الوبا
يا ربُّ لا يُشكى أليم عذابه إلّا إليك فقد أخافَ وأرعبا
كم حلّ في بلدٍ فشئت شمل من فيها فلا يجدون منه مهربا

¹ ابن الوردي، الديوان. ص 92. انظر: أيضاً: عبد الرحيم، رائد، رسالة "النبا عن الوبا" لزين الدين بن الوردي، دراسة نقدية. ص 1512

² ابن الوردي، الديوان. ص 92

يَا رَبُّ لَطْفًا بِالْعِبَادِ فَمَا لَهُمْ رَبُّ سِوَاكَ يَقِيهِمُ الْمُسْتَصْعَبَا¹

في هذه الأبيات يناجي الشاعر ربّه بمكانة الرسول الكريم عنده، ويستعطفه بأن يخلص الناس من الطاعون الذي ألمّ بهم، فهم لا يجدون ملجأً غيره يبيّنون له ما أصابهم من همّ ومرض أرهقهم ونشر الموت بينهم وفرّقهم، ويدعون الله تعالى أن يخفّف عنهم مصيبتهم.

وعكس غير شاعر، قدرة النبيّ الكريم على تخليص الناس ممّا هم فيه، وذلك لمكانته العالية، فهو صاحب المعجزات وصاحب المكرمات منذ ولادته، ومن ذلك ما قاله الصرصري في القصيدة نفسها:

وَإِنَّ لَهُ عِنْدَ الْمُهَيَّمِ مَقْعَدًا قَرِيبًا وَدَارًا لَا تُتَالُ وَكَوْثَرًا
أَلَيْسَ الَّذِي فِي وَضْعِهِ كَانَ مُطْفِئًا نَارِ مَجُوسٍ شَبِيهَا الْقَوْمُ أَعْصُرًا
قَدِيرٌ عَلَى إِطْفَاءِ نَارِ سَرِيعَةٍ الزَّوَالِ بَلَى قَدْ كَانَ أَمْرًا مُقَدَّرًا
فِيَا عَجَبًا مِمَّنْ عَرَى الشُّكَّ قَلْبَهُ الْبَلِيدِ فَمَا أَعْمَاهُ قَلْبًا وَأَخُورًا²

يعرض الشاعر من خلال هذه الأبيات إيمانه بقدرة الرسول الكريم على تخليص الناس من الكارثة التي أصابتهم، وهي بركان المدينة المنورة الذي جاء على مقدراتهم وأفسد هناة عيشتهم واستقراره، فقد أطفأ ميلاد الرسول الكريم معبودة المجوس وهي النار، لذلك فهو مؤمنون بقدرة الرسول الكريم على تخليصهم من هذا البركان.

و "كان تبرّم الناس بأحوالهم القاسية، وضيقهم الشديد من الظروف السيئة التي تكربهم، وراء الاتّساع في نظم المدائح النبويّة، فإذا ما أصاب القوم مصيبة، توجّهوا إلى النبيّ الكريم، يمدحونه ويستغيثون"³

¹ ابن الوردي، الديوان. ص 372

² المصدر السابق. ص 172

³ محمد، محمود سالم: المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي. د.ط. بيروت: دار الفكر المعاصر. دمشق: دار

الفكر. 1996. ص 283

يظهر الشاعر في هذه الأبيات فقره إلى وجود الرسول الكريم بين الناس، فهو يخاطبه وكأنه أمامه، ويطلب إليه العطف والرفقة بحال المسلمين، مما حلّ بهم من الطاعون الذي سلب الناس أرواحهم وممتلكاتهم.

وقد ظهرت الشكوى في قصص تعبر عن رافة النبي الكريم بأمتّه، وطلبه إليهم العودة إلى الله والتوبة إليه، وذلك على شكل مناماتٍ ظهرت لأصحابها، من سوء ما حلّ بهم في أثناء منامهم، فيروى أنه قدم كتاب نائب حلب، بأن بعض أكابر الصلحاء فيها رأى النبي صلى الله عليه وسلم في نومه، وشكا إليه ما نزل بالناس من الوباء، فأمره صلى الله عليه وسلم أن يأمرهم بالتوبة والدعاء، وكان دعاؤه: "اللهم سكن هيبه صدمة قهرمان الحروب، بألطفك النازلة الواردة من فيضان الملكوت، حتى نتشبت بأذيال لطفك ونعصم بك عند انزل قهرك، يا ذا القوة والعظمة الشاملة، والقدرة الكاملة، يا ذا الجلال والإكرام".¹

ومن صور الشكوى تشفع الناس بالرسول عليه الصلاة والسلام بوصف الشفاعة مكرمة خصّ بها الله عزّ وجلّ نبيه الكريم دوناً عن باقي الأنبياء يوم القيامة، فهم عندما يتقربون إلى الله تعالى، يطلبون شفاعة حبيبه المصطفى عليه الصلاة والسلام، وقد "سجّل شعراء المديح النبوي أمثلة كثيرة ومختلفة على التوسل برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الأزمات والكوارث، أو عند حصول حادثة غريبة لا يملكون لها تفسيراً، مثل ارتجاج الأرض وظهور نار عظيمة في الحجاز، أدخلت الرعب إلى قلوب الناس".²

فها هو البوصيري يتشفع مثل غيره، فالرسول الكريم هو الشفيع الذي لا تردّ شفاعته عند الله سبحانه وتعالى:

فَلَمَّا التَجَّوْا لِلْمُصْطَفَى وَتَحَرَّمُوا بِسَاحَتِهِ، وَالْأَمْرُ بِالنَّاسِ مُشْتَدُّ
أَتَوْا بِشَفِيعٍ لَا يُرَدُّ وَلَمْ يَكُنْ بَخْلِقٍ سِوَاهُ ذَلِكَ الْهَوْلُ يَرْتَدُّ

¹ المقريزي، السلوك. ج. 2. ق. 3. ص 780

² محمد، محمود سالم، المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي. ص 26

فَأَطْفَأْتِ النَّارَ الَّتِي وَقَفَ الْوَرَى حَيَارَى لَدَيْهَا لَمْ يَعِيدُوا وَلَمْ يُبِيدُوا¹

يرى البوصيري من خلال الأبيات أن الناس اختاروا شفاعَةَ النبيِّ الكريم لتقبيهم من أهوال نار المدينة المنورة، و الشفاعَةُ مكرمةٌ لا تليق بأحد سواه، فلا يستطيع أحد أن يردَّ هذا البأس غيره.

و "تتشابه توسلات الشعراء وتشفعهم بالرسول الكريم في الكارثة الواحدة وذلك لتشابه الدوافع والأحاسيس²، لكن تكون لكلِّ شاعرٍ طريقته و تجربته الخاصة.

فابن قزل يصور في معرض شكواه للنبيِّ الكريم في بركان المدينة، كيف حلت الطمأنينة بعد شفاعته عليه الصلاة والسلام، فهم لجؤوا إليه وقت ضيفهم، وتشفعوا بمنزلته عند الله تعالى، وقد استجاب الله تعالى لهم، وخلصهم من كربهم، يقول الشاعر:

شَفَعْتَ لَهُمْ عِنْدَ الْإِلَهِ فَأَصْبَحُوا مِنْ النَّارِ مِنْ أَمْرٍ وَبِرٍّ مُعْجَلٍ
إِنَّمَا لَهُمُ الرَّحْمَةُ مِنْكَ بِنَفْخَةٍ أَلَذَّ وَأَشْهَى مِنْ جَنَى وَمُعَسَّلٍ
طَفَى النَّارَ نَوْراً مِنْ ضَرِيحِكَ سَاطِعٍ فَعَادَتْ سَلاماً لَا تَضُرُّ بِمُصْطَلِي

ومن ذلك يقول ابن الوردي في معرض شكواه إلى الله تعالى في أثناء الطاعون: "ونتشفع إليك بأكرم الشفعاء لديك، محمد نبي الرحمة أن تكشف عنا هذه الغمة، وأن تجيرنا من الوبال والتتكيل، و أن تعصمنا فأنت حسبنا ونعم الوكيل."³

وأخذ بعض الشعراء يفردون للشفاعة أبياتاً خاصة، فيجعلونها مدخلاً لبث شكواهم إلى الله تعالى، ومن ذلك قول ابن دانيال:

لَوْلَا شَفَاعَةُ أَحْمَدَ خَيْرِ الْوَرَى فِينَا لَقَطَعَّ رَبُّنَا أَوْصَالَهَا
يَا رَبَّنَا تُبْنَا إِلَيْكَ فَوْقَنَا بِرِسْوَلِكَ الْهَادِي الشَّفِيعِ نِكَالَهَا⁴

¹ البوصيري، الديوان. ص 86

² صالح، مخيمر: المدائح النبوية بين الصرصري والبوصري، ط 1. بيروت: دار ومكتبة الهلال. 1986. ص 187

³ ابن الوردي، الديوان. ص 92

⁴ ابن دانيال، المختار من شعر ابن دانيال. ص 193

يعدّ الشاعر شفاعة النبي الكريم رحمةً للمسلمين، فهي تنفعهم في دنياهم، فتخفف من مصائبهم، ويقرنون توبتهم لله بهذه الشفاعة التي يتمنون أن نزيل عنهم ما فيهم من كرب.

ويتشفّع الشعراء إلى الله تعالى بالرسول الكرم، مُقرنين شكاوهم هذه بالصلاة عليه وعلى آله وصحبه الأطهار، يقول ابن الوردي في شكوى الناس في أثناء الطاعون:

إِنَّا تَشَفَّعْنَا إِلَيْكَ بِأَحْمَدٍ أَعْلَى الْوَرَى قَدْرًا وَارْفَعَ مَنْصِبًا
أَنْ تَرْفَعَ عَنَّا الطَّاعُونَ عَاجِلًا وَتُجِيرَنَا مِنْ شَرِّهِ وَتُجَنِّبَنَا
وَتُعِيدَ مَا عَوَّدْتَنَا مِنْ نِعْمَةٍ عَوَّدْتَنَا مِنْكَ الْكَثِيرَ الطَّيِّبَا
ثُمَّ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ وَآلِهِ وَصِحَابِهِ وَالْغُرِّ مِنْ أَهْلِ الْعِبَا¹

تصوّر الأبيات السابقة الناس وقد رفعوا أيديهم إلى الله متشفّعين بنبيّه محمد عليه الصلاة والسلام، فهو صاحب المكانة الرفيعة عنده، فالطاعون قد جاء إليه بطاحونه الذي لا يبقى ولا يذّر، ويطمعون برحمة الله وخير من عنده، ولذلك فهم يصلّون على من يصلّي الله تعالى عليهم، وهم بذلك يتقرّبون من الله تعالى بحبيبه وأحبّاء حبيبه رضوان الله عليهم.

ولم تخلُ القصص الشعبية من الحديث عن شفاعة الرسول الكريم بالناس في محنهم التي أخذت شكل اللامعقول إذ اتّسمت بالغرابة، ومن ذلك ما تناقله كثيرٌ الكتاب بعد القحط الذي أصاب الناس عام 695هـ، إذ شوهد صبيّ خرج مع ثوره ليسقيه، فبعد أن شرب الثور حمد الله فتعجّب الصبيّ، وخرج في اليوم الثاني صاحبه ليسقيه، فشرّب الثور وحمد الله ثانيةً، ثم حضر أهل الغريب في اليوم الثالث فشاهدوا الثور يشرب وسمعوه لحمد الله، فتقدّم أحدهم وسأل الثور عن ذلك فأجاب الثور: إنّ الله كتب على الناس سبع سنين جدبا، وإنّ الله سيعيد لها الخصب لشفاعة الرسول صلّى الله عليه وسلم، وإنه أمر بتبليغ ذلك وجعل الرسول الكريم علامة صدق الثور موته عقب ذلك، ومضى الثور بعد قوله الى مكان عال فسقط ومات وأخذ أهل الغريب شعره للتبرك، وكفنوه ودفنوه.²

¹ ابن الوردي، الديوان. ص 372

² انظر: ابن الجزري، تاريخ ابن الجزري. ج.1. ص 279. المقرئزي، السلوك. ج.1. ق.3. ص.811.

يبدو من خلال هذه القصة، كيف يتمسك الناس بما يتعلّق بالرسول الكريم، وإن كان مناماً؛ وذلك لإيمانهم بمنزلته عند الله تعالى، وشفاعته التي لا تردّ عنده.

ويلجأ بعض الأدباء لاستغلال قصائد مدح الرسول الكريم التي نظّموها في حوادث معيّنة، ليعبروا شكواهم الشخصية، فيمدحون النبيّ الأمين ويتوسّلون إليه، ومن ذلك ما نظّمه الصرصري قائلاً:

وَبَلَغَ تَحِيَّاتِي إِلَى مَنْ سَمَا بِهِ وَأَحْرَزَ مَنْ رِيَّاهُ نَشْرًا مُعْطَرَا
وَقُلْ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَا أَشْرَفَ الْوَرَى وَأَكْرَمَ أَنْسَابِ الْقَبَائِلِ عُنْصُرَا
وَيَا حُجَّةَ الرَّحْمَنِ فِينَا وَمَنْ بِهِ نَلُوذُ إِذَا خَطَبُ حَادِثَةٌ عَرَا
عَبِيدُكُمْ الْمَسْكِينُ يَحْيَى بْنُ يَوْسُفَ الْـ فَقَبِيرُ أَسِيرِ اللَّهِ فِي أَرْضِ صَرْصَرَا
يَمُدُّ يَدَيْهِ نَحْوَكُمْ مُتَوَسِّلًا بِجَاهِكُمْ لَا زَالَ جَاهًا مُوَفَّرًا¹

في الأبيات السابقة يمدح الشاعر النبيّ الكريم بصفاته الشريفة العالية، ويلجأ إليه حين حاجته، ويخصّ نفسه بالذكر، فهو ينتهزُ فرصة هذا الخطب الجليل كي يعبر عن حاجته الشخصية إليه، كما هي حاجة الأمة الإسلامية له في هذه الكارثة التي ألمّت بهم، وقد لجأ الصرصري إلى عادة الشعراء بتخيّل شخص يتحدّثونه إليه وهو حادي العيس الذاهب إلى المدينة ليخبر النبيّ الكريم على لسانه بمدحه له، ويطلب إليه مساعدته و عونه على ما هو فيه.

يتضح ممّا سبق أنّ الكوارث الطبيعيّة وعلى الرغم ممّا حملت من مأس وويلاتٍ صورّها الأدباء ، إلّا أنّها حملت نتائج إيجابيّة، أكثر ما تجلّت في التقرب من الله سبحانه وتعالى، فهو الشديد المتين وهو الرحمن الرحيم، وقد تضمّن تقربهم إليه تلمّس الرحمة والوسيلة من النبيّ محمد صلي الله عليه وسلّم؛ فهو أحبّ الخلق للخالق، وتضمّنت مدحاً له وصفاته العليا التي أهّلته للمنزلة العالية والرفيعة، التي ستساعدهم في اجتياز محنتهم، التي آمنوا بها قدراً واقعا عليهم من الله سبحانه وتعالى، فقبلوا بها وصبروا عليها، وعزّوا زوالها لرحمة من الله وفضل من نبيّه.

¹ الصرصري، الديوان. 173

الفصل الثالث

الدراسة الفنيّة

الفصل الثالث

الدراسة الفنية

بنية النصّ الأدبيّ

لأيّ عمل أدبيّ بنيةٌ فنيّة، وقد تكون هذه البنية متشابهة على اختلاف جنس العمل الأدبي، وقد تختلف من جنس إلى جنس، لكن التشابه أكثر ما يبدو في الجنس الأدبيّ الواحد، وفي الموضوع الواحد الذي يتناوله.

وقد اهتم النقاد بدراسة بنية النصّ الأدبيّ، لا سيّما الشعر؛ لما عُرف به العرب من عشقهم لقول الشعر، وقسموا بنية القصيدة العربية إلى: مقدّمة، ومطلع، وحُسن التخلّص، وخاتمة.

أمّا المقدّمة فقد عرف العرب مقدماتٍ بأنواعٍ مختلفة، كالمقدّمة الطليّة أو الخمرية أو الغزليّة، أمّا أدب الكوارث الطبيعيّة، فلم تبدأ قصائده بمقدّمة من المقدّمات السابقة، لأنّ الموضوع جادّ، ولا يحتاج إلى مقدّمات، غير أنّ بعض النصوص، ابتدأت بمقدّمة مدّحية، كالمدح النبويّ.

أمّا المطلع، وهو الذي يسبقه بعض النقاد بكلمة "حُسن"، أو ما يطلق عليه بعضهم "براعة الاستهلال"، فاسمه يعكس أهميّته؛ فلقد اهتمّ النقاد بضرورة كون مطالع القصائد هي العنصر الجاذب للقصيدة الذي يدعو القارئ أو السامع إلى إكمالها¹، ففي هذه التسمية للمطلع "تنبيهٌ على تحسين المطالع"²، وما يتضمّن هذا التنبيه من شروطٍ لا بدّ من توافرها ليكون هذا المطلع أو الاستهلال حسنا برأي النقاد، فينبغي "للشاعر أن يُجوّد ابتداء شعره، فإنّه أوّل ما يقرع السمع منه، وبه يستدل على ما عنده من أول وهلة"³، ويقول صاحب خزّانة الأدب: إنّ من

¹ انظر: ابن الأثير الجزري، ضياء الدين نصر الله أبا الكرم: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1998. ج2. ص.209. ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر علي: خزّانة الأدب وغيابة الأرب، شرحه: عصام شعيتو، د.ط. بيروت: دار ومكتبة الهلال. ج1. ص.19

² ابن حجة، خزّانة الأدب. ج1. ص.19

³ انظر: ابن رشيق القيرواني، أبا علي الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه. بيروت: دار الكتب العلمية. 2001.

شروط الاستهلال البارح" أن يكون مطلع القصيدة دالاً على ما بُنيت عليه، مُشعراً بغرض الناظم، من غير تصريح بل بإشارة لطيفة¹، فما براعة المطلع سوى أن يكون " طلوع أهلة المعاني، واضحة في استهلالها " ²

وينبغي على الشاعر أيضا " أن يحترز من الكلام و المخاطبة والبكاء ووصف افتقار الديار وتشنيت الألف ونعي الشباب و ذم الزمان... لا سيما في القصائد التي تتضمن المديح والتهاني، ويستعمل ذلك في المراثي ووصف الخطوب الحادثة " ³

ويتشابه الحال بالنسبة للنثر أيضا، فما وجب على الشاعر من الشروط السابقة، واجب في النثر أيضا، يقول صاحب خزنة الأدب: "وأما براعات النثر فإنها مثلها، إن لم تكن براعة الخطبة أو الرسالة أو صدر الكتاب المصنف دالة على غرض المنشئ، وإلا فليست ببراعة استهلال"⁴ وهذا ما سماه شهاب الدين محمود (وجود القرينة)، التي جعل منها أمراً ضرورياً في جميع الأجناس الأدبية شعراً ونثراً، بل وجعل الكاتب أشد ضرورة من الشاعر إليها حتى يبني كتابته على نسق واحد.⁵

وليس أدل على الشرط الأخير من مطالع قصائد أدب الكوارث الطبيعية في هذا العصر، التي امتلأت بوصف الخطوب والمحن وتأثيرها على جوانب الحياة المختلفة، ووصف معاناة الناس، ولم يتوقف الشعراء بناءً عليها عن بث شكواهم و تدمرهم.

ومن المطالع ما ابتدأ بمناجاة الله تعالى والشكوى له أو تشفع بنبيه الكريم ثم ذكر السبب في هذه المناجاة، ومن ذلك قول ابن الوردي في طاعون 749 هـ.

¹ ابن حجة الحموي، خزنة الأدب. ج.1. ص.30

² المصدر السابق، ج.1. ص.19

³ أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل : الصناعتين الكتابة والشعر. حققه وضبط نصه مفيد قمحية. ط.1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1981. ص.489

⁴ ابن حجة الحموي، خزنة الأدب، ج.1. ص.40

⁵ انظر: شهاب الدين محمود، أبو الثناء بن سلمان الحلبي الحنفي : حسن التوسل إلى صناعة الترسل. تحقيق أكرم عثمان يوسف. بغداد: دار الحرية. 1980. ص.250

يَا رَبُّ بِالْهَادِي النَّبِيِّ الْمُجْتَبَى أَعْمَدَ عَنِ الْإِسْلَامِ الْوَبَا¹
يَا رَبُّ لَا يُشْكِي أَلِيمٌ عَذَابِهِ إِلَّا إِلَيْكَ فَقَدْ أَخَافَ وَأُرْعَبَا

يُلاحَظُ في هذا المطلع، الذي استخدم فيه الشاعر التصريح، كيف ابتدا الشاعر باستخدام أداة النداء (يا) وهي أداة نداء تستخدم في العادة للمنادى البعيد، فاستخدمها الشاعر في ندائه الله تعالى، فهو أقرب الأقربين، وتشفع بالنبي الكريم في المطلع نفسه كي يكون واسطته عند الله تعالى، وبرز فيه التكرار، إذ كرر الشاعر تعبير (يا رب) في البيتين المتتاليين، فأعطى مطلع النص نغمة حزينة تهيب القارئ إلى جو حزين، ومصيبة تحل بالأمة.

وابتدأت بعض النصوص الأدبية بوصف الكارثة وأثرها، ومن ذلك ما ابتدأت به رسالة القاضي ابن فضل العمري إلى الصفدي في وصف ما حل من سوء حال الجو في عام 744هـ وما نتج عنها، وقد مرّ ذكر هذه الرسالة في الفصل السابق. ففي مطلع رسالته يتساءل الكاتب عن حال الصفدي، ليجعلها توطئة لطيفة لوصف ما يريده:

"كيف أصبح مولانا في هذا الشتاء الذي أقبل برعب مقدّمه، ويرهب تقدّمه، ويريب اللبيب من برقه المومض تبسمه، وكيف حاله مع رعوده الصارخة، ورياحه النافخة، ووجوه أيامه الكالحة، وشرر ليلاليه التي لا نبيت منها بليلة سالحة، وسحابه وأمواجه، وجليده والمشى فوق زجاجه، وتراكم مطره الأنيث²، وتطاول ليل فرعه الأنيث، ومواقده الممقوته، ووائب جمره وأهون به لو أن كل حمراء ياقوتة، وتحذر نوءه المتصيّب، وتحير نجمه المتصيّب".³

يبدأ ابن فضل الله هنا بالسؤال عن حال الصفدي، وهو جزء منسجم في الرسائل الإخوانية، ويعرض بعدها بعض ما ابتليت به المنطقة من سوء في الأحوال الجوية، فيظهر مطلع رسالته متناغما مع موضوع رسالته، إذ إنه وضع هذا الموضوع في قالب سؤال يحرص فيه على سلامة مخاطب.

¹ ابن الوردي، الديوان. ص 372

² وهو صفة للسيوف ما كان منها من الحديد غير القاطع. انظر: ابن منظور: لسان العرب. مادة أنث.

³ الصفدي، ألحان السواج. ج 1. ص 148

ومن الأمثلة على الرسائل التي أحسن كاتبوها الاستهلال أيضاً، رسالة القاضي بدر الدين الغزي إلى الصفدي، في وصف المعاناة من البرد والتلج، إذ بدأها بالسؤال عن حال المرسل إليه والدعاء له، فقد يقع مع الابتداءات الدعاء، "وتكون براعة الاستهلال في الدعاء المعطوف على المبدأ به: بأن يكون الدعاء مناسباً للحالة المكتوب فيها" ¹، وفي ذلك قال: "كيف حال مولانا ألحف الله ظلّه، وأرشف ظلّه ووبلّه، وحمل على أعناق الأيام كلّه، وجعل مثله السحاب الجود ولا أعرف مثله، وضاهى برزقه هذا الغيث الواقع على خلاف القياس كلّه" ²

ويلاحظ من خلال المطلع السابق، أن بدر الدين الغزي، كان يمدح الصفدي وهو يدعو له، وهذا شيء ينسجم مع الرسائل الإخوانية، إذ إن "الإخوانيات تشترك مع المديح في بعض المعاني، إلا أنها تتميز عنها بأنها بين متساويين أو متقاربين، على الرغم من تعظيم المرسل إليه، وتطامن المرسل، و ليس هذا إلا من قبيل التواضع أو التقاليد، كما تتميز عنه في الهدف والعاطفة والجو النفسي" ³.

ويرد الصفدي برسالة يوجهها لبدر الدين الغزي، بمطلع ينسجم مع الحالة النفسية التي هو فيها، فيجيب عن أسئلة صديقه، فيقول: "العجب من سؤال مولانا عن المملوك بكيف حاله، وعنده علم هذا العناء الذي نصب على الأين والنصب تمييزه وحاله" ⁴

ثم يبدأ الصفدي بوصف الأحوال الجوية السيئة بما نتج من آثار نفسية و جغرافية.

أما المقدمات، فكان منها ما بدأ بالمديح النبوي، ومن ذلك قصيدة ابن قزل:

ألا سلماً لي على خير مرسلٍ ومن فضله كالسيل ينحط من عل
وأشرف من شدت إليه رحالنا لتورد هيم الشوق أعذب منهل
تحملن منا كل أشعث أغبر فإعجاباً من رحلها المتحمل!

¹ القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي ت(821هـ):صبح الأعشى في صناعة الإنشا. مصر: منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي. د.س.ج.6ص.277

² الصفدي، ألحان السواج. ج.2. ص 26

³ الهيب، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء.ص207-208

⁴ المرجع السابق، ج.2.ص 27

إِلَى سَيِّدِ جَاءَتْ بَعَالِي مَحَلِّهِ وَمُعْجِزِهِ آيُ الْكِتَابِ الْمُتَزَلِّ
نَبِيِّ هَدَانَا لِلْهُدَى بِأَدْلِيَّةٍ فَهَمَّتَا مَعَانِيهَا بِحُسْنِ التَّأْوَلِ¹

يمدحُ ابن قزل في الأبيات السابقة الرسول الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، فهو صاحب الشرف والفضل على الناس أجمعين، وهو الذي تشدَّ الرحال إليه، وهو صاحب المعجزة الكبرى، القرآن الكريم، الذي هدانا به الله تعالى إلى حُسن السبيل.

وبدأتُ نصوصٌ أخرى بمدح المخاطب، ومن ذلك قصيدةٌ قالها ابن الوردى في وصف الثلوج بالشام، رداً على رسالة لابن فضل الله العمري، إذ قال:

وَأَفِي الْكِتَابُ الَّذِي تَعْنُو لَهُ الْكُتُبُ مِنْ الشَّهَابِ الَّذِي تَسْمُو بِهِ الشُّهُبُ
مَنْ عِنْدَ أَسْجَعٍ مَنْ يُسَمَّى وَأَسْمَحٍ مَنْ أَعْطَى وَأَبْلَغُ مَنْ أَمَلُوا وَمَنْ كَتَبُوا
فَلَوْ فَرَسَتْ سُرُوراً وَجَنَّتِي لَهُ لَمْ أَقْضِ مِنْ حَقِّهِ بَعْضَ الَّذِي يَجِبُ
أَلْفَاظُهُ الْغُرُفَارُوقِيَّةُ دُرٌّ يُنْفَى بِهَا السُّمُّ أَوْ يُشْفَى بِهَا الْكَلْبُ²

في الأبيات السابقة، يبدأ ابن الوردى كلامه بمدح أسلوب ابن فضل في الكتابة وبراعته، فكتابه الذي أرسله له، هو أفضل الكتب، وكتابه أفضل الكتاب بلاغةً، وهذه البراعة في الكتابة، جعلته أهلاً لكتابه الرسالة، وتوضيح ما فيها من معانٍ، تؤثر في نفس المتلقي.

ومن المقدمات ما بدأ بحمد الله، لا سيما في النثر، ومنه في المكاتبات أي الرسائل، فمن براعة الاستهلال أن تقع المكاتبات بالتحميد³، لقد بدأت به فنونٌ نثرية أخرى كالخطب، ومن ذلك ما نقل على لسان خطيب في زلزلة عام 702هـ:

"الحمد لله الذي حلم علينا فعفا! وسامحنا فغفر ما ظهر وما خفا، وجمّلنا بلطفه الجميل إذ أشرفنا على شفا، أحمد الله على نعمه التي لا يحصى عددها، ولا يعدّ مددها، وأشهد أن لا إله

¹ ابن قزل، الديوان. 336.

² ابن الوردى، الديوان. ص 182.

³ القلقشندي، صبح الأعشى. ج 6. ص 278.

إِلَّا الله وحده، لا شريكَ له، إلهٌ بلا فأحسن في بلايه، وقدّر وقضى، فحكمه نافذٌ في أرضه
وسمايه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه صلاةً دائمةً البواكر والأصايل¹

في مقدمة هذه الخطبة يحمّد الخطيب الله تعالى على نعمه الكثيرة في هذه الدنيا ويصلي
على رسوله الكريم و أصحابه، ويومئ الخطيب إلى موضوع الخطبة من خلال تأكّيده على حمد
الله على ما يقدره الله ويبنتلي به عباده. وحمد الله تعالى هو خير مقدمة يصدر بها الكاتب مقاصده
الجليلة لتأسيس ما يريد قوله²، فلا أكثر من الكوارث الطبيعية خطباً جليلاً يبدأه الأديب بحمد الله
على كلّ شيء، ما يثير السامع أو القارئ، ويبعث في قلبه الطمأنينة و السكينة لما يتضمّنه
موضوع الخطبة أو الرسالة أو غيرها.

واهتمّ النقاد أيضاً بحسن التخلّص لا سيّما في الشعر، فعلى الشاعر أن يجعل المعاني
متصلة ببعضها وأن يكون الأول سبباً في الثاني حتى لا يقطع الشاعر كلامه قطعاً بل يفرغه
إفراغاً³، ويرى ابن رشيق أنّ الخروج إنّما هو الخروج من النسيب إلى مدح، أو غيره، ويشترط
التلطف أيضاً⁴، وهو في الغالب خروج من النسيب، حتى يمتزج بغيره فلا يبدو منفصلاً عن
باقي القصيدة⁵، ويشير بعض النقاد إلى أنّ المتقدمين من الشعراء اختلفوا عن المتأخرين أو عن
المحدثين منهم في حسن التخلّص، إذ إنّ المتقدمين التزموا بذكر الدمن والفيافي ووصف المعاناة
في السفر، أما المحدثون، فكان تخلّصهم أحسن وأطف⁶ ويحاول الشعراء أن يتأوا بأنفسهم عن
الاقتضاب أي انتقال الشاعر من معنى إلى آخر دون وجود علاقة بينهما، ويرى ابن طباطبا أنّ
الشعر كالرسائل، فالشعراء يسلكون منهاج كتاب الرسائل في بلاغتهم وتصرفهم " فإنّ للشاعر

¹ الدواداري، كنز الدرر. ج.9.ص 102

² انظر: القلقشندي.صبح الأعشى.ج.6.ص 277

³ ابن الأثير. المثل السائر. ج.2.ص 228

⁴ انظر: ابن رشيق القيرواني.العمدة، ج.1.ص 239

⁵ انظر: الحلبي، حسن التوسل. ص 254

⁶ انظر: ابن طباطبا، محمد أحمد: عيار الشعر. بيروت: دار الكتب العلمية. 1982. ص 149

فصولاً كفصولِ الرسائل، فيحتاج إلى أن يصل كلامه على تصرفه في فنه صلةً لطيفة، فيتخلص من الغزل إلى المديح، ومن المديح إلى الشكوى..¹ فالشعر كالنثر في التخلص.

وقد أحسن شعراء العصر المملوكيَّ تخلصهم في قصائدهم، ومن الأمثلة ذلك ما نظمه سيف الدين بن قزل في بركان المدينة، إذ بدأ الشاعر قصيدته بمدح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر فضائله، وبتَّ الشوق إليه، حتَّى يهيئ للقارئ الذي لا يعرف مناسبة القصيدة أنها قصيدة في المديح النبويِّ فقط، لكنه ينتهي في قصيدته التي تبلغ خمسةً وثلاثين بيتاً، في البيت التاسع إلى تخلصٍ جميلٍ ولطيفٍ في قصيدته، فيقول:

وَلَمَّا نَفَى عَنِّي الْكَرَى خَبَرُ التِّي أَضَاعَتْ بِإِذْنِ ثَمَّ رَضْوَى وَ يَذْبِلِ
وَلَا حَ سَنَاها مِنْ جِبَالِ قُرَيْظَةَ لِسُكَّانِ تَيْمًا فَالْوَى فَالْعَقْنَ قَلِ
وَأَخْبَرْتَ عَنْهَا فِي زَمَانِكَ مُنْذَرًا بِيَوْمِ عَبَّوسٍ قَمَطَرِيرٍ مُطْوَلِ
سَتَظْهَرُ نَارٌ بِالْحِجَازِ مُضِيئَةً كَأَعْنَاقِ عَيْسٍ نَحْوِ بُصْرَى لِمُخَيْلٍ²

ففي هذه الأبيات التي تلت مديح الرسول الكريم وشوق الشاعر له، يتحدث ابن قزل عن عزوفه عن النوم بسبب نار المدينة، تلك النار قويّة التوهج التي وصل سناها إلى مناطق عديدة، وهذه النار هي نفسها التي أخبرت يا رسول الله عنها وأندرت الناس منها، بمعجزة منك أن حدّدت مكانها و قوة انتشارها، فيأتي الربط بين المقدمة والمضمون منسجماً، ويبدو النصُّ لُحمةً واح لانَّ نارَ الحجازِ هي النار المترتبطة بأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم.

أمّا في النثر، فيرى صاحب المثل السائر في حسن التخلص أن الناثر " مطلق العنان يمضى حيث شاء، فلذلك بشقَّ التخلص على الشاعر أكثر ممّا يشقُّ على الناثر"³

لكنَّ الناثرين أيضاً أحسنوا تخلصهم لا سيّما في الخطب، فعلى سبيل المثال، ينتقل الخطيب الذي قال في زلزلة عام 702 هـ خطبته المؤثرة، من الحديث عن حمد الله تعالى على نعمه، ولطفه بالناس، إلى ذكر الزلزلة الواقعة وربطها بالحمد و ارتكاب الناس للمعصية، فيقول:

¹ ابن طباطبا، عيار الشعر. ص 6

² ابن قزل، الديوان. ص 337

³ ابن الأثير، المثل السائر. ج.2. ص 228

﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالِهَا﴾ فلذلك ﴿زُلْزِلَتْ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ ﴿وَقَالَ
الْإِنْسَانُ مَالِهَا﴾ ولولا رحمة الله علينا لأخرجت الأرض أثقالها، فيا لها من ساعةٍ يا لها. تا الله
لقد زهقت النفوس عندها.. " ¹ وينطلق إلى وصف هذه الكارثة.

ففي هذه الخطبة، يربط الخطيب بين ذنوب العباد في البداية وبين الزلزلة التي جاءت
نتيجة لهذه الذنوب، مستخدماً لفظة (ذلك) للفصل بين السبب و النتيجة، ثم يأتي على ذكر رحمة
الله من شرّ هذه الزلزلة وذلك يرتبط بحمده نعمه وسماحته بنا في بداية الخطبة، فبذلك تبدو
الخطبة متماسكة لا اضطراب فيها أو انقطاع.

أما خاتمة القصيدة، فهي الجزء الذي ينهي فيه الشاعر قصيدته، وترتبط بها لفظة
"حُسن"، أي حسن الخاتمة لدى النقاد بما فيها من دعوة للإجادة كونها باقيةً في السمع وملتصقةً
بالنفس²، ويعتبر ابن القيرواني عن الخاتمة بقوله: "أما الانتهاء، فهو قاعدة القصيدة، و آخر ما
يبقى منها في الأسماع، وسبيله أن يكون محكما: لا تمكن الزيادة عليه، ولا يأتي بعده أحسن منه،
وإذا كان أول الشعر مفتاحاً له، وجبَ أن يكون آخره قفلاً عليه " ³ وقاعدة الشيء هي المرتكز
القوي الذي تثبت عليه الأشياء، ولذلك كانت النهاية قويةً ومؤثرة.

ويسمى النقاد نهايات النصّ الأدبيّ براعة القطع⁴، وهذا لا ينطبق على الشعر وحده، بل
على النثر أيضاً، فهو " آخر الكلام الذي يقف عليه المترسل، أو الخطيب، أو الشاعر، مستعدباً
حسناً لتبقى لذته في الأسماع " ⁵.

ففي قصيدة ابن قزل التي نظمها في بركان المدينة، ومدح فيها الرسول الكريم في
بدايتها، و وصف فيها ما فعله البركان، اختتم قصيدته بالسلام على النبيّ صلى الله عليه وسلّم،
فهو خير مبعوث و أكرم شفيع للناس، وهو أملهم:

¹ الدواداري، كنز الدرر. ج.9. ص. 102، 103

² ابن حجة، خزنة الأدب. ج.2. ص. 493

³ ابن رشيق، العمدة. ج.1. ص. 243

⁴ انظر: الحلبي، حسن التوسّل. ص 255

⁵ المصدر السابق. ص 255

فِيَا خَيْرَ مَبْعُوثٍ وَ أَكْرَمَ شَافِعٍ وَأَنْجَحَ مَأْمُولٍ وَ أَفْضَلَ مَوْئِلٍ
عَلَيْكَ سَلَامُ اللَّهِ بَعْدَ صَلَاتِهِ كَمَا شَفَعَ الْمِسْكُ الْعَبِيقُ بِمِنْدَلٍ¹

وهذا يلائم موضوع القصيدة، التي يتوسل فيها الشاعر إلى الرسول الكريم.

وينتهي بعض الشعراء قصائدهم بالمديح، ومن ذلك ابن الوردي في قصيدته في وصف

تلج دمشق، فيقول:

فِي الدُّوقِ تَحَلُّوْا وَفِي الأَسْمَاعِ تَعَذُّبُ إِذْ فِي السَّبْقِ تَمَلُّحٌ حُسْنًا هَكَذَا القُصْبُ
مَظْلُومَةُ القَدِّ فِي تَشْبِيهِهَا غُصْنًا مَظْلُومَةُ الرِّيقِ إِذْ قُلْنَا هِيَ الضَّرْبُ²

يمدح ابن الوردي في الأبيات السابقة، بلاغة القاضي ابن فضل الله، مسخدما واو الجماعة لتعظيم شأن الممدوح، فهو يعتمد إلى رفع منزلته بين الأدباء، ويمدح كتابته لما تلقى هذه الكتابة في نفس متلقيها، فيستخدم أجمل الأوصاف في ذلك. وفي هذه النهاية تظهر رسالة ابن الوردي في هذه الأبيات منسجمة متكاملة، فلقد بدأها بمدح المرسل إليه ورسالته السابقة، وها هو ينهيها بذلك، مثنياً على أسلوب كتابته في وصف الموضوع المتحدث فيه.

وحرص النقاد على حث الكتاب على إجابة نهايات الرسائل، فيجب " أن يُستَجَادَ آخِرُ
الرِّسَالَةِ وَيُتَقَنَّ، حَتَّى يَكُونَ قَفْلاً لِمَحَاسِنِهَا، كَمَا أَنَّ أَوَّلَهَا مَفْتَاحٌ لِدَلِّكَ "³ ففي رسالة كتبها الشيخ
محيي الدين النووي لأمير الشام، يصف فيها حال أهلها وما حل بهم من قحط وجفاف، يقول:

"وأنتم بحمد الله تحبون الخير وتحرسون عليه، وتسارعون إليه، وهذا من أهم الخيرات
وأفضل الطاعات، وقد أهبتُم له، وسأقه الله إليكم، وهو فضل من الله ونحن خائفون أن يزداد
الأمر شدة إن لم يحصل النظر في الرفق بهم، قال الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِنْ مَسَّهُمْ طَائِفٌ
مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾⁴ والجماعة الكاتبون منتظرون ثمرة هذا، فإذا علمتم هذا

¹ ابن قزل، الديوان. ص 339

² ابن الوردي، الديوان. ص 183

³ الاشبيلي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي: إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه في المشرق والأندلس،
حقه وقدم له محمد رضوان الذابية، ط2. بيروت: عالم الكتب. 1985. ص 243

⁴ سورة الأعراف، آية (201)

فأجركم على الله ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾¹ والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته².

في هذه الخاتمة، يمدح الشيخ أميره بصفاتٍ هو أهلٌ لها، باستخدام ضمير الجماعة، وما فيه إعلاء من قدر الممدوح، وذلك ليس زيادةً في المدح، وإنما ضرورةً لينهض الممدوح بدوره، ويقوم بواجبه تجاه الناس، لا سيما في أثناء المحن.

وقد تأتي بعض الخواتيم، لتنبّه الأدباء إلى ضرورة تأريخ الكارثة، ومن ذلك ما كتبه ابن عبد الظاهر في مقامته عن زلزلة عام 702هـ، يقول:

"ولمّا حصلت هذه الزلزلة المهولة، وهذه المتجدّدة التي غدت الأفكار بها مشغولة، تتبعتُ كتبَ التواريخ لألف على ما اتفقَ منها، وأتصفحَ ماروي عنها، وجدتُ منها ومن العجائب السماوية ما عظم خطراً وراعٍ تأثيراً وأثراً، واثبتُهُ في هذا الكتاب ليُعلمَ أنّ عجائب الدهر متصلةُ الأسباب"³

يظهر ممّا سبق، كيف انتهت هذه المقامة بعرضِ فائدةٍ عامّةٍ تؤدّيها مثل هذه الكوارث، فعلى الكتاب أن يؤرّخها لمثل هذه الأحداث، كي يصلوا إلى نتيجةٍ يقدّمونها للمتلقّي، تجعله يوقن بأنّ أسباب الكوارث واحدة، وأنّ عجائب الدنيا كثيرة ولا تنقطع، لذا عليه الاعتبار بما يحصل.

وحدة النصّ الأدبيّ

عني أدباء العصر المملوكي بوحدة القصيدة والعمل الفنيّ عنايةً فائقة، و طبقوا ذلك في كتاباتهم الأدبية، وعبرَ النقاد في ذلك العصر عن رؤيتهم في هذه الوحدة، وقد كان في عنايتهم بتفصيل القول في المطالع و حسن التخلّص والنهايات وضرورة ربطها ببعضها و بمناسبة القصيدة، وما عابوه على الأدباء من تشتت أجزاءها، دليلاً على عنايتهم بوحدة العمل الفنيّ.

¹ سورة النحل، آية (128)

² السيوطي، حسن المحاضرة. ج1. ص105

³ السيوطي، كشف الصلصلة. ص51

ومن ذلك ما يدلّ به ابن طباطبا على ضرورة اتساق أول الشعر مع آخره بوصفه أحسن الشعر برأيه، إذ قال: " يجب أن تكون القصيدة كلّها ككلمة واحدة في اشتباه أولها بآخرها، وأن يكون خروج الشاعر من كل معنى يصنعه إلى غيره من المعاني خروجاً لطيفاً حتى تخرج القصيدة كأنها مفرغة إفراغاً لا تناقض في معانيها ولا في مبانيها، ولا تكلف في نسجها " ¹

ويرى النقاد في انعدام وحدة القصيدة عيباً لدى الشاعر، فهي كالجسد، يشد بعضها بعضاً، ويظهر من خلالها حسنها الذي من أجله صاغها الشاعر. وفي ذلك يقول الحاتمي، إن " القصيدة مثلها كمثل خلق الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض، فمتى انفصل واحد عن الآخر وبأينه في صحّة التركيب غادر بالجسم عاهة تتخون محاسنه، وتعفى معالم جماله " ²

وفي أدب الكوارث الطبيعية في هذا العصر، تُصبغ المعاني والألفاظ بصبغة حزينة تطغى على الفكرة العامّة للنص الأدبي، وعلى ما يتضمّنه من أفكار فرعية تقسم القصيدة إلى أجزاء، فيغلب عليها الأسى والحسرة وقد يعدّد الأديب الخسائر التي نجمت، وقد يتعرّض لذكر شماتة عدوّ، وذلّ أخ أو صديق، وعادةً ما كانت تتضمن مناجاة صادقة لله تعالى و نبيّه الكريم لرفع هذه الكارثة، فتقدّم النصوص صورة للكارثة وأسبابها ونتائجها، فكانت جميع أجزاء العمل الأدبي متلاحمة في وحدة موضوعية.

ومن ذلك ما يظهر في قصائد الشعراء المعاصرين للكارثة على سبيل المثال، ومن تلك القصائد، ما قيل في توقّف نيل مصر، وانقطاع الخير عن الناس لا سيّما الفلاحين، وما نتج عن ذلك من نقص في الغذاء و هجرة للزراعة، ونزوح للناس، وانتشار الجوع والمرض.

ومن هنا قصيدة الشاعر شهاب الدين محمود، إذ توقّف نيل مصر عام 709هـ، فقد وجّه في بداية قصيدته خطابه إلى النيل، الذي يعتمد عليه اقتصاد المناطق التي يمرّ فيها، فيعدّ توقّفه كارثة حقيقية لأهلها:

¹ ابن طباطبا، عيار الشعر.ص 126

² القيرواني، العمدة. ج.2.ص 66

يَا أَيُّهَا النَّيْلُ الْمُبَارَكُ إِنْ تَكُنْ مِنْ عِنْدِ رَبِّكَ تَأْتِ فَاجِرٍ بِأَمْرِهِ
أَوْ إِنْ تَكُنْ مِنْ عِنْدِ نَفْسِكَ تَأْتِنَا فَاللَّهُ يَبْسُطُ بَرَّهُ فِي بَرِّهِ¹

ففي هذه الأبيات التي تظهر فصاحة الشاعر و بلاغته، فهو يناجي النيل ويخاطبه كما لو كان إنساناً، ويطلب إليه أن يجري كما اعتاد بأمر الله، وإن ظنَّ النيل أنه يجري من تلقاء نفسه فإنَّ الله قادرٌ على إغناء عباده من فضله، وفي ذلك صورة حزينة يدمج فيها الشاعر بين حبه للنيل الذي جعله يتعلَّق به ويناجيه كأنسان بهذه الطريقة، وبين مناجاته لله الذي هو العلة الأولى في كلِّ شيء، وهو منزل الخير في كل البلاد، وليس فقط في بلاد النيل.

ويستخدم الشاعر هنا أداة النداء (يا) التي تفيد النداء للبعيد أصلاً، لكنَّ النيل قريب من قلب الشاعر، لذا فإنَّه يصوِّر حبيباً خان عهده فلم يَفِ، وهو الوفاء المنتظر من النيل في كلِّ عام، ويصرِّ على إظهاره الخليل (الحر) الذي لا يغدر، ويعد لمناجاة الله بطريقة جميلة خلال لوحته الأولى، فيقول إنَّه إن كان انعدام الوفاء في ذلك العام من عند الله، فإنَّ مالك النيل حرَّ فيما يشاء.

ثمَّ يتعرِّض الشاعر القاضي إلى ذكر شماتة الصليبيين في أهل مصر عندما توقَّف النيل، ويلعن سخرينهم و كفرهم، إذ قال:

قَالَ الصَّلِيبِيُّ اللَّعِينُ بَجَهْلِهِ وَ الْكُفْرُ
مُسْرَى سَرَى وَالنَّيْلُ أَصْبَحَ وَأَقْفَاً
يَرْكُضُ فِي جَوَانِبِ صَدْرِهِ
قَدْ فَاتَتْهَا تَعْقِبُهُ فِي شَهْرِهِ
وَمَضَى النَّسِيءُ وَلَيْسَ فِيهِ زِيَادَةٌ
إِنَّ النَّسِيءَ زِيَادَةٌ فِي كُفْرِهِ²

يبدو الشاعر في هذا الجزء من القصيدة، ساخطاً على الصليبي الذي يتمنى دوما لو كان بإمكانه أن يوقف النيل، لتحلَّ الكارثة بأرض النيل، فكلمًا ازداد وفاء النيل، ازداد حقدُه على أرض الإسلام والمسلمين. وفي ذلك تدلُّلٌ لله تعالى، يعكس فيه الشاعر، ما حلَّ بالمسلمين من جفاف.

¹ الداوداري، كنز الدرر .ج.9.ص 166

² المصدر السابق. ج.9.ص 166

ويعرض الشاعر بعد ذلك شكواه إلى الله تعالى القادر على كل شيء، مقرناً ذلك بذكر

بعض النتائج التي أفضت إليها الكارثة:

يَا رَبُّ إِنَّ الْقَمَحَ أَصْبَحَ غَالِيًا فَا رْخِصْ بِحَقِّكَ مَا غَلَا مِنْ سِعْرِهِ
ارْحَمْ بِفَضْلِكَ رُكْعًا أَمْ رُضْعًا أَمْ رُتْعًا فِي ذِي الْوُجُودِ بِأَسْرِهِ
أَوْ أَعْتِ عِبَادَكَ فِي بِلَادِكَ بِالْوَفَا وَأَبْسُطْ عَلَى الْمَقْيَاسِ خُلْعَةَ سِتْرِهِ
وَأَضْفِ إِلَى تَغْلِيْقِهِ تَغْلِيْقَةً حَتَّى يُرَى تَخْلِيْقُهُ فِي مِصْرِهِ
وَأَقِضْ عَلَى السَّدِّ الْمُبَارِكِ مَاؤُهُ وَاكْسِرْ رَبِّ فَجَبْرُنَا فِي كَسْرِهِ
إِنَّا تَشَفَّعْنَا بِجَاهِ مُحَمَّدٍ وَبِشَهْرِ مَوْلِدِهِ الشَّرِيفِ وَعَشْرِهِ¹

يتحدث الشاعر في هذه الأبيات عن بعض النتائج التي أفضى إليها توقف النيل في ذلك العام، إذ ارتفعت أسعار القمح، ثم ذكر الشاعر كيف تأثر جميع الناس بهذا الغلاء وعانوا منه، وفصل في ذكر بعض الفئات الاجتماعية التي تأثرت بشكل كبير بهذا الغلاء، وهم المصلون لله تعالى والذاكرون له والأطفال الرضع الذين يعتمدون على ما تأكله أمهاتهم، وكذلك الذين كانوا يعيشون في هناءة العيش ويأكلون متنعمين، وهذا دلالة على انتشار الكارثة على جميع فئات المجتمع.

ويختتم الشاعر الجزء الأخير في القصيدة بالتشفع بسيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، وهذا أيضا مما درج عليه شعراء ذلك العصر لدعم شكواهم إلى الله تعالى، فينتشفعون بالرسول الكريم و بجاهه وبالشهر الذي وُلد فيه، وبذلك تتلاحم أجزاء القصيدة ما بين الشكوى والرجاء، و الشماتة والأمل بالخلاص، مما وقع به المسلمون في تلك السنة.

أما في النثر، فقد جاءت النصوص منسجمة في أجزائها أيضا، ومن الأمثلة عليها رسائل الشتويات التي كان الصفدي يتبادلها مع بعض أصدقائه من الأدباء والكتاب في الثلج والبرد، ففي إحدى رسائله التي تبادلها مع ابن فضل العمري، يقول:

¹ الداو اداري، كنز الدرر. ج9. ص 166

" يقبل الأرض التي يخجل السحاب من نداها، ويشفي لثم ترايبها القلوب صداها، وتؤمها الأيام بالمنّ وتعدوها الخطوب إلى عداها، تقبلاً يزدادُ به شرفاً، ويعتادُ تكراره، ولا يعتدُّه سرفاً، ويجعل مواطنها بمواقع لثمه روضةً أنفاً، وينهي ورود المثال العالي تجلّي حبره في حبره، ويفضخ زهر الأفق روضه بزهره، وتتحقّق النواظر حسن صنائعه وما دبّجه القلم فيه بالأثر.¹

في هذه المقدّمة، يمدحُ الصفدي متلقي الرسالة، فلا يسأل عن حاله، ولا يشير إلى أثر الكارثة، فتبدو مقدّمة مدحية فقط، ثم يتخلّص الأديب من المدح، بالإشارة إلى رسالة ابن فضل التي سبق وأرسلها إليه فيقول:

"وانتهى إلى الإشارة الكريمة في أخبار الثلوج التي طمّت وعمّت، وأوضحت أنباءها وما عمّت، وسأقت إلى الشام قطار القاطر، وذمّت، ونمّت بركات مواقعها ونمّت وتمت، وهمّت سحائبها بالعذاب وأهمّت فإن لم تبلغ الحناجر فقد همّت²

في هذا الجزء من الرسالة، يعرض الصفدي كيف تناول ابن فضل بقلمه ما فعلته الثلوج في المناطق التي نزلت عليها، التي كان لها أثر سلبيّ ومدمر، جعلت الناس يعيشون في خوف، فشتاء تلك السنة لم يكن شتاء خيراً، بل شتاءً أهمّ الناس.

ثمّ يتحدّث الصفدي عن الثلوج وأثرها في مكان إقامته مصر، راداً على رسالة ابن فضل بالشام، فيقول: " فإن كانت هذه السنة أربت بالثلوج على الأولى، وزادت عرض الأرض طولاً، وجعلت صحیحات النواظر حولاً، فما يظن المملوك إلّا أنّ الله نسف جبال دمشق ثلجاً، وجعل حواجبه الممتدّة على عيون الأرض بلجاً. على أنّ الديار المصريّة في هذا العام، وصل إليه فضلة ذلك البرد، ورمى أهلها بما عهدوه من مزاجها الذي كأنه من الورد، فلوترى أحدهم وقد أخذه النافض، ونحاه القرّ بعامله الرافع الخافض، لا يحميه حصن فروة ولا يُجنّه، ولا يصدّ عنه نفخة زمهرير ولا يكنّه، لتوهمه أخوا وجدٍ يهتزُّ طرباً، أو غصناً اعتورَ عليها ريحاً شملاً وصباً، قد ركبت أعضاؤه من الزئبق فما استقر... كم بكى أنف بدمع جفونه أحقّ بتلك العبرات، وكم

¹ الصفدي، ألحان السواجع. ج.1.ص160

² المصدر السابق. ج.1.ص160

طافَ بكعبةِ كانونَ وما أتى غيرَ الجمراتِ، يكادُ لذلكِ البردِ واليبسِ يتجسّدُ حتّى الكلامِ، ويتوسّدُ الإنسانُ طلبَ الدّثارِ تحتَ الرّجامِ، تلهجُ الرعدةُ به لهجَ السكونِ بحرفِ العلةِ، أو عيونَ العشاقِ بالدموعِ المستهلةِ، أو البدائعِ والبدايةِ بكلماتِ مولانا المتدفّقةِ، أو الفهاهةِ والعي، بعباراتِ المملوكِ وكلماته الملقّة "1

يصوّرُ الصفدي هنا شدّةَ البردِ الذي وقع في مصر، على الرغْمِ أنّه لم يكن بحجمِ البردِ والثلجِ الذي وقع في دمشق، مكان إقامة ابنِ فضل، ولكنّ الأوّل جاءَ على الناسِ بما لا يستطيعون، فجمدَ الأطرافِ، وأصابَ الناسَ بالمرضِ، فبدت كلُّ الأشياءِ يابسةً من شدّةِ البردِ، و يضمّن الصفدي رسالته بعض المصطلحات اللغوية التي يعبرُ من خلالها عمّا يفعله البرد، الذي يكفُّ الناسَ عن العمل، ويجعلهم مشغولين بما جاءهم من هذا البردِ العظيم، وهذا الثلجِ المدرارِ. ويتحدّث الصفدي بعد ذلك عن رأيه في هذا البردِ العجيبِ والثلجِ البغيضِ الذي أتلف،

مقارنا بين الطقسين في دمشق والشام، فيكتب:

"لقد تحقّق أنّ عنصرَ النارِ ذهبَ فلكه، وأنّ الأثيرَ تقطّعت حبكه، يا رحمتا له من عارٍ يحسبُ أنّ النّخ² نخاً تحتَ فنّك³، ويا عجباً له من عاجزٍ عن الكلامِ وكم دقّ من بالحنك، هذا وبينَ الإقليمين هذا البعدُ ما للجهِ ساحل، والمسافةُ التي إذا سرى فيها طيفٌ شيقٌ أصبحَ دونَ الغايةِ بمراحل، ولم يصل إلينا إلّا فضالاتُ تلكِ العواصفِ، ولفاظاتُ ما ينفثه فمُ الجوّ من الرعودِ القواصِ، فهذه رموزُ ما هناك من التصريحِ، وبعضُ شررٍ ما ينفخه كيرِ الريحِ. فكيفَ بمكانٍ كانَ فيه المصرعُ، ومظانٌ ما ينشأ عن الرياحِ الأربعِ، مواطنٌ إذا كانتِ الريحُ رجاءً مرّت به وهي زرع.. فأقبحَ بتلكِ الأرضِ إذا أصبحت ثغوراً تضحك، وأبعدَ بتلكِ الأنداءِ التي ينحلُّ منها الكافورُ وينحكّ، ولقد كابدَ المملوكُ ثلوجها ولا إلى هذا الحدِ، وعالج أنواعها ولكن بعد لعبٍ وهذا جدّ.

¹ الصفدي، ألحان السواجع. ج1. ص160-161

² بساط طوله أكثر من عرضه. ابن منظور، لسان العرب. مادة نخّ

³ وهو جلدٌ يلبس تحت السراويل، وقيل فلان بطن سرأويله بفنّك. انظر: ابن منظور، لسان العرب. مادة فنّك.

ولله الوداعي¹ حيث يقول:

أقول والثلجُ قد نُشِرْنَ لهُ على وجوهِ الملا ملاءاتُ
لو لم تكن قامت القيامةُ ما بدلت الأرضُ والسمواتُ²

يدمجُ الصفدي في متن رسالته بين وصفِ الثلج والبرد في مصر، ومظاهره التي جعلت الأرض مكسوّة باللون الأبيض، فتغطّي الزرع وكلّ ما عليها، فلا يظهر للأرض لون، وتتعتّل مسالكها، وتأتيها الرياح القويّة من كلّ اتجاه، ولا يسمع سوى صوت الرعد القوي، وبين المقارنة بين مصر والشام اللتين تعانين المعاناة نفسها، ومصر على شدّة ما بها، فهي أقلّ معاناة من الشام، وهذا يدلّ على قوّة الشتاء في ذلك العام، وأثره في الناس، وما خلفه من أثر في الأدباء أيضاً، جعلت أقلامهم تفيض بهذه الرسائل، وقد ضمّن الصفدي بيتين للوداعي في واقعة مشابهة، وهو بذلك يوظّف تجربة غيره من الأدباء، ليعبّر عن قوّة الحادثة التي يتحدّث عنها.

ويختم الصفدي رسالته، بإيمانه بقضاء الله في هذا الشتاء، إذ كتب:

"والله المسؤول في الإعانة، والمرجوّ لحسن العاقبة لا إله إلّا هو سبحانه، ومولانا في وقاية من الله تكفّ عنه الأسواء، وتردّ الأدواء تصدّ الأواء، ونعمة من الله تصاحبه صباح مساء، وتبلغه من المآرب والمسارب حيث سار وحيث شاء، بمنّه وكرمه إن شاء الله³"

يظهر الصفدي في نهاية رسالته مُسلماً بما أراد الله له أيكون، أملاً منه أن يبعد السوء عن القاضي العمري، فأنه تعالى، العالم بكلّ شيء، ولا ملجأ من كلّ سوء إلّا إليه، وكلّ ما قضاه الله تعالى نعمة منه لعبده.

في هذه الرسالة تبدو أقسامها متكاملة منسجمة؛ فلقد حرصَ الكاتب أن يبدأ بذكر الأرض والطبيعة المعطاءة وخيرها، مهما تعرضّ الناس فيها لكوارث تسيء لهم، وحرصَ على عرض

¹ هو علاء الدين علي بن المظفر الكندي، شاعر وكاتب، وله كتاب معروف باسم "التذكرة الكندية" ولد سنة 640هـ توفي سنة 716هـ. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات. ج22. ص199

² الصفدي، ألحان السواجع. ج1. ص162، 163

³ المصدر السابق. ج1. ص163

ما تعرّضت له مصرٌ من ثلجٍ وصقيعٍ أضرَّ بها، وجعلَه منسجماً مع الرسالة التي أرادَ الرّدَّ عليها، وهي رسالة تتحدّث عن الموضوع ذاته، واستحضر الصفدي نصوصاً شعريّة لشعراء آخرين، كاعت منسجمةً هي الأخرى مع مضمون الرسالة، فلا انفصام ولا انقطاع بين أجزائها، ويختم الكاتب رسالته بتأكيدِه على الإيمان بما أرسله الله تعالى للناس من كوارث طبيعيّة.

اللغة

تعدّ اللغة أداة الكاتب الملموسة التي يرصف بها أدبه، لذا يكونُ حريصاً على استخدام اللغة الملائمة التي تناسب الجنس الأدبيّ الذي يطرقه، والموضوع الذي يودّ الكتابة فيه، بحيث "يكونُ الكلام ظاهرَ الدلالةِ على المراد به"¹، فلا أدلّ على فصاحة الأديب من خلوّ نصوصه من التعقيد والتنافر في الكلمات والضعف في التأليف"²، حتّى تبدو كتابته في أفضل حلّة ترضيه، وتستثير ذائقة القارئ.

وكانت هناك دعوةٌ من النقاد إلى السهولة في اللفظ قبل العصر المملوكي، " فأجود الكلام ما يكونُ جزلاً، لا ينغلقُ معناه، ولا يستبهم مغزاه، ولا يكونُ مكدوراً مستكراً، ومتوعراً متقعراً"³، وقد تبع هذا المنهج كثيرٌ من أدباء العصر المملوكي، فها هو صفيّ الدين الحلّي، الذي يعدّ من أبرز هامات العصر أدباً، يقول ناقداً اللغة المعقدة الوعرة:

لُغَةٌ تَنْفِرُ الْمَسَامِعَ مِنْهَا حِينَ تُرَوَى وَتَشْمَزُّ النُّفُوسُ
وَقَبِيحٌ أَنْ يَذْكَرَ النَّافِرَ الْوَحْشِيَّ مِنْهَا وَيَتْرُكَ الْمَأْنُوسَ
أَيُّنَ قَوْلِي كَثِيبٌ قَدِيمٌ وَمَقَالِي عَقَقْتُ قَدْ دُمُوسُ⁴

¹ الصعيدي، عبد المتعال: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة. د.ط. القاهرة: مكتبة الآداب. 1999.

ج1.ص15

² المصدر السابق. ج1. ص 20

³ أبو هلال العسكري، الصنائع، ص 81. وانظر: قفيلة، عبده عبد العزيز: النقد في العصر المملوكي. ط1. القاهرة:

مكتبة الأنجلو. 1972. ص 282

⁴ الحلّي، صفي الدين: الديوان. د.ط، دار صادر، بيروت، لبنان، 1990. ص 624. انظر: قفيلة، عبده، النقد في العصر

المملوكي، ص 285

يدعو صفيّ الدين الحلبيّ إلى الابتعاد عن الألفاظ الصعبة الحوشيّة، ويصف لغة الشعراء التي تحوي مثل هكذا ألفاظ بأنّها منفرة للسمع، وتجلب الاشمئزاز للنفس، فمن القبيح استخدامها.

وقد عني أدباء هذا العصر بهذه القضية، وأبدوا آراءهم فيها، وكان منهم الصفدي، الذي كان يشيد كثيرٍ ممّن يرأسلهم من الأدباء والكتاب، فعلى سبيل المثال، ما أورده من رأيه في أدب جمال الدين ابن الغانم¹، فهو منفرد بلغته " من كلّ معنى وحيد يكاد الميت يفهمه، وكلّ لفظ رقيق تكاد صفحة القرطاس تُسلمه"²

واستخدم الأدباء اللغة السهلة في أدبهم للتعبير عمّا في نفوسهم في أدب الكوارث الطبيعيّة، يقول شاعرٌ في توقّف النيل إحدى السنوات:

إِنَّ مِصْرًا تَرَمَلَتْ مِنْكَ دَهْرًا وَهِيَ تَرْجُو مُرَاجِعًا مِنْكَ بَعْلًا³

في هذا البيت، تسيطر على لغة الشاعر البساطة في أثناء انتقاء ألفاظه في معرض رجائه بعودة النيل للوفاء، كي يحلّ الخير على مصر، فيستخدم لفظة (ترملت) و (بعلا) وهي من الألفاظ القريبة لقاموس الناس جميعا في حياتهم اليوميّة، فلا يختار ألفاظا معقّدة يصعب على المتلقي فهمها.

ومن الأبيات التي اتّسمت بسهولة الألفاظ، بعض ما قاله شهاب الدين محمود في نيل مصر، عندما توقّف عن الوفاء سنة 695هـ، فيقول معاتباً:

يَا ذَا الْوَفَاءِ أَرَاكَ خُنْتَ عَهْدَنَا وَالْحُرُّ لَا يَشْنَى الْوَفَاءَ بَعْدَ رِهِ
إِنْ كَانَ دَفَعَكَ مَا يَجِيءُ مُبَادِرًا إِلَّا بِإِذْنِ مَلِكِهِ فَبَعْدَ رِهِ

ومن المواطن التي اتّسمت بالسهولة، مقامة ابن عبد الظاهر في زلزلة سنة 702هـ، التي يبيّن فيها كيف تناول أهل مصر أثر الحدث، وتقويم الناس له، إذ قال:

¹ وهو أديب وكاتب ديوان الإنشاء في الشام، مات في شبابه عام 744هـ. انظر: الصفدي، الوافي بالوفيات. ج.17. ص.189

² نفسه، ألحان السواجع. ج.2. ص.133

³ ابن إياس، بدائع الزهور. ج.1. ق.1. ص.521

"ولم يكن لأهل مصر عهدٌ بمثل هذه الزلزلة، ولا ألف شيوخها مثلها، فلا جرم إن كانوا لها مستهولين. وأما غيرها من الأقاليم فإنه قد ورد التاريخ بما يكاد يتهم فيه المؤرخ في نقله"¹

يرى الأديب هنا، أنّ المؤرخين المصريين لم يعرفوا مثل هذه الزلزلة في تاريخهم، فكانت زلزلة عظيمة في نظرهم ونظر العامة، والأمر يختلف في بلادٍ أخرى، إذ إنَّ غيرهم قد أرخ للكوارث التي حلت ببلادهم بشكل لو قرأه أحد، لما صدق المؤرخ من شدة الأحوال التي نقلها.

يظهر من النصوص السابقة كيف استخدم بعض الأدباء اللغة السهلة المفهومة، ليصفوا الكوارث الطبيعية التي حلت بهم، بشكل يفهم المتلقي دون غرابة أو وعورة.

مقابل ما سبق، ظهرت بعض الألفاظ الغريبة والصعبة لدى بعض الكتاب والشعراء في العصر في العصر المملوكي الأول، وذلك عند استخدامهم بعض الألفاظ الشعبية في أشعارهم، التي سأحدث عنها لاحقاً.

وتختلف لغة الكاتب على منازل شتى، فألفاظ المتغزل تختلف عن ألفاظ المفتخر، وألفاظ الهاجي تختلف عن ألفاظ المادح وهكذا، ويختلف الوصف في كل موضوع من هذه الموضوعات فما يصح وجوده هنا لا يصح في موضع آخر.² لذا واهتمّ النقاد بوجود علاقة وطيدة بين اللغة والمعنى، قال العتابي: "الألفاظ أجساد، والمعاني أرواح"³ لذا يجب "إيفاء كل معنى حظّه من العبارة، وإلباسه ما يشاكله من الألفاظ، حتّى يبرز في أحسن زيّ وأبهى صورة"⁴

وتباينت اللغة في أدب الكوارث الطبيعية في هذا العصر بين القوة والسلاسة، فالقوة كانت في مواضع وصف الكارثة وشدتها، و السلاسة فكانت في مواضع وصف أثرها على

¹ السيوطي، كشف الصلصلة. ص 54

² ابن الأثير، المثل السائر، ج1. ص 168. انظر: بكار، يوسف حسين: بناء القصيدة العربية. د.ط، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر، 1979. ص 190-191

³ أبو هلال العسكري، الصناعاتين. ص 197

⁴ ابن طباطبا، عيار الشعر. ص 7

الناس وذكر الموت، وغالباً ما طغت الأولى على الثانية، لما يعتمد عليه هذا الأدب من مضمون.

واستخدم الشعراء والأدباء اللغة الرقيقة السلسة في مواضع متعدّدة في الحديث عن نتائج الكارثة، وما فعلته من مأس بالناس، ومنها مواضع مدح الرسول الكريم، ومناجاة الشعراء والكتاب له بين الخوف والرجاء، ومن ذلك:

وَتَابَ الْوَرَىٰ وَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَلَاذُوا بِمِنِّ الْكَرِيمِ الْمُبَجَّلِ
شَفَعَتْ لَهُمْ عِنْدَ إِلَهِهِ فَأَصْبَحُوا مِنَ النَّارِ فِي أَمْنٍ وَبِرٍّ مُعْجَلِ
أَغَاثَهُمُ الرَّحْمَنُ مِنْكَ بِنَفْحَةٍ أَلَذِّ وَأَشْهَىٰ مِنْ جَنَىٰ وَمُعَسَّلِ¹

في هذه الأبيات، يستخدم ابن قزل ألفاظاً تتسم رقيقة سلسة، لما في ذكر الرسول الكريم من أثر في القلوب، فهي التوبة والاستغفار والشفاعة والأمن والبر والغوث والنور والسلام وأسماء الله تسيطر على هذه الأبيات، فتريح القارئ الذي اضطرب من هول النار وأثرها.

واستخدم الشعراء أيضاً لغة رقيقة، حتى وهو يتخيّلون أنهم يخاطبون سبب الكارثة وما هم فيه من مأس، مثل مخاطبة النيل المتوقّف عن الوفاء، يقول شاعر:

لَمْ تَزَلْ يَا نَيْلُ أَهْلًا وَبِكَ الْفَضْلُ فِي الدَّفَاتِرِ تُمْلَأُ²

ففي هذا البيت يظهر الشاعر تفاؤلاً مبطناً، ورجاءً لطيفاً من النيل الذي أدى توقّفه إلى حدوث مجاعة في مصر، وذلك بما تحمله ألفاظ البيت من شحنات عاطفية، تدخل قلب المتلقي.

وسيطرت بعض الألفاظ السلسة التي تدل على عاطفة الحزن، في بعض أبيات القصائد التي قيلت في الكوارث، ومن الأمثلة عليها، وصف القاضي شهاب الدين محمود ما حلّ بدمشق من سوء الحال في سيل بعبك:

هَلَا أَعَارَتْ دِمَشْقُ أَخْتَهَا حَلَبَ عَيْنًا فَتُرَحَّمُ أَوْ قَلْبًا فَيَكْتَبُ³

¹ ابن قزل، الديوان. ص 338

² ابن إياس، بدائع الزهور. ج 1. ق 1. ص 522

³ ابن الوردي، الديوان. ص 181

فدمشقُ مدينةٌ تشكو من الحزن والاكْتئاب من شدّة المحنة، وهي من شدّة ما بها لا تريدُ أن تنتشر ما بها أختها مدينة حلب، فلطوة (أخت، ترحم، قلباً، يكتئب)، كلّها ألفاظٌ تعكس سلاسة الأشعار التي قيلت؛ فهي أشعارٌ تعكس حالة حزن وألم، وبذا فإنّها تأتي ملائمةً للحدّث الذي قيلت فيه.

ومن ذلك أيضاً قول أحدهم في خطبة زلزلة عام 702هـ: " ولم تُغنِ عنه الدنيا وأموالها،

لما هلك في ساعة زلزلتها ! فرحم الله امرأً تاب عما جنى، وتقرب من فعل الخير و دنا "¹

فيستخدم الخطيبُ ألفاظاً مثل: تاب، تقرب، دنا، لم تغن، رحم الله. وكلّها ألفاظٌ تدلُّ على

السلاسة في تناول المعنى المطلوب، متأثراً فيها بلغة القرآن الكريم، التي تعكس مصير المؤمنين في هذه الزلزلة.

وبرزت مواطن القوة في اللغة، في أثناء الحديث عن صورة الكارثة وقسوتها وشدّتها،

وفي تفسيرها أحياناً، ومن الأمثلة على ذلك، ما قاله أحد الشعراء في وصف نار المدينة:

قَدْ أَثْرَتْ سَفْعَةً فِي الْبَدْرِ لَفَحَتْهَا فليلاً التّم بَعْدَ النّورِ لَيْلَاءُ
تُحَدِّثُ النَّيْرَاتُ السَّبْعُ أَلْسُنَهَا بما يُلاقِي بِهَا تَحْتَ الثَّرَى الْمَاءُ
وَقَدْ أَحَاطَ لظَاهَا بِالْبُرُوجِ إِلَى أَنْ كَادَ يَلْحَقُهَا بِالْأَرْضِ إِهْوَاءُ²

في هذه الأبيات يتحدّث الشاعر عن نار المدينة، شديدة السواد المائلة إلى الحمرة، كيف

جعلت النهار ليلاً، ووصف هذه النار بأنّ لها سبعة ألسن، وكأنها حيوان أسطوريّ متوحّش، لا

يروبها حتّى ما تحت الأرض من ماء، ويلاحظ استخدام الشاعر للألفاظ (لظاها، البروج، إهواء)

في معرض وصفه لما لأثر الكارثة، فهذه النار لم تكن ناراً عادية، بل كان لها لظىّ أطاح

بالبروج العالية، ولم يهدم أجزاءً منها فقط، بل أهوى بها أرضاً.

ويقول شاعرٌ في وصف ما حلّ في دمشق من سيلٍ أصابها:

¹ الدواداري، كنز الدرر. ج.9. ص. 103

² أبو شامة، الذيل على الروضتين. ص 193

لَقَدْ أَظْهَرَ الْجَبَّارُ بَعْضَ اقْتِدَارِهِ فَأَرْسَلَ بَحْرًا طَامِيًا مِنْ بَحَارِهِ
وَأَرَعَدَهَا حَتَّى تَوَافَتْ مِيَاهُهَا مُطْنَبَةً مَحْفُوفَةً بِازْدِجَارِهِ
وَأَهْلَكَ فِيهِ خَلْقَهُ وَعَبِيدَهُ فَأَصْحُوا وَهُمْ غَرَقَى بِأَقْصَى قَرَارِهِ¹

في هذه الأبيات يستخدم الشاعر كلمات لها رنين عال في السماع، فينتقي من أسماء الله الحسنى (الجبّار) لما في هذا الاسم من وقع في نفس المتلقي، ولما في صوت الجيم من قوة في السمع، واستخدام كلمة (ازدجاره) التي تحمل الصوت نفسه، فحرف الجيم من الحروف المجهورة، والمحفوزة أو المقلقة التي تُحفز عند الوقف، ويضغط القارئ عليها في مواضعها²، ويلاحظ وصف الشاعر لما حل في دمشق بأنه بعض قدرة الله تعالى، وهذا يحيل النفس إلى التفكير في جبروت الله تعالى وقدرته على فعل ما هو أكبر من هذا، ويصف الشاعر السيل بالبحر (طامياً)، بما تستدعيه هذه اللفظة من القوة والتنكير باسم من أسماء يوم القيامة وهو (الطامة) ويوافقها في البيت الثاني وصف المياه بأنها مطنّبة، فيزيد صوت الطاء من الطاقة الإيحائية القوية للأبيات، ويستخدم الشاعر لفظة (أرعداها) و (أهلك)، وينهي بنتيجة أن الناس (غرقى) بما تحمل هذه الكلمة من إحياءات الموت البشع غير العادي، فهم ليسوا بدار قرار الآن بل هم (بأقصى قرار)، فتبعث كلماته الرهبة إلى النفس، والأثر القوي فيها.

ويصف ابن الوردي ما حل في سيل أصاب الشام، فيقول:

ناهيك من ديم في طيها رغب وزمجات رعود ضمها رهب
قد تجت الأرض تجاً فهو منسكب ورجت الأرض رجاً³ فهي تضطرب⁴

يصف الشاعر في هذين البيتين أثر السيل على دمشق، فمطره شديد ذو صوت مخيف، فهو (يزمجر)، ما يدعو الناس للإصابة بالرهبة، والمياه (تتج) من شدتها، وتتأثر الأرض وكأنها (ترتج). يلاحظ أن الشاعر فيما سبق يستعير الألفاظ التي تبعث على الرهبة من الحدّث، فبعضها يبعث في النفس الخوف من الصوت، وبعضها يبعث على الشعور بعدم التوازن، وهي بالتالي

¹ الذهبي، تاريخ الإسلام. ج48. 366

² انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة جيم

³ سورة الواقعة . آية (4)

⁴ ابن الوردي، الديوان. ص182

تُشعرُ المتلقّي بالخوف النفسي، وتشعره بالتعب، نتيجة ما تبعته الأصوات التي تتألف منها من جهدٍ عضليّ في الجهاز الصوتي، وكلّها تدلّ على قوّة الحدث.

وفي النثر، يذكرُ ابن عبد الظاهر في مقامته التي كتبها في زلزلة 702هـ:

"واهتزّت الأرضُ، ومادت، وطالت هزّتها وتمادت، وزلزلت الأقدام، وخفضت الأعلام، واستوت من هولها الأنوار والظلم"¹

يصوّر الكاتب الزلزلة في مدى قوّتها، ويستخدمُ ألفاظاً تعبّر عن الكارثة وما أحدثته، فيقول في وصف حركة الأرض " اهتّزت، مادت، طالت، تمادت"، ما يوقع في النفس تصوّر مدّتها الزمنية وأثرها الذي تعاضم أثره مرّة إثر مرّة، فما عاد شيءٌ عالٍ إلّا وانخفض، حتّى " الأعلام" التي تثير في نفس القارئ الشعور بالأمان كونها رمزاً للدولة والشعور بالأمن قد خفضت، وأصبح الليل كالنهار على الناس من "هول" هذه الحادثة.

ومن الأمثلة على اللغة القوية في النثر أيضاً، ما ورد في رسالة من والي الصفة القبلية عن المطر، فيقول في مقدرات الناس " إذ داهمه سيلٌ عظيمٌ عبابه، هامٌ سحابه، له دويٌّ شديد، قد اجتمع من متون الجبال وبطون الأودية وقرار الوهاد"²

وأخفق بعض الشعراء في الموافقة بين اللفظ والمعنى اللذي يعبر عنه في بعض المواضع، ومنها، أنّ أحد الشعراء الذين وصفوا سيل دمشق، وما حلّ بالناس به، واستخدم لذلك الألفاظ والمعاني القويّة التي تعبّر عن أثر هذا السيل العظيم، يقول في أحد أبياته:

فَسُبْحَانَ الَّذِي مَنْ أَبْدَى عَجَائِبَ صُنْعِهِ وَأَزْعَجَ كُلَّ الْخَلْقِ عِنْدَ ابْتِدَارِهِ³

¹ السيوطي، كشف الصلصلة. ص 53

² الفاخري، تاريخ الفاخري. ج.1. ص 436

³ الذهبي، تاريخ الإسلام. ج.49. ص 56

فبعدَ وصفه في أبياته للسيل، وتعجبه في هذا البيت من قدرة الله التي وصفها بالعجائب لقوتها و هولها، يستخدم لفظة (أزعج)، لوصف أثر هذه العجائب على الخلق، وهذه اللفظة لا تعبر عن شدة الحال التي قاساها الناس من هذا السيل الذي أهلكهم.

ومن الأمثلة على النصوص الركيكة التي لم تصور أثر الكارثة ولا وصفتها كما تستحق من قوة وشدة، بيت ابن الوردي في الطاعون:

حَلَبُ وَاللَّهِ يَكْفِي شَرُّهَا أَرْضٌ مَشَقَّةٌ¹

في هذا البيت لم يتعرض الشاعر إلى وصف أو تحليل أثر الطاعون على حلب، بل وصفها أنها أرض مشقة، والمشقة قد تأتي بفعل أسباب كثيرة، لا أثر للطاعون الأسود التي قتل ودمر فيه.

و استخدم بعض الأدباء في نصوصهم ألفاظاً غير عربية، منهم النصير الحمّامي، الذي قال في توقّف النيل عن الوفاء:

إِنْ عَجَّلَ النَّوْرُوزُ قَبْلَ الْوَقَا عَجَّلَ لِلْعَالَمِ صَفْعَ الْقَفَا²

في هذا البيت يستخدم الشاعر لفظة (النوروز) وهو " اليوم الجديد، وهو أول يوم من السنة الشمسية الإيرانية، ويوافق اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس من السنة الميلادية.. وهو أكبر الأعياد القومية للفرس " ³، وهو من الألفاظ الشائعة لديهم و المناسبات المعروفة، وقدم الربيع يعني انتهاء فصل الشتاء، وابتداء الخصوبة، التي ستعتمد على كمية الماء التي فاضت من النيل، و سداد حاجة الأرضي الزراعية.

ومن ذلك أيضاً، ما قاله الصفدي في أشعاره عن التلوج وتواتر المطر سنة 746هـ:

مَا كَانَ إِمْشِيرُ مَمَّنْ لَا يُشِيرُ بِمَا أُوْمَتَ إِلَيْهِ بِكَفِّ خُضِبَتْ وَيَدِ⁴

¹ ابن الوردي. الديوان. ص 91

² ابن إياس، بدائع الزهور. ج.1. ق.1. 425

³ المعجم الوسيط، مادة نُوْرَزَ.

⁴ الصفدي، ألحان السواج. ج.1. 163

يستخدمُ الصفدي في البيت السابق اسم أحد الشهور القبطية في شعره، فهو لم يكن شهراً عادياً لا يشارُ إلى حدثٍ فيه، ويبدو أن الصفدي قد تأثر بالكلمات التي يستخدمها المصريون، لا سيما الأقباط، وذلك لإقامته في فيها.

ومن ذلك أيضاً، تصوير ابن الوردي أثر الثلوج في الناس وحياتهم، إذ قال: "فأصبحت العروس تتجلى بشربوش من الفضة"¹

تظهر عروس دمشق في هذا الشتاء مختلفةً عن عاداتها في اللباس، فقد استخدم الأديب لفظة (شربوش) وهو نوع من الأنسجة الرقيقة، تصنع منها أشياء إن طويت لا يكاد يبان لها حجم²، وهي الغطاء الذي تضعه العروس رأسها،³ فهو متجمدٌ كأنه قالبٌ من الفضة، من أثر الثلج والصقيع .

ومن استخدم الأدباء اللغة الشعبية في نصوصهم، وقد ظهرت جلية لدى ابن الوردي، إذ نظم في فن فنون الأدب العامي التي شاعت في تلك الفترة، وهو فن (الكان كان)⁴، فيقول في طاعون 749هـ:

أعوذ بالله ربّي	من شرّ طاعونِ النَّسبِ
باروده المسكتعلي	قد طارَ في الأقطارِ
فتّاش دهاشاته	ساعي لصارخِ مارثي
ولا فدى بـذخيره	دولابَه الطيّارِ
يدخلُ إلى الدارِ ويحلفُ	ما يخرجُ إلّا بأهلها
معني كتابِ القاضي	بكلّ من في الدارِ ⁵

¹ ابن الوردي، الديوان. ص 186

² دهمان ، محمد ، معجم الألفاظ التاريخية في العصر المملوكي. ص 97

³ وفيها تورية ، فالمعنى القريب هو العروس والبعيد هو إحدى مآذن دمشق وهو المطلوب. انظر: ابن الوردي ، الديوان .

ص 186

⁴ فن من فنون الأدب العامي " وله وزن واحد وقافية واحدة، ولكن الشطر الأول من البيت أطول من الشطر الثاني، ولا تكون قافيته إلا مردوفة قبل حرف الروي بأحد حروف العلة، ومخترعوه البغداديون، ثم تداوله الناس في البلاد. وسمي بذلك لأنه أول ما اخترعوه لم ينظموا فيه غير الحكايات والخرافات فكان قائله يحكي كان وكان " ابن حجة الحموي، بلوغ الأمل في فن الزجل. تحقيق رضا محسن القريشي. د.ط. دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي. 1974.

ص139

⁵ ابن الوردي، الديوان. ص 93

في الأبيات السابقة، يستخدم ابن الوردي الفنّ العاميّ؛ لسرعة وصوله لقلوب، فتستعيد بالله من شرّ الطاعون، ومن أثره الذي انتشر في الأقطار، فهو يطير إلى كلّ مكان كالبارود، مثيراً للدهشة والعجب،¹ وهو كالدولاب الطيّار الذي لا تتفدّ ذخيرته، ويدخل إلى كلّ البيوت ليقتل كلّ أهلها، وكأنّ معه كتاب أمرٍ بذلك

الأساليب

وظّف أدباء الكوارث الطبيعيّة غير أسلوبٍ للتعبير عن معانيهم وأفكارهم، وفي مقدّمتها:

- التناص

عُرف الأدباء في العصر المملوكيّ الأوّل بالموسوعيّة، فكانوا يمتازون باشتغالهم في علوم متعدّدة، وقد ظهر ذلك في ترجمة عددٍ منهم في الفصل الأوّل و الثاني، فكان منهم العالم و الفقيه و الأديب و الكاتب وغيرهم، وقد أثّرت هذه العلوم المختلفة في بناء نصوصهم الأدبيّة، فبرز التناص بجلاء فيها، وهو مفهومٌ نقديّ غربيّ حديث، ظهر بصورته الأولى في آراء "ميخائيل باختين" التي قدّم النصّ بصورة متداخلة، أي بتدخل عناصر وعلاقات بعضها ببعض، وكانّ هناك علاقة حوارية بينها، فأشار في كتاباته إلى مفاهيم متعدّدة مثل "المبدأ الحواريّ" و "الصوت المتعدّد"، التي توّد كلّها العلاقة الجدليّة داخل النص الواحد.²

أمّا الصورة النهائيّة لهذا المعنى، والتي عُرفت بمصطلح التناص، فقد ظهرت على يد جوليا كرسنيفا التي عرّفت التناص بوصفه لوحةً سيفسائيّة، وتفاعلاً نصيّاً داخل النص الواحد.³

وقد تعدّدت مظاهر التناص في أدب الكوارث الطبيعيّة، ويمكن إجمالها في الآتي:

¹ وهذا المقصود بكلمة دهاشاته، فهي كلمة عربية بمعنى العجب من الشيء، وهي أيضاً معنى "قيسارية أو خان أو وكالة يبارغ في تحسينها حتى تصير مدهشة". دهمان، أحمد: معجم الألفاظ التاريخي في العصر المملوكي. ص 76

² المختار، حسني: نظرية التناص، مجلة علامات في النقد ج 3. مج 9. 2000م / 243

³ انظر آراء جوليا كرسنيفا في التناص المختار، حسني: نظرية التناص. ص 243

1. التناص الديني

يُعدّ الأثر الدينيّ أبرز ما تأثّر به الأدباء في ما كتبوا، والمقصود به هنا التأثر بالدين الإسلاميّ بشكلٍ خاص، ذلك أنّ التناص الدينيّ يشملُ بصورة عامّة ما ورد في الديانات الثلاث وغيرها.

ويعدّ القرآن الكريم والحديث الشريف مصدرين مهمّين للتداخل النصّيّ عند الأدباء، فالأديب إذ تأثّر بهما، أضفى قدسيّة، و هالةً رفيعةً تحيطُ بنصه، لا سيّما في المواضع التي تصف نهاية الإنسان، فأصبحت الألفاظ والمعاني الإسلاميّة " جزءاً لا يتجزأ من الفكر الدينيّ الإسلاميّ، فقد بيّن الإسلام لأتباعه أنّ الموتَ حتمٌ على بني البشر، وأنّ الحياة الدنيا دار الفناء، ومعبّر إلى الحياة الأخرى"¹

وقد يأتي التناص الدينيّ اقتباساً مباشراً، وهو " أن يضمّن المتكلّم كلامه كلمة من آية أو آية من آيات الله خاصّة"²، وعدّ بعضهم " المضمّن في الكلام من الحديث النبويّ اقتباساً"³

ومن ذلك ما أورده الشيخ النووي في رسالته إلى الظاهر بيبرس واصفاً القحط في الشام، واعظاً له، مذكراً إياه بيوم القيامة وما ينتظره الإنسان من أهوال عليه أن يُعدّ لها العدة، فيكتب مضمناً رسالته: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾⁴

يظهر الكاتب من السابق، أنّه استعان بأربعة آياتٍ قرآنية، تعبّر عن صورةٍ واحدة، ودمج بعضها ببعض، ليصف مشهداً من مشاهد يوم القيامة، وهو ساعة فرار الإنسان من أقرب الناس لقلبه ودمه، وذلك من خلال عرضه للمسؤولية الملقاة على عاتق السلطان، وألاً عُذر له ولا لمسؤوليه في التقصير بها، فهو راعٍ ومسؤول يوم القيامة.

¹ عبد الرحيم ، رائد ، فن الرثاء في العصر المملوكي الأول. ط1 . عمان : دار الرازي . 2003 . ص 334

² ابن حجّة الحموي، خزنة الأدب. ج2. ص 455

³ المصدر السابق. ج2. ص 457

⁴ سورة عبس، الآيات (34 - 35 - 36 - 37)

ومن ذلك أيضا ما أورده ابن عبد الظاهر في مقامته عن زلزلة عام 702هـ، إذ بدأ رسالته بالتحدّث عن مظاهر قدرة الله تعالى في الكون، ومن ذلك رفع السماء بدون أعمدة، فقال مقتبساً حسن تدبير الله: ﴿رَافِعِ السَّمَاءِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوِيهَا﴾¹.

وفي هذه البداية عرض لبعض آيات الله، فمن العجيب للعقل البشري أن يتخيّل السماء بعلوّها وعظمتها دون شيء ماديّ يسندها، وهذا يقود إلى الإيمان بقدرة الله على جعلها تسقط على البشر لو أراد، لذلك فالزلزلة التي أشغلت الناس نتيجة تحرك الكرة الأرضيّة ما هي إلّا مظهر من مظاهر قدرته في هذا الكون، لا يعادل قدرة الله على حفظ العباد من سماء لا تقع عليه بأمره.

واستعان الأدباء بأجزاء من الآيات الكريمة، التي تدعّم غرض الأديب، ومن ذلك ما أورده ابن الوردّي أيضا في وصف حال البلد التي أصابها الزلزلة السابقة التي أطاحت بالعمران، و كأنّ شيئا لم يكن، إذ قال: " وهي لشدة الطمس، كأن لم تغن بالأمس"²

ففي هذا النص، يستخدم ابن الوردّي تركيباً جاهزاً مقتبساً من القرآن الكريم، وهو جزء من آية كريمة، وهو ﴿كَأَنَّ لَمْ تَغْنِ بِالْأَمْسِ﴾³، دون أن يضعها في إشارة تنصيص، بل يستخدمها استخداماً رشيقاً، ينبت من فكره دون تكلف، أو رغبة في إظهار اعتماده على آية أو جزء من آية، كما فعل في مواضع كثيرة في رسالته.

ومن الاقتباسات التي استخدمها الأدباء الأحاديث النبويّة، ومنها ما ورد في كتاب من الكتب التي وصلت عن أخبار زلزلة المدينة، إذ أورد أبو شامة المقدسيّ الحديث النبوي الشريف الذي تتبأ به بحدوث هذه النار⁴

¹ سورة الرعد. آية (2)

² ابن الوردّي، الديوان. ص 153

³ سورة يونس. آية (24)

⁴ انظر ص 38

ويورد بعض الأدباء أجزاءً من أحاديث نبويّة، تتعلّق بما يريدون وصفه، ومن ذلك ما أورده الصفدي في رسالته عن الطاعون، إذ وصف عزوف الناس عن التفكير في الدنيا، مقتدين بسنة النبي صلي الله عليه وسلّم، الذي كان زاهداً فيها، فاستعار الصفدي قول الرسول الكريم " وإذا أصبحتَ فلا تحدّث نفسك بال مساء، وإذا أمسيتَ فلا تحدّث نفسك بالصباح " ¹

وفي اقتباس الصفدي لهذا الحديث ميزة حسنة؛ إذ إنّ الناس عمّهم الهمّ والحزن والخوف في أثناء الطاعون، فما عادوا يتقون بالحياة، وباتوا يحدثون أنفسهم بالموت في كلّ ساعة، لذلك فقد تمثّلوا بقول الرسول الكريم الداعي إلى ترك الدنيا، وعدم تمنين النفس بالبقاء.

ومن أنواع التناص الديني، التناص الإشاري، الذي يعتمد على وجود ألفاظ قرآنيّة، تعيد المتلقي إلى الآيات الكريمة التي وردت فيها، وتقرن معناها بالنص الذي جاءت فيه.

ومن ذلك ما قاله خطيب زلزلة عام 702هـ: "يوم يفرّ الوالد من الولد، والولد من

الوالد" ²

ففي هذا النص، يظهر الخطيب متأثراً بقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ، وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ، وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ، لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾ ³ لكنه في هذه الآية لم يذكر هذا الفئات كلّها، ولم يذكر الولد والوالد باللفظ القرآنيّ المستخدم في الآية، لكنه أشار إليها، ليصف صورة الناس في أثناء الزلزلة، التي يقاربها بصورتهم في فرارهم من أقرب الناس إليهم يوم القيامة.

ومن هذه المواضع أيضاً، ما صورّه ابن الوردي في حال الأبنية في أثناء الزلزلة، فقال

في وصف حال جدارٍ متصدّع لكنه لم ينههراً بأكمله إلّا بعد شهرين، بعدما سقط جزء منه على

¹ البخاري، صحيح البخاري. ج.8.ص 89

² الدواداري، كنز الدرر. ج.9.ص 103

³ سورة عبس، الآيات (34-35-36-37)

أصحابه في أحد أيام شهر رمضان المبارك: " فإن قيل كيف صبرَ الجدارُ على إمساكِ شهرين متتابعين وما اجتثَّ من أصله، قُلْتُ هي كَفَّارَةٌ عَلَيْهِ فَإِنَّهُ وَقَعَ فِي نَهَارِ رَمَضَانَ عَلَى أَهْلِهِ ¹"

وفي النص السابق، يظهر ابن الوردي متأثراً بقوله تعالى: ﴿... فَمَنْ لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ، تَوْبَةً مِّنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ ²

في هذا النص يحسن ابن الوردي في طرح تساؤله الذي حيّره حول هذا الجدار الذي أمسك شهرين متتابعين عن السقوط، فيعدُّ ذلك (كفَّارَةً) عليه، إذ إنَّ جزءاً منه سقطَ على أهله في نهار رمضان، وفي ذلك يتمازج مع الحالة التي أنزل فيها الله تعالى الآية القرآنية الكريمة، التي تعدُّ الصوم لشهرين متتابعين، وما في ذلك من إرهابٍ للصائم، كفَّارَةً لكلِّ مَنْ أفسدَ صيامه في نهار رمضان، وفعل ما يغضب الله تعالى منه.

ومن مظاهر هذا التناص استخدام أسماء سورٍ في القرآن الكريم وتوظيفها في سياقٍ أدبيٍّ، كما فعل ابن الوردي في أثناء وصفه سيلَ بعبك:

فَالسُّحْبُ وَالْبَرْقُ يَتَلَوُ كَغَاشِيَةٍ مِّنَ الدُّخَانِ عَلَى آثَارِهَا لَهَبٌ ³

يورد ابن الوردي في هذا البيت، أسماء سُورَتَيْنِ في القرآن الكريم بشكلٍ صريحٍ، وهي سورة الغاشية و سورة الدُّخَانِ والثالثة إشارة إلى الآية الأولى في سورة المَسَدِ، في قوله تعالى ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ⁴، وذلك في أثناء وصفه لمظاهر السيل من سُحْبٍ وَبَرْقٍ وَضبابٍ كثيفٍ يَغْشَى الْمَكَانَ وَكَأَنَّهُ دَخَانٌ مِنْ آثَارِ لَهَبٍ.

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً، أبياتُ لابن عبد الظاهر في زلزلة 702هـ، إذ ذَكَرَ أَسْمَاءَ ثلاثِ سُورٍ قرآنية هي (التكاثر)، و (القارعة)، و (العاديات)، وذلك لبيان ما فعلته الزلزلة بالناس:

¹ ابن الوردي، الديوان. ص 150 - 151

² سورة النساء. آية (92)

³ ابن الوردي، الديوان. ص 182

⁴ سورة المسد. آية (1)

لَهُوْنَا بِالتَّكَاثُرِ أَوْ رُمِينَا بِقَارِعَةٍ تَشِيبُ لَهَا النَّوَاصِي
وَكَأَنَّ الْعَادِيَاتِ لَهَا أَسَاسًا فَزَلَزَلَتْ الْأَدَانِي وَالْأَقَاصِي¹

يظهر من الأبيات السابقة، كيف وظّف الشاعر أسماء ثلاث سور قرآنية، فالناس قد عاشوا برغد وهناء أكثر عددهم، فما عادوا يفكرون سوى بديانهم، لكنّ الله تعالى أرسل إليه زلزلةً أيقظتهم من لهوهم، وتفكيرهم بالدنيا، وكأنّ جماعة من الخيول قدمت عليهم، وهزّت أماكن تواجدهم من شدّة وقع أقدامها.

ومن أنواع التناص الدينيّ الموجود هو إيراد القصص القرآنية وذلك بتوظيف الأدباء قصص الأنبياء في نصوصهم الأدبيّة، عن طريق امتصاص أحداثها، واستخدامها في وصف الأحداث المعاصرة لهم.

ومن القصص التي استخدمها الأدباء في نصوصهم، قصّة سيّدنا نوح عليه الصلاة والسلام، فقصة نوح تدور أحداثها حول الطوفان الذي كان معجزة نبيّه، ولعلّ السبب في التأمّر بها، أنّ من أبرز الكوارث التي كتب فيها الأدباء كانت في أثر السيول المدمّرة، التي قرّنها بذلك الطوفان.

ومن ذلك ما أورده الصفي في رسالة له في وصف الثلوج والسيول، ففي إحدى رسائله، التي كتبها في تواتر الأمطار عام 736هـ، قال:

مَا نَحْنُ مِنْ قَوْمِ نوحٍ كَيْ يَطُوفَ بِنَا الطُّوفَانُ فَأَفْهَمَ لَتَعْرِضِي عَلَى بُعْدِ²

في هذا البيت، يستحضر الصفي قصّة سيّدنا نوح في واقعة الطوفان، إذ إنّ قومه عندما لم يؤمنوا بدعوته، عاقبهم الله تعالى بإرسال الطوفان عليهم، وقد استخدم الصفي هذا الجزء من القصة؛ كي يدلّل على عظم المطر في تلك السنة، وبالتالي أثره في الناس، لكنّه ينفّي كونهم مثل قوم نوح عليه السلام، فهم مؤمنون بالله وربوبيّته، لكنهم عانوا من مطرٍ أقرب للطوفان.

¹ السيوطي، كشف الصلصلة. ص 54

² الصفي، ألحان السواج. ج.1. ص 169

ومن ذلك ما أورده الصفدي أيضا، في رسالة له يصف فيها أثر شتاء قوي آخر، جعل الناس تُثقل في ملابسها، فلا يستطيع أحدُ الهروب من هذا البرد غير العادي الذي أدى إلى حدوث سيل جارف بارتداء ملابس لا قبل له على ارتدائها، فقال: "وأنتي الزمهريرُ بجنودٍ ما للقوي بها من قبل، وحمل الأجسام من ثقل الثياب ما لا يعصم منه من قال: سأوي إلى جبل، وكذَّ من السيل ما استبكي العيون إذ جرى"¹

في نصّه هذا، يتأثر الصفدي بحدث واضح من قصّة سيدنا نوح، وهو إعراضُ ابنه عن الصعودِ معه في السفينة، وتفضيله الصعود إلى جبل، ظنًا منه أنه سينقذه من الطوفان، وذلك واردٌ في الآية الكريمة: ﴿قَالَ سَأُوِي إِلَى جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ الْمَاءِ﴾².

فمن يستطيع الاستغناء عن ثيابٍ تتقل كاهله في هذا الشتاء القارس، فهو كالذي يلجأ إلى الجبل من طوفان جارف.

ثمّ يستخدم الصفدي الحدث نفسه في وصف موقفٍ حقيقيّ، وهو لجوء الناس إلى الجبل ليعتصموا من أثر السيل بالفعل. فيقول: "أما نحن، فبينَ أمواجٍ من السُحبِ تزدحم، وفي رأسِ جبلٍ لا يُعصمُ فيه من الماءِ إلّا من رُحم"³

في هذا النص، يستنتي الصفدي الذين رحمهم الله تعالى بدعائهم، من الناس الذين لجؤوا إلى الجبل طلبا للنجاة من هلاك محقق، وفي ذلك إشارة إلى عظم هذا السيل وشدته، الذي لم يعد للناس ملجأ في الدنيا منه إلّا الله تعالى، فيكمل بذلك تأثره بالآية الكريمة نفسها، إذ يقول الله تعالى فيه ﴿قَالَ لَنَا عَاصِمٌ الْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِلَّا مَنْ رَحِمَ﴾⁴

ومن القصص التي تأثر بها الأدباء أيضا، قصّة سيدنا يونس عليه السلام، فما ميّز هذه القصة، أنّ قوم يونس هو الوحيدون من بين الأمم الذين كشف الله تعالى عنهم العذاب في الدنيا

¹ الصفدي، ألحان السواجع. ج.1. ص 149

² سورة هود. آية (43)

³ الصفدي، ألحان السواجع. ج.1. ص 149

⁴ سورة هود. آية (43)

ولم يعذبهم بقدرته، كما فعلَ مع باقي الأمم. يقول أحد الشعراء في بركان المدينة، في معرض لجوئه إلى الله تعالى، وطلبه مغفرته:

فَقَوْمٌ يُؤْنَسَ لَمَّا آمَنُوا كُشِفَ آلِ الْعَذَابِ عَنْهُمْ وَعَمَّ الْقَوْمَ نَعْمَاءُ¹

في هذا البيت، تأثر الشاعر بمنّة الله على قوم يونس عليه السلام إذ رَأف بهم، واستجاب لدعائهم، وذلك جليًّا في سورة يونس، إذ قال تعالى: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةً آمَنَتْ فَنَفَعَهَا إِيمَانُهَا إِلَّا قَوْمٌ يُؤْنَسَ لَمَّا آمَنُوا كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ الْخِزْيِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَتَّعْنَاهُمْ إِلَىٰ حِينٍ﴾²

فقد وقف الشاعرُ موقفَ المستغيث الذي يطمعُ في كَرَمِ الله وعفوه، فيرجو أن يرفعَ الله عن المسلمين عذابهم من هذا البركان العظيم، بدعائه واستجارته.

وفي مواضع أخرى، يتأثر الصفي بقصة سيدنا موسى عليه السلام، في معجزته مع السحرة، إذ تحولت عصاه إلى ثعبان لَقَفَ ثعابينَ السحرة المسحورة، إذ قال: " وجاء البحرُ فتَلَقَّفَ ثعبانه ما أَلْقَتْهُ هَرَوَاتِ البروقِ من عصيِّ و خيوطِ السحبِ من حبال " ³

ففي هذا النص، يصوِّر الصفي البحر الذي ماجَ و هاجَ من تأثيرِ الرِّيحِ القويَّةِ والسَّيلِ العنيفِ، فغلبَ بذلك البروقِ المرعبة التي شبَّهها بالعصيِّ المؤلمة، والسحبِ الكثيفة التي شبَّهها بالحبالِ القويَّة، ويبدو في ذلك متأثراً بقوله تعالى من قصة موسى عليه السلام: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾⁴. وفي آية مشابهة أيضاً، إذ قال تعالى: ﴿فَأَلْقَىٰ مُوسَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ﴾⁵

¹ أبو شامة، الذيل على الروضتين. ص 193

² سورة يونس. آية (98)

³ الصفي، أعيان العصر، ج 1. ص 149

⁴ سورة الأعراف. آية (117)

⁵ سورة الشعراء. آية (45)

2. التناص الأدبي

تأثر الشعراء والكتّاب على مرّ العصور بعضهم ببعض، فكانوا يضمّنون أدبهم شيئاً من نصوص غيرهم بطرقٍ متعدّدة، ما لفتَ نظر النقاد إلى هذه الظاهرة وأطلقوا عليها مصطلحاتٍ كثيرة.

ومن الأدباء من ضمّن نصّه قطعةً كاملةً من نصٍّ لأديبٍ آخر، دون إضافة أو تغيير، وقد وردت هذه الظاهرة في أدب الكوارث الطبيعية بشكلٍ لافتٍ في الرسائل المتبادلة بين الصفيدي وبعض الأدباء، لا سيّما النصوص الشعرية. وهذا ما يُعرف بالتضمين.

ومن ذلك أنّ الصفيدي وفي رسالته التي تحدّث فيها عن طاعون عام 749هـ، يعتذر لبهاء الدين السبكي عن عدم قدرته على التنقّل بسبب الطاعون، فاستخدم بيت المتنبي:

مَا كُلُّ مَا يَتَمَنَّى الْمَرءُ يُدْرِكُهُ تَجْرِي الرِّيحُ بِمَا لَا تَشْتَهِي السُّفُنُ¹

فعلى الرغم من إيراد السبكي العديد من أبيات الشعر التي جرت على لسانه في رسائل متعدّدة له، إلّا أنّه ضمّن البيت السابق الذي يعرضُ فيه المتنبي حكمته في الحياة، فالإنسان لا يحصل على كلّ ما يريده ويطمح للحصول عليه من الحياة، وكذلك حال الناس خلال فترة الطاعون، فالمرض كالريح التي منعت السفينة من إكمال سفرها.

ويستعير القاضي بدر الدين الغزيّ في تلّوج 752هـ بدمشق، بيتاً لابن المعتز، فيقول:

يَوْمٌ كَانَ سَمَاءَهُ حُجِبَتْ بِأَجْنَحَةِ الْفَوَاحِشِ²

فالقاضي يرى أنّ سماء مدينته سوداء، فلونها الطبيعي لا يكاد يظهر، لذا فهو لا يجد بيتاً يعبر عن هذه الصورة أكثر من بيت ابن المعتز، الذي نظّمه في المطر.

¹ المتنبي: الديوان، اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي، ط3، دار المعرفة، بيروت، 2008. ص360. الصفيدي،

ألحان السواج، ج1. ص110

² الثعالبي، أبو المنصور عبد الملك بن إسماعيل: من غاب عنه المطر. تحقيق يونس أحمد السامرائي. ط1. بيروت: عالم

الكتب. 1994. ص130. الصفيدي، ألحان السواج. ج2. ص26

و قد يكون التناص في تضمين نصف أو ربع بيت، بما يسمّى الإيداع¹، ففي رسالة للصفدي عن المطر والسيل، يختارُ الصفدي أن يضمّن رسالته صدرَ بيت لابن هانئ الأندلسي، وهو:

أُولُو دَمْعٍ هَذَا الْغَيْثُ أَمْ نَقَطٌ؟²

في هذا البيت يمدح ابن هانئ الخليفة المعزّ لدين الله الذي انتصر على تطاول بني أمية عليه³، فيتغنّى الشاعر في مقدّمته التي جاءت في وصف الطبيعة كعادة معظم الشعراء الأندلسيين بانتصار الخليفة، فذكرَ فيها العديد من المظاهر الطبيعيّة التي تشي بقوة الطبيعة وسخّطها رابطاً بينها وبين صفات الخليفة، وهو المعنى نفسه الذي أراد الصفدي عكسه؛ لما فيه الطبيعة وقننذ من قوّة لا هناء في العيش معها.

ومن أنواع التناص الأدبيّ، نثر المنظوم، إذ عمد الأديب إلى تضمين نصّه النثري بيتاً أو أكثر، من خلال نثر بعض كلماته التي تدلّ عليه، وتغني نصّه الجديد في الوقت نفسه، لكنّ هذا النوع من التناص لم يكن شائعاً بشكل كبير، بل ظهر في مواضع محدّدة في هذا الأدب، منها ما كتبه ابن فضل العمري في إحدى رسائله للصفدي عن الثلوج والسيول في الشام، فيقول في البرد الشديد والثلج الغزير:

"وقد حبر المملوك بيض الصحائف، بسواد هذا الخبر"⁴

يظهر ابن فضل، متأسفاً على حال الشام من خلال استيائه من نقله هذا خبر سيولها وأمطارها، إذ إنّ رسائله الإخوانية التي يكتبها مُظهراً مشاعره فيها وبراعته في الكتابة، قد بدت غير مستحبة بالأخبار السيئة التي تردّ فيها، فهي بذلك تحمل أخباراً تصبغها بطابع السوء، متأثراً ببيت أبي تمام الشهير:

¹ انظر: ابن حجّة، خزنة الأدب. ج.2. ص.312

² وعجزُ البيت (ماكان أحسنه لو كان يلتقط) الأندلسي، ابن هانئ: ديوان ابن هانئ. اعتنى به وحققه حمّو أحمد طماس، ط1. لبنان: دار المعرفة، 2005. ص 174. الصفدي، ألحان السواجع. ج.2. ص 27

³ ابن هانئ الأندلسي، الديوان. ص 174

⁴ الصفدي، ألحان السواجع. ج.1. ص 166

بَيْضُ الصَّفَائِحِ لَا سَوْدُ الصَّحَائِفِ فِي مُتُونِهِنَّ جَلَاءُ الشُّكِّ وَالرَّيْبِ¹

ومن الأدباء الذين استخدموا هذا الأسلوب أيضا الصفدي، ومن الأمثلة على ذلك ما أورده في رده على رسالة ابن فضل، مبيّناً فيها حسن أبياته وإن حملت الأخبار السيئة، فيقول فيها: "وعيونُ محاسنها تسهر لها العيونُ وهي ملءُ جفونها هاجعة"²

يظهر الصفدي في السابق متأثراً ببيت المتنبي:

أَنَامُ مِلءَ جُفُونِي عَن شَوَارِدِهَا وَيَسْهَرُ الْخَلْقُ جَرَاهَا وَيَخْتَصِمُ³

فكما هي أبيات المتنبي تشغل قارئها بها لبلاغتها وحسنها، وكذلك الأبيات التي قالها ابن فضل في نهاية رسالته، أشغلت الصفدي ببراعة صاحبها وبلاغته، بغض النظر عن محتوى الرسالة التي جاءت فيها.

وبرزت المعارضات في أدب الكوارث الطبيعية، فقد عارض ابن قزل في قصيدته عن بركان المدينة، معلقة امرئ القيس.

ولم تكن معارضة ابن قزل لمعلقة امرئ القيس معارضة صريحة؛ وهي "أن توافق القصيدة المتأخرة القصيدة المتقدمة في وزنها وقافيتها، وأن يكون الغرض منهما واحداً أو متماثلاً، بحيث تكون القصيدة المتأخرة صدىً واضحاً للقصيدة القديمة بدافع الإعجاب"⁴، فالظرف الذي كان ابن قزل يعايشه في أثناء ذلك البركان العظيم، لم يكن ليتوافق مع رغبته في المعارضة لأجل المعارضة؛ إعجاباً بمعلقة امرئ القيس التي ذاع سيطها عبر الأزمان، فابن قزل وافق امرئ القيس في شكل قصيدته، أي في وزنها وقافيتها لكنه لم يوافقها في غرضها، فكانت معارضته معارضة ضمنية، وهي ما "فقدت فيها القصيدة المتأخرة أحد عناصر الشكل

¹ الطائي، حبيب بن أوس: ديوان أبي تمام، تحقيق محمد عزام، القاهرة: دار المعارف، 1994. ج.1. ص.40

² الصفدي، ألحان السواجع. ج.1. ص.167

³ المتنبي، الديوان. ص.257

⁴ السماعيل، عبد الرحمن إسماعيل: المعارضات الشعرية دراسة تاريخية نقدية. جدة: النادي الأدبي الثقافي. ط.1. 1994.

الخارجي للقصيدة القديمة، واتفقت معها بالعرض، أو العكس، ويقصد بذلك أن تتفق القصيدتان المتأخرة والمتقدمة في عناصر الشكل الخارجي، ويختلفان في الموضوع العام¹

وفي هذا الشأن، تعدُّ بعض المعارضات التي تختلف في عرضها، شكلاً من أشكال الإبداع، فالشاعر لا يبدو مقلداً لا يضع بصمته في قصيدته، بل يُدخل عدداً من المتغيرات في الموضوع، وفي الشكل الخارجي أيضاً، فبعض الشعراء " ينحونَ وجهةً مختلفةً في التصييص، تقومُ على " اختطاف" الجُمْلِ و تحويرها، بل على قلب معانيها قلباً يبدلها في صورةٍ نقضيةٍ لها"²

فابن قزل بدأ قصيدته ببيت يمدح فيه الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام، فقال:

أَلَا سَلَّمَا عَنِّي عَلَى خَيْرِ مُرْسَلٍ وَمَنْ فَضُّهُ كَالسَّيْلِ يَنْحَطُّ مِنْ عِلِّ³

وقد بدا فيه متأثراً ببيت امرئ القيس:

مَكَرٌ مَقْبَلٌ مُدْبِرٌ مَعَاً كَجَلْمُودٍ صَخْرٍ حَطَّ السَّيْلُ مِنْ عِلِّ⁴

في البيتين السابقين، يتأثر ابن قزل في مطلع قصيدته ببيت متأخر لامرئ القيس، فلم يتوافق المطلعان مع بعضهما؛ فالشاعر هنا اختار ما يتوافق مع عرضه وإحساسه، ولم يأت ببيت يشابه مطلع معلقة امرئ القيس.

إذ صورَّ الشاعر فضلَ سيِّدنا محمد صلى الله عليه وسلّم على الناس عند حاجتهم، بالسيل السريع العظيم عندما ينزلُ من مكانٍ مرتفعٍ إلى مكانٍ منخفض، وقرّنه بصورة امرئ القيس الذي شبّه سرعة فرسه بالحجرِ الضخم، عندما يهبطُ من مكانٍ مرتفعٍ إلى مكانٍ منخفض.

¹ المرجع السابق. ص 19، 20

² داغر، شربل: *التناص سبيلاً إلى دراسة النص الشعري وغيره*، مجلة فصول. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. مج12. 1997 / 140

³ ابن قزل، الديوان. ص336

⁴ امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس. اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي، ط3، دار المعرفة، بيروت، لبنان، 2000م. ص54

ويبدو الشاعر في مطلع قصيدته متأثراً بالبحر والروي للمعلّقة، فكلاهما استخدم قافية اللام، الذي يميّز بأنه حرف ذلق مطواع، يستطيع الشاعر من خلاله أن يأتي بالكلمات التي يريدها، في مواضيع مختلفة، فكلا الشعارين جاءا بكلمات تحتاج لسلاسة وبساطة وأخرى تحتاج إلى قوة وفخامة. ونظم الشاعران قصيدتهما على بحر الطويل، وهذا البحر يميّز بقدرته على التعبير عن المواضيع التي تحتاج إلى نفس طويل من الشاعر، لذا لجأ إليها كثير من الشعراء الجاهليين الذين كانوا يحتاجون للتعبير عن مكنوناتهم والإفصاح عن أغراضهم في قصائد طويلة، فالمعلقات نظمت على عدّة بحور من بينها الطويل¹، وكذلك ابن قزل الذي عارض معلّقة امرئ القيس، وأراد الإفصاح من خلالها عن شوقه للنبيّ الكريم ومدحه، فاستخدم بذلك أحد البحور الثلاث التي يستخدمها الشعراء في غرض المديح²، ثم عبّر فيها عن أثر بركان مدينة الرسول على الناس وعليه، وجاء مُدلاً على ذلك، ما أجاب به الخليل بن أحمد الفراهيدي عندما سُئل عن سبب تسمية بحر الطويل بهذا الاسم فأجاب: " لأنه طال بتمام أجزائه " ³.

وبعد المطلع تأتي مقدّمة ابن قزل المدحيّة:

وَأَشْرَفَ مَنْ شُدَّتْ إِلَيْهِ رِحَالُنَا	لِتُورِدَ هَيْمَ الشَّوْقِ أَعْدَبَ مِنْهَلِ
تَحْمَلْنَ مِنْ كُلِّ أَشْعَثِ أَغْبَرِ	فِيَا عَجَبًا مِنْ رَحْلِهَا الْمُتَحَمِّلِ!
إِلَى سَيِّدِ النَّاسِ جَاءَتْ بِعَالِي مَحَلِّهِ	وَمُعْجَزِهِ آيُ الْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ
نَبِيٍّ هَدَانَا لِلْهُدَى بِأَدَلَّةِ	فَهَمْنَا مَعَانِيهَا بِحُسْنِ التَّأْوَلِ
مُحَمَّدٍ الْمَبْعُوثِ، وَالْغِيِّ مُظْلَمِ	فَأَصْبَحَ وَجْهُ الرُّشْدِ مِثْلَ السَّنَجَنْجَلِ
وَقَوْلَا لَهُ: إِنِّي إِلَيْكَ لَشَيْقِ	عَسَى اللَّهُ يُدْنِي مِنْ مَحَلِّكَ مَحْمَلِي ⁴

في هذه المقدّمة، يمدح ابن قزل الرسول الكريم، فيطلب من صديقيه المتخيلين أن يسلموا له على النبيّ صلى الله عليه وسلم في مدينته، وهو بذلك يشابه عادة الشعراء القدماء في تخيل خليلين يحاورهما، وقد بدا ذلك في مطلع المعلّقة (قفا) ومطلع قصيدة ابن قزل (سلاًما)، ويذكر

¹ أنيس، إبراهيم: موسيقى الشعر. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. 1978. ص 177

² المرجع السابق. ص 178

³ القيرواني، العمدة. ج. 1. ص 143

⁴ ابن قزل، الديوان. ص 336

الشاعر معجزة النبي الكريم بالقرآن العظيم الذي جاء هدىً للناس، ويذكر شوقه وحنينه للقائه، وتأتي كل الأبيات السابقة على الروي نفسه دون اختلال فيه.

على أن مقدمة المعلّقة كانت غزليّة كما هو معروف، وبذا تختلف المقدّمتان عن بعضهما، وتأتي مقدّمة ابن قزل معبّرةً عن غرض القصيدة، لذا فمدحُ النبيّ عليه السلام يتوافق مع مضمونها، كما هو الغزل متوافق مع عادة الشعراء الجاهليين.

وتوافق الجزء الأخير من قصيدة ابن قزل، مع مقدمة امرئ القيس، من حيث بثّ الشوق الحنين، ففي أبيات قصيدة ابن قزل، يعود الشاعر ليبتّ حنينه وشوقه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، ورغبته في الوصول إلى المدينة المنورة التي فيها أثرُ النبيّ الكريم، فيبدأ بما انتهى به، ويبدو الشاعر معارضا قصيدة امرئ القيس معارضة لفظيّة أيضا، إذ استعارَ عددا من ألفاظه التي استخدمها للتعبير عن حنينه وشوقه لمحبيبته، وللمكان الذي كانت فيه، فيقول:

قفا نَبِكْ ذِكْرَاهَا فَإِنَّ الَّذِي بِهَا أَجَلٌ حَبِيبٍ وَهِيَ أَشْرَفُ مَنْزِلٍ
دَخَلْتُ إِلَيْهَا مُحْرِمًا وَمُتَبَيِّئًا أَضْرَبْتُ عَنْ سِقْطِ الدَّخُولِ فَحَوْمَلٍ
مَوَاقِفَ أُمَّا تُرْبُهَا فَهِيَ عَنبرٌ وَأَمَّا كَلَاهَا فَهُوَ نَبْتُ القُرْنَفْلِ
يَفْوَحُ شَذَاهَا ثُمَّ يَعْقَبُ نَشْرَهَا لِمَا رَاوَحَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ¹

ويبدو في هذه الأبيات معارضا لأبيات امرئ القيس التي يقول فيها:

قفا نَبِكْ مِنْ ذِكْرَى حَبِيبٍ، وَمَنْزِلٍ بِسِقْطِ اللّوى بَيْنَ الدَّخُولِ، فَحَوْمَلٍ
إِذَا قَامَتَا تَضَوَّعَ المِسْكَ مِنْهُمَا نَسِيمَ الصَّبَا جَاءَتْ بِرِيَا القُرْنَفْلِ
فَتَوَضَّحَ فَالمِقْرَاةِ لَمْ يَعْفُ رَسْمُهَا لِمَا نَسَجَتْهَا مِنْ جَنُوبٍ وَشَمَالٍ²

فابن قزل يطلب إلى الراحلين المتخيلين إلى المدينة المنورة أن يقفا لبكائها، وهو الطلب نفسه الذي يطلبه امرؤ القيس من صديقيه المتخيلين في رحلته عندما فاجأته الأطلال. لكن حبيب ابن قزل يختلف عن حبيب امرئ القيس - وشتان بينهما - فابن قزل يبكي الرسول الكريم صلي

¹ ابن قزل، الديوان. ص 338 - 339

² امرؤ القيس، الديوان. ص 21 - 25 - 22

الله عليه وسلم، الذي كان سكن في المدينة المنورة و دُفِنَ فيها، أمّا حبيبة امرئ القيس، فهي ابنة عمّه فاطمة أو عنيزة، التي نأت عنه في موقعة دارة جُلُجُل، وهي الدافع الرئيس لنظم الشاعر هذه المعلّقة، كما أشار بعضهم¹، إضافة لكون الوقوف على الأطلال عادة الشعراء الجاهليين في النظم.

وبعد ذلك يركّز ابن قزل على المكان، إذ وصف دخوله إلى المدينة المنورة مُحرمًا، ملبيًا دعوة الله إليها، مبعداً فكره عن الذهاب لمواضع أخرى، كالدخول وحومل، وهما اسماء موضعين في نجد. ونجدُ الصورة المعاكسة في بيت امرئ القيس الذي يطلب اقتفاء أثر الحبيب في هذين الموضعين.

وفي بيت ابن قزل الثالث، يقرن الشاعر بين صورتين، ففي معرض حديثه عن فضل المدينة يصوّرُ رائحة ترابها بالعنبر ورائحة كلاها برائحة نبات القرنفل، أمّا امرؤ القيس فاستخدم رائحة القرنفل الجميلة لوصف حبيبته أم رباب وأم الحويرث عندما تقومان.² وفي كلا الصورتين يركّز الشاعر على أثر الرائحة الجميلة لما أراد إبراز حبه له.

وفي البيت الرابع، يكمل ابن قزل حديثه عن تأثير رائحة القرنفل التي تفوح من مدينة الرسول الكريم، فتنتشر مهما تغيّر اتجاه الريح، دون أن يذهب أثرها، وذلك تعبيراً منه عن فضل المدينة. أمّا امرؤ القيس فإنه يركّزُ في بيته الأخير عن أثر الرَسْم، وهو " ما لَصَقَ بالأرض من آثار الدار مثل البعر والرماد وغيرها "³، من أنه لم يتغيّر شكله مهما تغيّرت الريح عليه

وتظهر في القصيدة معارضات لفظية أخرى، يستعير الشاعر من خلالها عبارات لامرئ القيس، يعبر فيها عن مشاعره، لتأثره بما رآه من نتائج البركان على الناس، وصورة النار المرعبة فيقول:

¹ انظر: الس امرؤ القيس، الديوان. ص 14

² انظر: المصدر السابق. ص 25

³. المصدر السابق. ص 2 2

جَزَعْتُ فَقَامَ النَّاسُ حَوْلِي وَأَقْبَلُوا يَقُولُونَ: لَا تَهْلِكُ أَسَى وَتَجَمَّلُ¹

في هذا البيت، يظهر ابن قزل متمازجاً مع بيت امرئ القيس:

وَقُوفاً بِهَا صَحْبِي عَلَيَّ مَطِيَّهِمْ يَقُولُونَ: لَا تَهْلِكُ أَسَى وَتَجَمَّلُ²

ففي بيت ابن قزل، يظهر الشاعر جزعاً مما يراه من أهوال سببتها النار في المدينة المنورة، جعلت الناس يطلبون إليه أن يتحلّى بالصبر كي لا يهلك من البؤس و الحزن. وكذا الأمر مع امرئ القيس، الذي يظهر حزيناً بانساً، الذي يصور فيه وقوفه على أطلال المحبوبة التي عفت، ما حدا بصاحبيه المتخيلين أن يطلبوا إليه الطلب نفسه، وهو التحلّي بالصبر. فيمازجُ ابن قزل في هذا البيت حالةً بحالة.

يظهر مما سبق، أنّ معظم أبيات ابن قزل، تأثرت بمعلقة امرئ القيس، جاءت لفظية في المقام الأول، فالشاعر يستعير بعض الكلمات أو العبارات ليعبر عن مشاعر أو أحداث احتاج فيها إلى كلمات وتعابير قوية، استعارها من حامل لواء شعراء الجاهلية، ليفصح عن مكوناته، فكلُّ عبرٍ عما يشغله من ألم الفرقة، و طلبُ الصبر على المحنة.

وبرزت بضع أبيات، جاءت فيها المعارضة بالصورة دون تأثر باللفظ، ومنها قول ابن

قزل:

وَهَبَّتْ سَمُومٌ كَالْحَمِيمِ فَأَدْبَاتُ مِنْ الْبَاسِقَاتِ الشُّمِّ كُلِّ مُذَلِّ
وَأَبَدَتْ مِنْ الْآيَاتِ كُلِّ عَجِيْبَةٍ وَزَلْزَلَتْ الْأَرْضُونَ أَيُّ تَزَلُّزِ³

ويظهر الشاعر في هذه البيتين معارضا لبيت امرئ القيس:

وَتِيْمَاءٌ لَمْ يَتْرُكْ بِهَا جِدْعَ نَخْلَةٍ وَلَا أُطْمَأِ إِلَى مَشِيدٍ بَجْدَلِ⁴

¹ ابن قزل، الديوان. ص 336

² امرؤ القيس، الديوان. ص 24

³ ابن قزل، الديوان. ص 338

⁴ امرؤ القيس، الديوان. ص 66

في بيت أن قزل، يصور الشاعر كيف جاءت أثر كارثة البركان في الأشجار العالية فطالتها في عليائها حتى ذبلت بفعل ريح البركان شديدة الحرارة، وأن هذا البركان قد أحدث هزة في الأرض شملت كل ما عليها، وكذا سيل امرئ القيس، فقد طال أشجار النخيل العالية، وكل ما على قرية تيما من الأبنية والعمائر العالية.

وتأثر الأدباء أيضا بأسماء كتب أدبية معروفة، فاستدعوها في نصوصهم للتعبير عن مضامينهم، ومن ذلك استدعاء ابن الوردى لكتاب كليلة ودمنة، في وصف حال مدينة منبج في أثناء زلزلة 744هـ، يقول فيها: "أصبحت دمنةً وكانت الألسنُ عن وصفها كليلة" ¹

في هذه العبارة، يصف ابن الوردى حال منبج بأنها أصبحت أثراً لا حياة فيها، حتى غدت الألسن متعبة وعاجزة عن وصفها، واستخدم للتعبير عن ذلك لفظتي (كليلة ودمنة) ما زاد وصفه جمالاً وقوة.

ومن مظاهر التناص الأدبي في أدب الكوارث الطبيعية، استحضار الأمثال الشعبية، وتوظيفها في خدمة المعاني التي يعبر عنها الشاعر، ومن ذلك قول ابن الوردى في وصف طاعون حلب على لسان الطاعون نفسه الذي لم يدخل بعض المناطق كمدینتي شيزر و حارم، وذلك في معرض نقد الكاتب لأهل تلك المناطق، إذ إنهما من المناطق التي لم يدخلها الوباء، فهما بنظره رديتان بسكانهما، يقول: " فالأمكنة الرديّة تصحُّ في الأزمنةِ الوبیّة " ²

فيختارُ ابن الوردی هذا المثل ليعبرُ رأيه بالمناطق التي لم يصلها الطاعون، إذ تعدُّ الأمثال طريقة قريبة للقارئ والسامع في توصيل الفكرة التي نريدها.

¹ ابن الوردی، الديوان. ص 153

² المصدر السابق. ص 90. رائد ، عبد الرحيم، رسالة " النبا عن الوباء " لزين الدين ابن الوردی ت(749 هـ) دراسة نقدية.ص 1513

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً، ما ضمّنه ابن عبد الظاهر مقامته عن زلزلة 702هـ، يقول في وقّع الزلزلة على المدن: "وأخذها أخذَ عزيزٍ مقتدرٍ وأنتها من مأمّنها، وكم أتى من مأمّنه الحذر" ¹

يورد الكاتب المثل (من مأمّنه يؤتى الحذر)²، للتدليل على اجتياح الزلزلة لمدين ومواقع عدّة، حتّى المعروف منه بالحصانة.

- استخدام مصطلحات العلوم

استخدم بعض الأدباء مصطلحات بعض العلوم التي اهتمّ بها الدارسون والباحثون، ووضعو لها أسساً ومعايير ونظريات، وهو أمرٌ شاع في نصوص أدباء هذا العصر.

ومن المصطلحات العلمية ما يتعلّق بعلم اللغة والنحو، فاستخدم ابن الوردي بعض مصطلحاته ليصف أثر سيلٍ بعلبك الناتج عن الشتاء الصاخب بكلّ ظواهره في أبيات له في هذا المضمون:

سَيْلٌ طَغَى فِي بَعْلَبَكٍ وَرَاعِدٌ وَلَهَيْبُ نَارٍ ثَارٍ لِلتَّغْذِيبِ
فَلَنْ تَرْكَبَ ثُمَّ مَارَجَ سَوْرَهَا فَلِبَعْلَبَكِ الْمَرْجُ فِي التَّرْكِيبِ³

في البيتين السابقين، يستخدم الشاعر أسلوب التركيب المزجيّ، وهو واضح في اسم (بعلبك)، فيستخدم المصطلحات الخاصّة بهذه الظاهرة (المزج والتركيب)⁴، وذلك تماشياً مع المضمون الذي قدّمه، فسيل بعلبك كان صاحب برودة من أثر المطر والتلج، وصاحب حرارة مجازيّة من جرّاء ما فعله بالناس، فبعلبك كان اسماً على مسمّى، من حيث مزجه لشيئين، وتركيبهما كأنهما شيء واحد.

¹ السيوطي، كشف الصلصلة. ص 53

² الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري: مجمع الأمثال. حققه محمد محيي الدين عبد الحميد. ط2. بيروت: دار المعرفة. 1959. ج 2. ص 310

³ ابن الوردي، الديوان. ص. 484

⁴ هناء سبيناتي، صورة المجتمع في الشعر المملوكي. ص 50

وأورد الأدباء مصطلحات النحو، ومن ذلك ما أبدع ابن الوردي فيه، في أثناء تصوير ما فعلته زلزلة 744هـ بحلب، يقول في ما حلّ بجامعها: "وتعلّمت منارته باب الإمالة و تحريك الساكن، فلولا بركة النداء لرُخّمت، ولكنّ الله سلّم جمعها فسلمت، انتفع تأنيثها بشرف التذكير، وسلّم جمعها الصحيح من التفسير"¹

يورد ابن الوردي فيما سبق، عشر مصطلحات نحوية، وهي: باب الإمالة، تحريك الساكن، النداء، الترخيم، التأنيث، التذكير، سلّم جمعها (الجمع السالم)، الصحيح، التفسير. ثمّ يوظّف هذه المصطلحات ليعكس مضموناً يصوّر ميلان منارة المسجد، وانزياح أحجاره وأثاثه وما هو ساكن من مكانه، ورحمة الله في أنّ المجتمعين تحت المنارة سلّموا ولم يُصيبهم أذى، فانتفعت بذكر الله تعالى فيها، وسلمت صحيحةً من غير تكسير. وفي بعض الأحيان ينساق الأدباء في توظيف المصطلحات العلمية في غير موضع في النص الأدبي الواحد أو في عدّة نصوص بشكلٍ مبالغٍ فيه، "فمن العلماء طائفةٌ استغرق حبّ النحو والبلاغة قبلها، وملاً فكرها فأدّاها إلى التقعّر في الألفاظ، ولازمة حوشيّ اللغة، بحيث خاطب من لا يفهمه"²

ويكثر ابن الوردي على سبيل المثال من هذا النوع من المصطلحات النحوية فيورد في أثر الزلزلة أيضاً ما كان على البيوت: "وجاورت دوراً مرفوعةً فخفضتها على الجوار"³.

فيوظّف مصطلحات كالرفع والخفض على الجوار، ليعكس أثر الزلزلة المرعبة التي كانت تهدم البيوت وما يجاورها، فتحدث فراغاً جغرافياً في المنطقة المنكوبة.

واستخدم الأدباء أيضاً مصطلحات في علم البلاغة، جعلوها ضمن نصوصهم، و من ذلك ما أورده أحد الشعراء في بيت شعريّ يصف زلزلة 702هـ:

مجازٌ حقيقتُها فاعبروا ولا تعمروها هوئوها تهن 4

¹ ابن الوردي، الديوان. ص 151. انظر أيضاً: سبيناتي، صورة المجتمع في الشعر المملوكي. ص 151.

² السبكي، معيد النعم ومبيد النقم. ص 76. انظر أيضاً: رائد عبد الرحيم، رسالة "النبأ عن الوبا" لزين الدين ابن الوردي ت (749هـ) دراسة نقدية. ص 1514

³ ابن الوردي، الديوان. ص 152

⁴ الصفي، أعيان العصر، ج 4. 376

فالشاعر هنا يستخدم مصطلحين بلاغيين هما: المجاز و الحقيقة، فوصف الكارثة بالمجاز رغم حقيقتها في دعوة منه للتهوين من أثرها على الناس رغم فداحته.

ويستخدم ابن الوردي في رسالته في الزلزلة نفسها، مصطلحات في النقد شاعت في العصر المملوكي، وهي الطرد والعكس، و هو قراءة النصّ الأدبي على وجوه مختلفة، وقد برع في ذلك أدباء العصرين الأيوبي و المملوكي.¹

يقول: " و نعوذُ بالله من بلاءٍ بلا أجر، وما حال من مني بالعكسِ والطرْدِ "²

وأورد الأدباء أيضاً مصطلحات تتعلّق بالجانب الإملائي، فمثلاً يستخدم الصفدي علامات الترقيم، مثل : النقط والخط، حين يستعيد بالله من شرّ المطر والسيّل، فيقول: "والاستعانةُ بالله على هذه الشرورِ التي اتّصلتْ نُقطُ خطّها "³.

فالصفدي هنا يوردُ صورةً لأثر الكارثة وكأنها مجموعة من الشرور التي تجمعت على شكل نقاطٍ، واتّصلت ببعضها لتكوّن خطأً فادح الأثر، ولا غرابة في استخدام الصفدي لهذين المصطلحين، فهو كاتب وأديب، فهو خير من يستخدم علامات الترقيم، متأثراً بها في مضمون كتابته.

ويستخدمُ الأدباء أيضاً مصطلحات مذهبيّة، ومن ذلك ما أورده ابن الوردي في رسالته عن الطاعون، يقول: " وشعثَ على السنّةِ والشعيّةِ، وسنّ للسنّةِ أسننتهُ شرّعاً، وشيّع في بلادِ الشيعةِ مصرعاً "⁴

يصور ابن الوردي انتشار الطاعون في بلادٍ مختلفة من العالم، واختار أن يُصنّف هذه البلاد على مذهبين، سنّة وشيعة، فهذا هو يسنُّ رمحه في بلاد السنّة، وينشرُ موته مشيعاً صرعا.

¹ انظر: ابن حجّة، خزنة الأدب. ج.2. ص.36

² ابن الوردي، الديوان. ص 150

³ الصفدي، ألحان السواجع. ج.2. ص.29

⁴ ابن الوردي، الديوان. ص 89 . انظر : عبد الرحيم، رائد ، رسالة " النبا عن الويا " لزين الدين ابن الوردي ت(749

ه) دراسة نقدية. ص 1515

- التكرار

من الأساليب التي استخدمها الأدباء في أدب الكوارث الطبيعية التكرار، ويُراد منه تكرار المتكلم " تأكيد الوصف أو المدح أو الذم أو التهويل، أو الوعيد أو الإنكار أو التوبيخ، أو الاستبعاد.. " ¹، وللتكرار أنواع مختلفة ظهرت في هذا الأدب، منها تكرار أصوات متشابهة مرات متعددة في كلمات متواليه، ومن ذلك ما قاله الصفي في سيل أصاب القاهرة سنة 746هـ:

كَمْ شَقَقَ الرَّعْدُ جَيْبًا مِنْ سَحَابِهِ وَقَلَّبَ الْبَرْقُ فِيهَا قَلْبَ مُرْتَعِدٍ
يَا لِلْعَجِيبِ قِبَابِ السُّحُبِ قَدْ وَقَفَتْ هَذَا الزَّمَانُ وَمَا قَامَتْ عَلَى عَمَدٍ ²

في البيتين السابقين، يُظهر الصفي شدة المطر في ذلك الوقت، وكان ذلك متمثلاً في قوة مظاهره الطبيعية، فاعتمد على تكرار صوت (القاف) سبع مرات في البيتين، لما يتطلبه هذا الصوت من قوة اللفظ، تعكس قوة المعنى الذي تعبر عنه هذه الألفاظ.

وفي بيت آخر كرر الصفي صوت السين ثلاث مرات في ثلاث كلمات متتابعة، يقول:

فَجَاءَ سُبَاطٌ بِسَيَاظِ السَّحَابِ إِلَى أَنْ جَلَّ الْأُفُقَ ثَوْبًا لَمْ يُخَطِّ بِبِيدٍ ³

يظهر صوت السين جلياً في البيت السابق، وذلك لما يتميز به هذا الصوت الصفي من انتشار ووقع في المتلقي، فالصفي أراد بتكرار هذا الصوت، إشعار المتلقي بوقع المطر الغزير، كما لو أنه كان سياتاً حقيقيّة.

ويكرر أدباء آخرون صيغاً معيّنة، مثل صيغ الاستفهام، ومن هؤلاء الأدباء ابن فضل الله العمري، الذي أكثر من هذا الأسلوب.

ففي رسالة ابن فضل الله العمري إلى الصفي في وصف شتاءٍ مرعب، يكرر استفهامه بأداة الاستفهام (كيف)، فيقول في مواضع متعددة من رسالته:

¹ ابن حجة، خزنة الأدب. ج.1. ص 361

² الصفي. ألحان السواجع. ج.1. ص 168

³ المصدر السابق. ج.1. ص 169

"كيف أصبح مولانا في هذا الشتاء"، "وكيف هو مع جيشه الذي أطلّ حتى مدّ مذارب غمامه"، "ككيف أنت يا سيدي في هذه الأحوال؟ وكيف أنت في مقاساة هذه الأحوال؟ وكيف رأيتَ منها ما شيبَ بتلجه نواصي الجبال؟"، "وكيف سيّدنا مع مجامر كانونٍ وشرار برقها القادح"¹

في هذه الجمل الاستفهامية المتتالية التي يوزّعها ابن فضل الله على رسالته القصيرة، يبدو بتكراره (كيف) مهتماً بالسؤال عن الصفي، فيفضي للسامع بأهميّة المسؤول عنه، فأداة الاستفهام (كيف)، تستخدم للسؤال عن الحال.

ويكرّر ابن فضل الله في أسئلته هذه الألقاب التي استخدمها لمخاطبة الصفي، فيخطابه مرّةً (مولانا) ومرّةً (سيدي) ومرّةً (سيّدنا)، ويكرّر الضمير المخاطب (أنت) مرتين، ويكرّرُها تأكيداً على اهتمامه بالسؤال عن صديقه الصفي في ذلك الطقس الصعب.

وتكرّر استخدام أدوات أخرى للاستفهام، ومن ذلك ما جاء في الرسالة التي ردّها فيها الصفي على ابن فضل الله العمري، ووصف فيها حال الشتاء والتلج، مستخدماً فيها أداة النداء (متى) التي أسبقها بحرف الجر (إلى)، فيقول:

"إلى متى قُطِنُ هذه الثلوج يُطرحُ على جباب الجبال؟ وإلى متى تُفاض دلاص² الأنهار؟ ويرشقها قوس قزح بالنبال؟ وإلى متى تشقُّ السحابُ ما لها من الحُلل والحبر؟ وإلى متى تُرسلُ خيوطُ المُنزِنِ من الجوّ وفي أطرافها على الغدران إير؟ وإلى متى تجمدُ عيونُ الغمام وتكحلّها البروق بالنار؟ وإلى متى تُتارُ هذه الفضةُ وما يرى من النجوم دينار؟ وإلى متى نحنُ نحنو على النارِ حنوّ المرضعاتِ على الفطيم؟ وإلى متى تبكي المزاريب بكاءَ الأولياءِ بغيرِ حزنٍ إذا استولوا على مالِ اليتيم؟ وإلى متى هذا البرقُ تتلوى بطونُ حيّاته؟ وتتقلّبُ حماليقُ

¹ الصفي. ألحان السواجع. ج1. ص 148 - 149

² الأرض الملساء المستوية. انظر: ابن منظور، لسان العرب. مادة دلص

العيون المحمّرة من أسود غاباته؟ وإلى متى يزمجرُ عتبُ هذه الرياحِ العاصفة؟ وإلى متى يرسلُ أعواناً تصبحُ حلاوةُ الوجوهِ بها تالفة؟¹

في الفقرة السابقة، يكرّرُ الصفدي سؤاله (إلى متى) إحدى عشرة مرّة، وسؤاله هذا يؤكدُ حرصه على معرفة زمن انتهاء هذه الكارثة التي قلبت حال الناس، مستخدماً أداة استفهامٍ للسؤال عن الزمان، أسبقها بحرف جرٍّ يفيد انتهاء الغاية الزمانية، ليشكّلا مع بعضهما عبارة استفهامية قلقة بشأن طول زمن هذه الكارثة، فعكست معاناة صاحبها، ورغبته في الخلاص.

ومن الصيغ المستخدمة أيضاً، صيغة التكرير، باستخدام (كم الخبرية)، فأدب الكوارث على ما عكسه من شدّة و معاناة، أكثر أدبائه من استخدام هذه الصيغة، ليدلّوا على حجم هذه الشدّة، ومن الأمثلة على ذلك، ما قاله ابن الوردي في الثلج:

كَمْ كَسَّرَتْ أَصْلَ تَفَّاحٍ وَكَمْ حَطَمَتْ "وَرَدًا وَعَصَتْ عَلَى الْعِنَابِ بِالزَّرْدِ"² ³

يعكسُ تكرار ابن الوردي في البيت السابق لأسلوب (كم الخبرية)، شدّة تأثير الثلج على الغطاء النباتي.

ويعكس الصفدي بدوره تأثير الثلوج على الناس الذين لم يستطيعوا لكثرتهم مغادرة مناطق سكنهم، يقول:

وَكَمْ تَضَرَّرَ بَادٍ مِنْ تَتَأْفُلِهِ وَكَمْ تَضَوَّرَ مِنْهُ سَاكِنُ الْبَادِ⁴

ومن الأمثلة على ذلك أيضاً، ما ورد على لسان أحد الشعراء، يصف سيلاً حلّ بدمشق، فيقول:

فَكَمْ مِنْ شَبَابٍ مَعَ نِسَاءٍ وَصِيبِيَةٍ وَكَمْ مِنْ دَوَابٍ قَدْ صَلَيْنَ لِنَارِهِ⁵

¹ الصفدي، ألحان السواجع. ج. 1. ص. 151

² عجز بيت اللوأء الدمشقي، صدره "وأمرت لؤلؤاً من نرجس وسقت". اللوأء، أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني : الديوان . تحقيق سامي الدهان . ط 2 . بيروت : دار صادر . 1993 . ص 84

³ ابن الوردي، الديوان. ص 186

⁴ الصفدي، ألحان السواجع. ج. 1. ص 164

⁵ الذهبي، تاريخ الإسلام. ج 49. ص 56

يعكس الشاعر في هذا البيت شدة الموت، وتركزه في فئات اجتماعية، إضافة لإهلاكه الكثير من الدواب، وذلك من خلال تكرار (كم) التي دللت على ذلك المعنى، وعكست تلك المأساة البشرية والاقتصادية.

وتكرّر في هذا الأدب، بعض الصيغ الصرفية في بعض المواضع، ومن ذلك ما ذكره ابن عبد الظاهر في مقامته في زلزلة 702هـ، التي كرّر فيها صيغة اسم الفاعل في قالب برز فيه الطباق، باستخدام الصيغة نفسها، يقول: "واستولت على الغابر والداثر والباطن والظاهر.. والصالح والطلح والغادي والرائح والجائح والجامح"¹

يظهر ممّا سبق، أنّ الكاتب أراد أن يظهر شدة أثر الزلزلة على الناس جميعاً في نشاطاتهم وسلوكياتهم المختلفة، فالزلزلة لشدتها لا تستثن أحداً.

ويعكس الصفدي قوّة الشتاء ومظاهره، من خلال تكراره لصيغة المبالغة في رسالة وجهها لابن فضل العمري، كتب له فيها: "فما لنا ولهذه السحائب السحابية، والغمام السكابة، والرعود الصخابية، والبروق اللهبية، والثلوج التي أصبحت بحصائبها² حصابة، والبرد الذي أمست إبره لغصون الجلود قطابة"³

يظهر من النص السابق، كيف كرّر الصفدي صيغة المبالغة ستّ مرات مع كلّ ظاهرة شتوية، وذلك لأنه أراد من خلالها أن يبيّن شدة هذه الظواهر.

- الأسلوب الحواريّ

ومن الأساليب المستخدمة أيضاً في أدب الكوارث الطبيعية في هذا العصر، الأسلوب الحواريّ، وقد كان بارزاً وبشكل خاص في المقطوعات الشعرية، ومن الأمثلة على ذلك، الحوار الذي دار بين ابن الوردي وصديقه، وبينه وبين الطاعون، يقول:

¹ السيوطي، كشف الصلصلة. ص 54

² ما تتأثر من دقاق الثلج والبرد. ابن منظور، لسان العرب. مادة حصب

³ الصفدي، ألحان السواجع. ج.1. ص 150

يَقُولُونَ شَمَّ الْخَلَّ مِنْ زَمَنِ الْوَبَا وَفَاقاً لِمَا قَالَ الْأَطْبَاءُ يَا خَلِّي
فَإِنْ قُلْتَ لِلطَّاعُونَ تَسْطُو عَلَى الْوَرَى يَقُولُ نَعَمْ أَسْطُو وَأَنْفُكَ فِي الْخَلِّ¹

في هذين البيتين، يبدأ ابن الوردي أسلوبه الحوارية باستخدام الفعل (يقولون) الذي يشير من خلاله إلى رواة متعددين، فيترك انطباعاً لدى القارئ بأن القصّة تحمل طابعاً شعبياً في نقل وصفة عزاها للأطباء في كيفية اتقاء شرّ العدوى من الطاعون، فيحاور الشاعر خليله في هذا الشأن، في الوقت الذي يوجّه فيه الحديث للطاعون في البيت الثاني كونه يسطو على الناس، فيردّ عليه الطاعون بالإيجاب، فهو يسطو على الناس بالمرض، وعليهم لذلك تصديق ما يروى عن وجوب شمّ الخلّ حتّى لا يفتك بهم المرض. ويظهر من خلال البيتين، تكرار كلمة (الخلّ) بدلالات مختلفة، وبتصنّع واضح.

في البيتين السابقين يبدو الطاعون ساخراً من الشاعر في إجابته، ويتكرّر طابعُ السخرية في الأسلوب الحوارية الذي يأخذ شكل المقطوعات الشعرية أيضاً، ومن ذلك ما قاله ابن المعمار في مجونه، عارضاً حواراً مع أحد الحشاشين:

قُلْتُ لِمَنْ بِالْحَشِيشِ مُشْتَعِلٌ وَيَا أَيُّهَا تَخْشَى هَذِهِ الْكِبَّةَ
فَالنَّاسُ مَاتُوا بِكِبَّةٍ ظَهَرَتْ فَقَالَ إِنِّي أَعِيشُ بِالْكَبَّةِ²

يبدأ ابن المعمار مقطوعته بالفعل (قلت) التي تمهّد لحوارٍ مع شخصيّة حدّد ملامحها بأنها شخصيّة سلبية تتعاطى الحشيش، وتبدو لا مبالية، إذ إنّ الشاعر يوجّه لها السؤال متعجباً من عدم خوفه الطاعون! فالناسُ قد ماتوا بالكبّة التي تظهرُ في جسد المصاب بالطاعون وهي تعدّ مؤشراً للموت، فيجيب الحشاش ساخراً أنّه يعيش بهذه الكبّة.

ومن الملامح المميزة في الأسلوب الحوارية أيضاً، هو استخدام الفعل المبني للمجهول، لا سيّما في الأشعار التي قيلت في بيان حالة ذات طابع سياسي، ففي عام 709هـ على سبيل المثال، توقّف النيل عن الوفاء وارتفعت الأسعار وشحّت الغلال، فضجّ الناسُ على السلطان، ما جعله يصدر أمراً بفتح السدّ للتقليل من الضيق الذي يعانون منه، لكن في النتيجة لم يصل

¹ ابن إياس، بدائع الزهور. ج.1. ق.1. ص532

² المصدر السابق. ج.1. ق.1. ص532

مستوى الماء إلى المستوى المطلوب لدى المزارعين¹، فيقول بدر الدين ابن الصاحب فيما ما جرى:

جاءوا بـرِدِجٍ وَكَذِبِ وَفَرَّحُوا قَلْبَ الْوَرَى
وَقِيلَ لِي النِّيلُ وَفَى فَقُلْتُ هَذَا مَا جَرَى²

يظهر الشاعر في هذين البيتين ساخرًا من قرار السلطان الذي أشاع الفرحة بين الناس، لكنه وصفه بالكاذب، إذ إن مستوى الماء لم يصل إلى المقياس المناسب لجريان النيل، وقد عبّر عن ذلك باستخدام الفعل (قيل)، وهو فعلٌ ماضٍ مبنيٌّ للمجهول، إذ فضّل الشاعر استخدامه على استخدام فعلٍ معلومٍ يبيّنُ شخصيّة صاحبه، الذي ردّ عليه بنفي ما أشاعت السلطة الحاكمة بين الناس.

- الأساليب الإنشائية

تضمّن أدب الكوارث الطبيعيّة بعض الأساليب الإنشائية التي برزت بشكل واضح في نصوص الأدباء، وكان لها معانٍ مختلفة للأسلوب الواحد.

ومن هذه الأساليب أسلوب الأمر، الذي خرّج في بعض المواضع عن معناه الحقيقي إلى معانٍ أخرى يحتملها لفظ الأمر ويُفهم من السياق وقرائن الأحوال³، ومن ذلك ما ورد في خطبة زلزلة عام 702هـ، إذ قال خطيبها: "واستحيوا ممّن لا تخفى عليه خافية، واعتبروا بمن هلك تحت بعد التشييد مردوماً"⁴

في هذا النص، يستخدم الخطيب فعلي الأمر (استحيوا) و(اعتبروا)، وذلك بمعنى النصح والإرشاد فالخطيب بعد حديثه عن تلك الزلزلة وآثارها، ورحمة الله بالعباد في أثناء حدوثها، يدعو الناس إلى الحياء من الذات الإلهية التي لا يخفى عليها شيء، وضرورة الاعتبار بمصير من قضى في هذه الزلزلة.

¹ المصدر السابق. ج. 1. ق. 1. ص. 424

² المصدر السابق. ج. 1. ق. 1. ص. 424

³ عتيق، عبد العزيز: علم المعاني. د. ط، دار النهضة العربيّة. بيروت. 1985. ص. 77

⁴ الدواداري، كنز الدرر. ج. 9. ص. 103

ويستخدم الخطيب المعنى نفسه باستخدام صيغة أمر أخرى وهي المصدر النائب عن فعله، ومن ذلك قوله: " التوبة التوبة عباد الله في الأيام الباقية الفانية"¹

ففي هذه العبارة، يأمر الخطيب الناس بالتوبة لله تعالى في ما تبقى لهم من أيام معدودة في حياتهم، مستخدماً المصدر (التوبة) بدلاً من (توبوا) بغرض النصح والإرشاد أيضاً، ما يدل على حرص الأدباء على التنوع في استخدام الصيغ اللغوية في نصوصهم، وما يعطي جرساً موسيقياً متنوعاً في النص الواحد.

وقد يأتي الأمر بمعنى الدعاء، لا سيما إذا كان في معرض الطلب إلى الله عز وجل، ومن ذلك ما أورده ابن الوردي في رسالته عن الطاعون، إذ قال مناجياً الله: " نجنا بجاهه من طعنات الطاعون وسلّم"²

ففي هذه العبارة، يدعو ابن الوردي الله تعالى مستخدماً صيغة الأمر، أن ينجي المسلمين من الطاعون، وأن يسلم على النبي محمد الكريم، مستجداً بجاهه ومنزلته عند الله تعالى.

ومن الأساليب الإنشائية، أسلوب الاستفهام، وأدوات الاستفهام متعدّدة، ومنها أحرف كالهزمة وهل، ومنها أسماء كبقية أدوات الاستفهام مثل: من، متى، كيف.. وغيرها من أسماء الاستفهام المعروفة.

وقد استخدم الأدباء الجمل الاستفهامية في مواضع كثيرة، فمنها ما قصد الأديب فيها التحقير، ومن ذلك ما قاله البوصيري في بركان المدينة وحادثه أخرى تزامنت معها، جاعلاً من الحديثين موضعياً موعظة وإرشاداً لليهود والنصارى الذين لم يتعظوا بما حلّ بالناس من أهوال، فيقول:

فَلَوْ أَنَّكُمْ خَلَقْتُمْ كَرِيمًا مُسَخِّمًا بِقَوْلِكُمْ لَكِنْ بَمَنْ يُمَسِّخُ الْقُرْدُ؟³

¹ الدواداري، كنز الدرر. ج.9. ص. 103

² ابن الوردي، الديوان. ص 86

³ البوصيري، ديوان البوصيري. ص 85

في هذا البيت، يُظهر الشاعر مدى ازدرائه لليهود والنصارى، الذين لم يزددهم غضبُ الله بما حلَّ إبَّان قسوةً كما ذكر في القصيدة، فلا يؤمنون ولا يعتبرون بما حصل، فهم كالكائنات الممسوخة إلى قرود، فيتساءل إن كان بعدَ القردِ مَسْخٌ أسوأَ من ذلك.

ومنها ما قصدَ الأديب به التعجّب من شيء ما، ومن الأمثلة على ذلك ما وردَ عن الصفدي في أحد رسائله واصفا المطر: "أكلُ هذا تشريعُ تشرين، وشرّة شرّه حتّى نتجرّع من أمره الأمرين؟"¹

في هذه العبارة، يتعجّب الصفدي من قوّة المطر على الأرض، وما أذاقه للناس من صعوبة العيش، فهو يصوّر المطر إنساناً شرّهاً، يعجب الناس من كثرة أكله، كما يعجب الصفدي من شدّة هطول المطر في تشرين ذلك العام.

ومن ذلك أيضاً ما أورده ابن الوردي في تلج دمشق، فالأرضُ تجمّدت من كثرة الثلج، لكنّ الثلج الغزير سخر منها وقال: "أتبردين وقد طرح قوسُ السحاب على جِبْتِكِ قَطْنَا"² يشخص ابن الوردي الثلج الذي نزل بكثافة فأضرَّ بالأرض وما عليها أيّما ضرر، فيبدو رجلاً مغترباً بقوّته، فيسألُ الأرض التي تعاني من برودته، معتبراً الثلج قطناً تتدفأُ به، فيخرج الاستفهام من معناه الحقيقيّ إلى السخرية.

ومن الأساليب الخبرية النداء، وقد تنوّعت أدوات النداء التي استخدمها الأدباء في نصوصهم الأدبيّة، ومن ذلك ما جاء بمعنى التعجّب، كما يبدو في قول أحد الشعراء:

فِيهَا آيَةٌ مِنْ مُعْجِزَاتِ رَسُولٍ اللَّهُ يَعْطِلُهَا الْقَوْمُ الْأَبْبَاءُ³

في هذا البيت يتعجّب الشاعر من معجزة الله تعالى التي أنزلها على رسوله، والمتمثلة بنبوّة النبي الكريم في نار المدينة، التي تحقّقت فعلاً وكان لها من الأثر ما كان.

¹ الصفدي، ألحانُ السواجع. ج2. ص28

² ابن الوردي، الديوان. ص184

³ أبو شامة، الذيل على الروضتين. ص193

وفي موضعٍ آخر، يستخدم الشاعر أداة الاستفهام (يا) لتقريب البعيد، وذلك في معرض مناجاته الرسول الكريم محمد، صلى الله عليه وسلم، بعد واقعة بركان المدينة، فيقول:

فيا خيرَ مبعوثٍ وأكرمَ شافعٍ وأنجحَ مأمولٍ وأفضلَ مؤئلٍ¹

في هذا البيت، ينادي الشاعر على الرسول الكريم ذكرا صفاته الرفيعة، بعد أن طلب إلى صديقه المتخيّل المسافر إلى المدينة أن يُقرئه السلام، فينزل البعيد منزلة القريب لعلو مكانته وارتفاع شأنه².

وقد يستخدم أديبٌ آخر النداء للتحسّر، كما فعل ابن الوردي عندما قال في مدينة منبج: فوا أسفاً على منبج³.

في هذه العبارة، يتحسّر ابن الوردي على ما حلَّ بهذه المدينة بعد زلزلة عام 702هـ، مستخدماً الندبة، وهي أسلوب من أساليب النداء، التي تستخدم للتحسّر في العادة، فيحسّن ابن الوردي في انتقائه لأداة النداء التي تعبّر عن المعنى الذي أراد وصفه.

الصنعة البديعية

يعدُّ العصر المملوكيُّ من العصور التي شاع فيها استخدام الأدباء للصنعة البديعية، وهي من الصفات الملتصقة بأدب هذا العصر، إذ إنّه " أدبٌ مشبعٌ بالاستعراضِ البلاغيِّ وميالٌ إليه"⁴، ويعدُّ النقاد المحسنات البديعية حلية للنص وموسيقى للأذن، فإنهم يرون أيضاً " إلا نقاد الصنعة والزخرف، أن تكونَ هذه المحسنات كالحلي، يروق منها القليل، يأتي في الكلام إذا استدعاه المعنى، لا أن يقتسر ويؤتى به موضوعاً في غير مكانه، فإن فعلَ الشاعرُ ذلك كان متكلفاً لا يُحمدُ شعره"⁵

¹ ابن قزل، الديوان. ص 339

² عتيق، عبد العزيز، علم المعاني. ص 16

³ ابن الوردي، الديوان. ص 153

⁴ قلقيلة، عبده، النقد في العصر المملوكي. ص 217

⁵ بدوي، أحمد، أسس النقد الأدبي عند العرب. ص 476

وبناءً على ذلك، تميّز أدباء العصر المملوكي " بإيجاد ذوقٍ بديعيٍّ عام، سرى بقوةٍ في أوصال المجتمع في هذا العصر، وإلى إيجاد أدبٍ مشبع بالاستعراض البلاغي الذي صار غايةً في حدّ ذاته " ¹، وأدب الكوارث الطبيعيّة على اختلافِ نصوصه، وأدبائه الذي كانوا من عيون أدباء العصر المملوكي، وظّفوا البديع في نصوصهم التي تحدّثوا فيها عن الكوارث الطبيعيّة التي حصلت في عصرهم.

وقد برزت المحسنات البديعيّة بنوعها في أدب العصر الكوارث الطبيعيّة اللفظيّة والمعنويّة، ومن المحسنات البديعيّة اللفظية التي استخدمها الأدباء في نصوصهم:

الجناس

يعدّ الجناس من الفنون البديعيّة المؤثّرة في المتلقي ، لعلّ السرّ في تأثيره " ما فيه من إيهام النفس أنّ الكلمة المكرّرة ذات معنى واحد، فإذا أمعن المرء فيها النظر رأى للكلمتين معنيين مختلفين " ²، من الجناس ما يكون ضعيفاً لا يجد القارئ لتكرار الكلمة فائدة، وهناك جناسٌ مستحسنٌ يوهم القارئ أنّه لم يزد لديه فائدةً أو لم تحسّن زيادته لكنه يكون كذلك، ³ وإنّ أفضل فائدةٍ لهُ الجرسُ الموسيقيُّ الذي يضيفه إلى نظم أو نثر الأديب، والجناس يأتي على نوعين؛ جناس تامّ، وجناس ناقص أو غير تام، ويشيعُ في أدب الكوارث الطبيعيّة استخدام الجناس الناقص أكثر، فيما ينحصرُ الجناس التام في أمثلةٍ قليلةٍ جداً ومنها قولُ ابن الوردي في الوباء:

إِنَّ الْوَبَاءَ قَدْ غَلَبَا وَقَدْ بَدَا فِي حَبَابَا ⁴
فَقَالُوا لَهُ: عَلَيَّ الْوَرَى كَافٌ وَرَاءُ، قُلْتُ: وَبَا ⁵

¹ الهيب، الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء. ص 438

² قليقطة ، عبده ، النقد في العصر المملوكي. 217

³ انظر: الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز. التصحيح والتعليق علي الحواس و السيد محمد رشيد رضا. د.ط. بيروت:

دار المعرفة للطباعة للنشر، . 1978. ص 402

⁴ انظر ص 39

⁵ ابن الوردي، الديوان. ص 90

في هذين البيتين يظهر الجناس التام في كلمتي (الوبا) و (وبأ)، فهي في البيت الأول تعني الوباء أي المَرَض، وفي البيت الثاني تأتي بمعنى حرف (الباء)، إذ قام الشاعر بتبيين معنى الوباء بذكر حروفه مقطّعة، لتجتمع في كلمة (كرب) وهي المصيبة. إن هذه النمط الفني الذي جاء عليه الجناس التام أضفى على البيتين بعض التعقيد، وقد جاء بشكل لا يتوافق مع الحالة النفسية التي كان يعيشها الشاعر.

ومن الأمثلة على الجناس التام أيضا، ما أورده الصفدي في رسالة له عن الثلج: "وأقبل شباط، فما آب آب، وولّى تموز هرباً"¹

يظهر الجناس التام في كلمتي (آب، آب)، فالكلمة الأولى بمعنى رجع، والثانية بمعنى شهر آب، ويتميّز هذا الشهر بارتفاع درجات حرارته، فيقول الصفدي إن شباط عندما جاء في تلك السنة بتلوجه وبرده وعواصفه الشديدة، خيل للناس بأن عودة ذلك الشهر الحارّ غير واردة، وكأنّ ذلك البرد سيستمر دون مغادرة.

ومن الأمثلة على الجناس الناقص أو غير التام، ما أورده الصفدي أيضا في أحد أبياته التي يصف فيها طاعون عام 749هـ:

أَخْلَيْتَ أَرْضَ الشَّامِ مِنْ سُكَّانِهَا وَحَكَمْتَ يَا طَاعُونَ بِالطَّاعُوتِ²

في هذا البيت، يصوّر الشاعر ما فعله الطاعون في بلاد الشام، إذ أخلاها من سكّانها، وبدا الطاعون حاكماً فيها، يسيطر عليها بالطاعوت، ويتعمّد أن يُظهر الجناس الناقص بين كلمتي (الطاعون) و (الطاعوت)، ليظهر التقارب اللفظي بينهما، والتقارب المعنويّ أيضا، إذ جعل الطاعون رمزا للطاعوت؛ لما يفرضه من سيطرة مجحفة بحقّ الناس ما يؤدّي بالنهاية لهلاكهم. وقد جانس الشاعر بين هاتين الكلمتين، التي فرّق بينهما بحرفي النون والتاء، فجعل الكلمة الأخيرة ذات وقعٍ موسيقيّ عنيفٍ في النفس، من خلال اختيار صوت انفجاريّ هو صوت التاء،

¹ الصفدي، ألحان السواجع. ج.1. ص 167

² المصدر السابق. ج.1. ص 112

ليعبّر به عن المعنى المراد وهو حكمُ الطاعون في الناس، ما يبدو وكأنّه حكمٌ قاطع، ينتهي عنده البيت.

ومن الأمثلة أيضاً، قول الصفدي في أثر التلوج على الناس:

لَقَدْ سَكِرْنَا مِنَ الْهَمِّ الْمُبْرِحِ لَا مِنْ رَاحِ رَاحَةٍ سَاقٍ فَاتِنِ الْجِيدِ¹

يظهر الجناس في كلمتي (راح، راحة)، فاليد هي العضو الذي يمسك الكأس، الذي يُسكرُ الناس، ويذهب عقولهم، لكنّ ما يُذهب عقول الناس هو كثرة البؤس الذي سببه البرد الشديد في ذلك الشتاء.

وشاع الجناس الناقص في النثر أيضاً بشكل واضح، ومن الأمثلة على ذلك، ما أورده ابن الوردي في رسالته عن الطاعون نفسه، عن وصف دخول الطاعون في مناطق جغرافية مختلفة، فيكتب: " وقلعَ خلفاً من القلاع، ثمّ طلبَ حلب²

يظهر الجناس في هاتين الجملتين في أربع كلمات، فهو يجانس بين (قلع) و (القلاع)، و(طلب) و (حلب)، ففي الموضع الأول، يعكس ابن الوردي قدرة الطاعون على اختراق الأماكن المغلقة والعصية كالقلاع، وليس ذلك وحسب، بل إنّ الطاعون يقتلعُ الناس منها قلعا؛ دلالة على شدته. وفي الموضع الثاني يجانس بين اسم المدينة التي كثر فيها الطاعون وعم، وهي مدينة حلب، فيصوّر دخول الطاعون إليها باستخدام الفعل (طلب) وكأنّ الطاعون يقصدها بالذات ليُعمل فيها خرابه و دماره.

السجع

السجع عنصرٌ مُختلفٌ عليه بين علماء اللغة، ويحكمُ هذا الاختلاف سمةَ التكلّف التي يتبعها بعض الأدباء ، " فطائفةٌ ذمّته، وطائفةٌ مدحته، ولا وَجَهَ لذمّه، إلّا أن يدلّ على التكلّف،

¹ المصدر السابق. ج.1.ص 169. انظر أيضاً ما ورد في رسالة ابن فضل الله العمري في الفصل الثاني ص59

² ابن الوردي، الديوان. ص 90

والتكلفُ عندهم مهجور. ولذلك شكّوا في فصاحة الشاعر إذا كتَب، خيفةً أن يتكَلَّفَ استعمال الأَقلام، ويستعينَ بالنظر في الكلام، إذ لهما جزءٌ من العمل، وحظٌّ من التأليف " ¹

ويعدُّ السَّجع من أكثر المحسنات البديعية التي شاعت في نصوص الأدباء لا سيَّما النثرية، في العصر المملوكي، فهو عصر الاهتمام بالصنعة، إضافة لما يضيفه من حسّ موسيقيٍّ جميل على النص، وقد برزَّ السجع في النصوص التي تحدّثت عن أدب الكوارث الطبيعية في هذا العصر، لا سيَّما السجع المطرف، أي أنّ تختلف فواصل الكلمات المسجوعة في الوزن، وتتفق أحرف السجع. ²

ومن أمثلة السجع فيه ما وردَ في الرسائل، ومنه ما كتبه ابن الوردي في وصف أثر الطاعون في دمشق، فيقول: " فإله تعالى يُجري دمشقَ على سننّها، ويُطغي نفحاتِ نارهِ عن نفحاتِ جننّها " ³.

يستخدمُ ابن الوردي السجعَ في هاتين الجملتين اللتين تصفان حكمَ الله الذي قضى بأن تصبحَ دمشقُ التي هي رمزٌ للجمال والخضرة، رمزاً للموت وكأنَّ عليها نفحةً من النار، من جرّاء هذا الطاعون، وقد جاء هذا السجع مطرفاً.

ويستخدم ابن الوردي السجعَ في جملتين اثنتين متتابعتين لا ثالث لهما في رسالتيه عن الطاعون والزلزلة كما هو واضحٌ في المثال السابق، ليبدأ بسجعٍ جديدٍ في الجملة الثالثة، على أنّ أدباء آخرين يُكثرون من الجمل المسجوعة المتتابعة، ومنهم الصفدي، فعلى سبيل المثال، يورد الصفدي في إحدى رسائله عن المطر والسيول:

"وشهرُ رمضانَ قد بلغَ غايته، وعيدَ الفطرِ قد نصَبَ رايته، وتلا آيتَه، وطلبَ من الموسرِ والمعسرِ كفايته" ⁴

¹ الإشبيلي، إحكام صنعة الكلام. ص 227 - 228

² انظر: ابن حجّة، خزنة الأدب. ج2. ص.411

³ ابن الوردي، الديوان. ص 88

⁴ الصفدي، ألحان السواجع. ج2. ص 27

في هذه النص، يورد الصفدي احتاجه على هذا السيل، الذي جاء مع شدته في شهر رمضان المبارك، وقرب موعد العيد الذين هما رمزاً للفرح والطمأنينة، فيستخدم السجع بين جملة التي تعبّر عن حالة مقلقة لدى الناس، وهو سجع مطرف أيضاً.

ومن الأمثلة على السجع في الخطب، ما أورده خطيب زلزلة 702هـ وهو يصف لطف الله بالناس، فيقول: "إِلَّا أَنْ اللَّهَ بَلَطَفَهُ رَدَّهَا، لَمَّا مَاجَتِ الْأَرْضُ بِأَسْرَهَا، وَظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ يَوْمَ حَشْرِهَا"¹.

وعلى الرغم من شيوع هذا النوع من السجع، كونه يعطي الكاتب الحرية في اختيار الوزن الذي يريده، فقد احتوت بعض الرسائل، نوعاً آخر من السجع، هو السجع المرصع، وهو ما اتفق وزنه و قافيته²، لا سيما رسائل الصفدي³، وجاء في بعض فواصل المقامات، التي وردت في الفصل الثاني، هذا النوع من السجع.⁴

العكس

ويعني تقديم لفظ من الكلام ثم تأخيره، كقول الله تعالى "يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ"⁵.

وقد وردت هذه الزينة البديعية في مواضع قليلة، كان أكثر من عنى بها ابن الوردي وقد وردت لديه في غير، وفي رسائل مختلفة، الموضع الأول ورد في رسالته عن الطاعون ما قاله في وصف دخول المرض إلى بيت المشتغلين بالحريز: "وأخذ من دار الطراز طراز الدار"⁶

¹ الدواداري، كنز الدرر. ج.9.ص.103

² انظر: ابن حجة، خزنة الأدب. ج.2.ص.409

³ انظر ص 63

⁴ انظر ص 51

⁵ انظر: ابن حجة الحموي، خزنة الأدب. ج.2.ص.354

⁶ ابن الوردي، الديوان. ص 87. انظر أيضاً: عبد الرحيم، رائد، رسالة" النبا عن الوبا " لزين الدين بن السوردي ت

749هـ دراسة نقدية. ص 1519

والموضع الثاني في رسالته عن الزلزلة إذ قال في وصف الناس الذين لم يجدوا ما يحميهم من الكارثة حتى الملوك: " ولا جَنَّتْهُمْ¹ قناطرُ الملوك إذ صرعتهم ملوك القناطر "²

ووردت في رسالته التي خاطب فيها ابن فضل الله العمري واصفا فيها الثلوج والبرد، فأوردَ فيها بيتاً فيه مدحٌ للعمري يقول فيه:

كِتَابَةُ السِّرِّ بَلْ سِرِّ الْكِتَابَةِ مِنْ فُنُونِكُمْ وَعُلُومٍ رَاضَاهَا الطَّلَبُ³

فكتابة السرِّ أحدُ أعمالِ ابن فضل، وأراد ابن الوردي أن يضيف أمراً آخر هو جمال الكتابة التي يختصُّ بها العمريّ.

أما المحسنات البديعية المعنوية، فمنها:

الطباق

وظّف الأديباء الطباق في نصوصهم، ليعطوا معانيهم مزيداً من القوة، لما يتركه التفاوت المعنوي في ذهن المتلقي.

ومن الأمثلة على ذلك ما قاله الصفدي في حال دمشق في أثناء طاعون 749هـ، قال:

أَمَّا دِمَشْقُ فَاتَّهَاقًا قَدْ أُوحِشَتْ مِنْ بَعْدِ مَا شَهِدَ الْبَرِيَّةَ أَنْسَاهَا
تَاهَتْ بِعُجْبِ زَائِدٍ حَتَّى ضَرَبَتْ بِطَاعُونَ عَظِيمٍ نَفْسَهَا⁴

في هذين البيتين، يصوّرُ الصفدي حالتين كانت عليهما دمشق، الأولى قبل الطاعون والثانية بعدها، ويظهر الطباق في كلمتي (أوحشت) و (أنسها)، فمدينة دمشق كانت مدينة نابضة بالحياة تؤنس ساكنيها، أما بعد الطاعون، فأصبحت موحشة.

¹ بمعنى سترتهم. انظر: ابن منظور، لسان العرب. مادة جنّ.

² ابن الوردي، الديوان. ص 153

³ المصدر السابق ص 183

⁴ الصفدي، ألحان السواجع. ج.1. ص.114

ويكتب ابن فضل الله العمري إلى الصفدي في أطار وسيول دمشق عام 746هـ ، ويبيّن كيف يختلفُ حال الناس عند قدوم الأمطار من منطقة إلى أخرى ، فيقول في خبر الأنواء إنّها " تقسّمت أقساماً، وسرّت أقواماً وساعت أقواماً " ¹ .

يظهر الطباق في كلمتي " سرّت " و " ساعت " ، كاشفاً الفجوة النفسية والمادية التي تخلفها الأمطار على الناس وممتلكاتهم في مناطق مختلفة .

أمّا ابن الوردي، الذي أبدعَ في الحديث عن طاعون 749هـ، فقد صورَ في جملة قصيرة أثره الذي حصد الآلاف المؤلفة من الأرواح، عندما قال: " فأقلّ الكثرة " ²

يظهر الطباق في كلمتي (أقلّ) و (الكثرة)، ففي هذه الجملة القصرة التي لا تحوي غير هاتين الكلمتين، يعكس ابن الوردي للقارئ أنّ أعداد الموتى الكثيرة وكأنّها أضحت قليلة، وذلك لأنّ الناس اعتادوا على كثرة الموت، فأصبحوا يرونّ المئات والآلاف أعداداً بسيطة.

ومن ذلك ما أورده ابن عبد الظاهر في أثر زلزلة 702هـ، التي وصلت هزتها إلى كلّ مكان ، فلم تذر " بيتاً قديماً ولا حديثاً حتّى هدمته، واستولت على... البعيد والقريب، والبريء والمريب " ³

يصور ابن الأديب مما سبق، كيف جاءت الزلزلة على شيء، فقد طالت كلّ البيوت على اختلاف زمن بناها (قديمًا و حديثًا)، و تأثرت بها (البعيد و القريب)، وأخذت من الناس (البريء والمريب)، فما تركت أحداً، وفي استخدام ابن عبد الظاهر الطباق هنا، استطاع إظهار أثر الكارثة الكبير، وسعة انتشار دمارها.

¹ الصفدي ، ألحان السواجع ، ج 1 . ص 165

² ابن الوردي، الديوان. ص 88. عبد الرحيم، رائد : رسالة " النبا عن الوبا " لزين الدين ابن الوردي دراسة نقدية.

ص1519

³ السيوطي، كشف الصلصلة. ص 54

التورية

و هي أن يكون للكلمة الواحدة معنيان، واحدٌ قريب وهي غير مطلوب، والآخر بعيد وهو المطلوب.¹

وشاعت التورية في نصوص الأدباء بصورة كبيرة، وهذا يدلُّ على سعة معرفتهم باللغة، وذواقهم البلاغية، ومن الأمثلة على التورية، ما قيل في توقّف النيل عام 709هـ:

إِنْ كَانَ خَلْقُ نَيْلِنَا قَبْلَ الْوَفَا فَالْكَسْرُ مِنْهُ لِكُلِّ قَلْبٍ فِي الْوَرَى²

في هذا البيت، تظهر التورية في كلمة (الكسر)، فالمعنى القريب للمتقي هو الحزن الشديد بسبب عدم وفاء النيل، بدليل كلمة قلب، ولكنّ المعنى المطلوب هو انكسار النيل، أي خفض منسوبه.

وجاءت التورية في النثر أيضاً، و من ذلك ما أورده ابن الوردي في رسالته عن الطاعون داعياً ربّه: " اللهم إِنَّهُ فَاعِلٌ بِأَمْرِكَ فَارْفَعْ عَنَّا الْفَاعِلَ " ³

في هذه العبارة تأخذ لفظة (الفاعل) ذهن القارئ إلى المصطلح النحوي، بدلالة وجود (ارفع) وهو المعنى القريب غير المطلوب، أمّا المعنى المطلوب هو (الطاعون)، الذي يدعو الله أن يكفّ فعله و مصائبه عن الناس.

الصورة الفنية

تعدُّ الصورةُ الفنيّةُ عنصراً مهماً في دراسة النص الأدبي، وتتبعُ هذه الأهميّة من اسمها أولاً؛ فالصورة تعني انعكاس الحَدَثِ أو الشعور التي يريد الأديب التعبير عنه بكلِّ قدراته الإبداعية، حتّى يضع القارئ أمام المشهد الذي يراه أو يحسُّ به، كما لو كان القارئ معه،

¹ ان حجة الحموي، خزنة الأدب. ج.1. ص.39

² ابن إياس، بدائع الزهور. ج.1. ق.1. ص.425

³ ابن الوردي، الديوان. ص.87. انظر أيضاً: عبد الرحيم، رائد: رسالة " النبا عن الوبا " لزين الدين ابن الوردي دراسة نقدية. ص.1518

مستخدماً كلَّ أدواته الفنيّة، بما تحملُ الكلمةُ " الفن " من معاني الجمال الذي يعدُّ من القيم الإنسانية المطلقة، التي حاول المبدعون على اختلاف أشكال إبداعاتهم و على مرّ العصور، التعبير عنها.

و"الصورة الفنيّة لن تُغيّر من طبيعة المعنى في ذاته، إنّها لا تُغيّرُ إلّا من طريقة عرضه وكيفية تقديمه، ولكنها - بذاتها - لا يمكنُ أن تخلقَ معنى، بل إنّها يمكن أن تُحذف دون أن يتأثر الهيكلُ الذهنيُّ المجرّدُ للمعنى، الذي تحسّنه أو تزيّنه " ¹

ويعدُّ أدب الكوارث الطبيعيّة من الآداب التي تلتصق بالذهن وتثير المشاعر؛ لما فيه من مشاهد مرئية أو أخبارٍ مسموعة تمسُّ النفس، وتبعثُ فيها الشجنَ والرغبة بالتعبير عن انفعالاتها، لذا أكثرُ الأدباء من صورهم الفنيّة التي باحت بما يريدون تصويره، واعتمدوا على أساليب عليم البيان المختلفة، من تشبيهٍ واستعارةٍ وكنايةٍ وتجسيمٍ وتشخيصٍ، كعناصر لتشكيل الصورة الفنيّة.

ومن ذلك قول ابن قزل في بركان المدينة المنورة:

لها شررٌ كالبرقِ لكنَّ شهيقتها فكالرعدِ عندِ السامعِ المتأملِ ²

يستخدم الشاعر تشبيهين في هذا البيت، فيشبهه النيران المتطايرة من هذا البركان بالبرق الذي يلمع في السماء، وهذا يدلُّ على سعة الانتشار، ويشبهه الصوت الذي يصدر من هذا البركان بالرعد، لما له قوّة تأثير نفسيّة لدى الناس.

ويقول ابن الوردي، في وصف ثلوج الشام، مادحاً طريقة ابن فضل في وصفها:

بيضُ الثلوجِ قد اكتست من وصفكم ذهباً كأنّها فضّةٌ قد مسّها ذهبٌ. ³

¹ عصفور، جابر: الصورة الفنيّة. ط2. دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت. 1983. ص323

² ابن قزل، الديوان. ص337

³ ابن الوردي، الديوان. ص 182

يشبه الشاعر الثلوج البيضاء التي نزلت بدمشق، بالفضة الممزوجة بشيء من الذهب، وذلك لأنه الذهب أعلى من الفضة، وهذا يزيد من بهاء الثلج وإن زادت كميته عن احتمال الناس، وذلك لأن ابن فضل تحدث عنه.

وفي مواضع أخرى، يستخدم الأدباء تشبيهات عجيبة، ومن ذلك الصفدي في المريض بالطاعون: " حتى جاء بكبة تحت الإبط، كأنها عملة السارق"¹

فقد شبه الصفدي الكبة التي تظهر تحت إبط المريض بالطاعون بالعملة النقدية التي يسرقها اللص، وكلاهما غريبتان عن حاملهما ولا تخصانه، ووجودهما يشكّل خطراً عليهما.

وتبرز في مظاهر أخرى، كالصورة المقلوبة²، ومن الأمثلة على ذلك، ما أورده الصفدي في رسالته التي ردّ فيها على ابن فضل العمري في حال السيول والأمطار، إذ يقول في معرض مدحه له في نهاية الرسالة: "وإن كانت العواصف تتشبه ببأسه فيا طول ما تفلح"³

فيصور الصفدي العواصف ذلك الشتاء في قوتها وشدتها، ببأس القاضي ابن فضل العمري في شدته وقوته، ولقد اعتاد الأدباء على تشبيه قوة البأس بقوة الظواهر الطبيعية على سبيل المثال، لكن الصفدي هنا يستخدم العكس، ليظهر مدى شدة بأس ابن فضل العمري، بعد عرض قوة هذه العواصف وأثرها في الرسالة.

ثم يستخدم صورة مقلوبة أخرى، ومثال ذلك قوله: " وإن كانت البروق تحاكي ذهنه المتسرع فيا طول ما تتألق "⁴

فيصور في عبارته هذه البروق في سرعة التماعها في السماء، بذهن القاضي العمري في سرعة فطنته، وفي ذلك مدح كبير لابن فضل الله، في أثناء تلك الكارثة الجوية.

¹ الصفدي، ألحان السواج. ج.1. ص.114

² وهو شكل من أشكال الطرد والعكس بأن يكون المشبه مكان المشبه به والمشبه به مكان المشبه. انظر: ابن الأثير، المثل السائر. ج.1. ص.400

³ الصفدي، ألحان السواج. ج.1. ص.151

⁴ المصدر السابق، ج.1. ص.151 - 152

أما الاستعارة، فهي أفضل المجاز كما رأى القاضي الجرجاني¹، فالأديب يصور ما يريد دون حاجة لاستخدام أدوات التشبيه، فيندمج المشبه والمشبه به في صورة متجانسة.

ومن ذلك قول الصفدي في أثناء وجوده بالشام، وقد تساقط عليها من الثلوج الشيء الكثير، حتى منعت من التنقل:

تَبَّأَ لَهَا مِنْ بِلْدَةِ لَا أَرَى فِيهَا مَقَامِي وَاضِحَ النَّهْجِ
لَأَنَّهَا فِي وَجْهِ سُكَّانِهَا وَأَهْلِهَا تَبْصُقُ بِالتَّلْجِ²

تظهر الاستعارة المكنية واضحة في البيت الثاني، فالشاعر بصور الثل بالإنسان الذي يبصق، فيذكر المشبه، ويحذف المشبه به، ويبقى على شيء من لوازمه وهو (يبصق)، وقد استخدم الصفدي هذه الصورة، ليعكس الحالة السلبية التي يعيشها الناس، فكلماً أرادوا التنقل، واجهوا من يمنعم رغماً عنهم.

ويصور ابن الوردي الطاعون بالجيش، الذي يغزو البلاد، وذلك في قوله: " هجم على بلاد العجم " ³.

تعبّر الاستعارة المكنية في الجملة السابق، عن قوة الطاعون وسعة انتشاره، فالجيش الذي يهاجم بلاداً بأكملها، هو جيش ذو سطوة وقوة شديتين.

ووظف الأدباء الاستعارة التصريحية كذلك، ومن ذلك قول ابن قزل:

طَفَى النَّارَ نَوْراً مِنْ ضَرِيحِكَ سَاطِعٌ فَعَادَتْ سَلاماً لَا تَضُرُّ بِمِصْطَلِي⁴

إذ صور الشاعر منزلة الرسول الكريم وأثرها في الناس بالنور، فصرح بالمشبه به، لأنه يدل على السلام والطمأنينة والحق الذي جاء به رسولنا الكريم، وهو ما أطفأ النار.

¹ الجرجاني: دلائل الإعجاز. ص 335

² الصفدي، ألحان السواجع، ج1. ص 163

³ ابن الوردي، الديوان. ص 87

⁴ ابن قزل، الديوان. ص 338

واستخدم الأدباء الكناية أيضا، وكانت في العادة تستخدم للدلالة على شدة تأثير الكارثة.

ومن ذلك، أنّ نار المدينة المنورة، كانت شديدة لدرجة أنّ الناس لم يعودوا يروا النجوم

في السماء. فيقول:

وَعَابَتْ نُجُومُ الْجَوِّ قَبْلَ غُرُوبِهَا وَكَدَّرَهَا دَوْرُ الدُّخَانِ الْمُسْتَسِيلِ¹

ومن الأمثلة على ذلك أيضا، ما كتبه الصفدي عن الثلوج، إنّها: "زادت عرض الأرض

طولا"²، وذلك كنايةً عن كمية الثلوج الكبيرة التي هطلت ذلك الشتاء.

وفي الرسالة نفسها، يكتفي الصفدي عن شدة كثافة الثلوج، التي حجبت الرؤيا الواضحة

عن الناس، فيقول: " جعلت صحبحات النواظر حولا "³.

وكتّى ابن الوردي عن شدة الموت، في أثناء انتشار طاعون 749 هـ في مصر، فيقول:

"سكن حركة الاسكندرية"⁴.

فالاسكندرية فرغت من أهلها أو كادت، فلم يعد هناك أحد يمشي في طرقاتها، من شدة

الموت الذي فتك بأهلها.

وتنوّعت المصادر التي استقى منها الأدباء صورهم الفنيّة، ومن أهمّ هذه المصادر،

الطبيعة بشقيها الصامت والمتحرك، فقد برزت في هذا الأدب بشكل لافت، كمصدر رئيس في

تشكيل الصورة الفنيّة، فالطبيعة الشديدة القويّة هي التي ولّدت في ذهن الأديب الصور الفنيّة

لعكس أثرها، وهي بقوتها وجبروتها قادرة على تصوير مشاهدتها، من خلال التمازج الفنيّ بين

مكوناتها،

¹ ابن قزل، الديوان. ص 337

² الصفدي، ألحان السواجع. ج 1. ص 161

³ المصدر السابق. ج 1. ص 161

⁴ ابن الوردي، الديوان. ص 87

وقد وردَ في أثناء الحديث عن التشبيه والاستعارة، صورٌ متعدّدة للطبيعة الصامتة، مثل البرق والرعد والنور، ومن الأمثلة على الطبيعة الصامتة أيضاً، تصوير الشمس بالليل،

يقول ابن قزل في أثر دخان بركان المدينة:

وأصبحَ وجهُ الشَّمسِ كالليلِ كاسفاً وبردُ الدُّجى في ظُلْمَةٍ ليسَ تنجلي¹

فالشمس المشرقة التي تعدّ مصدر الضوء في هذا الكون، قد أصبحت مظلماً، وكذلك البدر المنير.

وها هو ابن الوردي يُعبّر من خلال الطبيعة الصامتة، عن قوّة طاعون عام 749هـ، بالربط بينه وبين الطوفان العظيم، الذي لا رادّ له:

ألا إنَّ هذا الويا قد سباً وقد كان يُرسلُ طوفانهُ²

واستخدم الأدباء العديد من الصور، التي استعانوا فيها بالطبيعة المتحرّكة، ومن ذلك تصوير الطاعون بالثعبان، يقول الصفي: "وهذا الذي جلب لأهل حلب الانزعاج، استرسل ثعبانه وانساب"³

فالثعبان يعدّ من الزواحف الخطيرة و السامة، والذي يحترس منه الناس، ويتوجّسون من سماعهم باقترابه.

ويلاحظ استخدام ابن الوردي للفعل (استرسل)، ما يبرز حرّيّة الحركة (الانتشار) لهذا المرّض، كما هو الثعبان.

ومن مظاهر الطبيعة المتحرّكة، قول الصفي في رسالته له في وصف الثلج والبرّد:

"وأقبلت السُّحُبُ بخيوطِ أنوائها وتقطّعت الأسباب"⁴

¹ ابن قزل، الديوان. ص 337

² ابن الوردي، الديوان. ص 94

³ المصدر السابق. ص 94

⁴ الصفي، ألحان السواجع. ج.1. ص 159

في هذه العبارة يربط الكاتب بين السحب وهي تقترب من المدينة لتُحَكَمَ عليها بَردها،
والعنكبوت التي تُقْبَلُ على الفريسة لتتنسج حولها خيوطها

وتبرز (الجمال) كصورة عند ابن الوردي، بما فيها من عظمة، وما تتصف به من سيرٍ
في قوافل، لتعبّر عن كثرة السحب في دمشق في أثناء سيلها، فيقول:

إِبِلُ السَّحَابِ هَيَّجٌ فِي جَوْهَا وَغَمَامُهَا كَالْقَوْسِ طَارَ نَدِيفُهُ¹

ويصور ابن الوردي في البيت السابق، غمام ذلك الشتاء بما يرسله من تلوجٍ شديدة،
بالقوس، وهو أحد المعدات الحربية، الذي يتميز بقوته وسرعته في الوصول إلى هدفه، وهو من
خصائص التصوير التي استخدمها الأدباء لإبراز صورهم، فاستخدموا متعلقات الحروب من
جيوشٍ ومعداتٍ وأسلحة.

ومن ذلك تصوير ابن فضل العمري ما يفعله الرعدُ القويّ من أثر من المزن لزيادة قوّة
انسكابها بالنبل، وتصوير تلقّي الأرض لهذه الضربات بالدرع، يقول:

يَرْمِي رَوَاشِقَ نَبْلِ صَوْبٍ سَاكِبَةٍ فَتَتَّقِيهِ دُرُوعُ الرُّوَضِ بِالزَّرْدِ²

ومثله يقول الصفي مصوراً الانهمار الشديد للتلوج بالنبل:

فَكَمْ رَمَى نَبْلٍ وَبَلِّ بَاتٍ يَرِثُفُنَا وَكَأَيْسَ تَمَنَعُهُ مَوْصُونَةُ الزَّرْدِ³

ويصور ابن فضل التلوج بالجيش لقوته وكثرته وجبروته بالناس، يقول:

"وكيفَ هو مع جيشه الذي ما أطلَّ حتّى مدَّ مضارب غمامه"⁴

¹ ابن الوردي، الديوان. ص 184

² الصفي، ألحان السواج. ج.1. ص 164

³ المصدر السابق. ج.1. ص 169

⁴ المصدر السابق. ج.1. ص 148

ويكثر الأدباء من استخدام متعلقات الحرب، فبهاء الدين السبكي، يصور كثرة الموت في طاعون 749هـ بأنه جيشٌ عظيم، فيقول فيه: " وقدم بعساكر اليتامى "1، وهي كناية عن هذه كثرة من ماتوا من الناس، الذين خلفوا أولاداً يتامى لا معيل لهم.

وبصور ابن الوردي الطاعونَ نفسه بالمحارب الذي يشهر سيفه للقتال، فيقول: " سلَّ هندياً في الهند "2، و يصور هجومة على بلدٍ آخر فيقول: " ثم غزا غزّة "3.

وبصور بعض الأدباء ما تفعله الكوارث الطبيعية، بمعدّات الأسر في الحروب، فالأسرى يُجرّون بحبال وأدوات تقودهم إلى حتفهم عند عدّوهم، يقول في أعراض الطاعون فيما تفعله بالإنسان الذي وقع تحت سطة المرض:

"فتجره إلى مصرعه بمقاود وأرسان"4

تبدو مصادر الصورة الفنية لدى أدباء الكوارث الطبيعية، تقليدية في العادة، كاستعانتهم بمظاهر الطبيعة الصامتة و المتحركة المعروفة و المستخدمة لدى الأدباء، وكذلك تصوير شدة الكارثة بالمعدّات الحربية.

واستعان الأدباء أيضا بموروثهم الأدبي والديني والعلمي،⁵ ومن الأمثلة على ذلك، ما أورده أبو شامة المقدسي من رسائل في نار المدينة المنورة، فيقول في أثر البركان على الناس، ولجوئهم إلى المسجد النوي: " وأتى الناس إلى المسجد من كل فج "6، ويظهر متأثراً بقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾⁷

¹ الصفدي، ألحان السواجع. ج.1.ص.109

² ابن الوردي، الديوان. ص.86

³ المصدر السابق. ص.87

⁴ الصفدي، ألحان السواجع. ج.1.ص.114

⁵ انظر المکتوب في التناص

⁶ أبو شامة ، الذيل على الروضتين. ص.192

⁷ سورة الحج. آية (27)

ومن الأمثلة على ذلك أيضا، توظيف الصفدي لعلم النحو في كتاباته، ففي إحدى رسائله، التي يصف فيها شدة البرد، يقول:

" ولا ينبعثُ لِعَمَلِ كَأَنَّ " إِنَّ "، وقد دخلت عليها ما الكافة " ¹، فالناس يتوقفون عن الحركة والعمل من شدة برد ذلك الشتاء، كما تتوقف كأن عن عملها، عندما تدخل عليها (ما).

ومن خصائص الصورة في أدب الكوارث الطبيعية، اتسامها بالواقعية، ومن ذلك، خوف الناس من أثر الكوارث، وخروجهم من مساكنهم، ² وتهدم مبانيهم وتضرر زراعتهم، ³ ولجوتهم إلى الله عز وجل للشكوى، والتشفع بنبيه الكريم ومدح خصاله، كونها ردة فعل طبيعية وواقعية لما حل بهم كوارث. ⁴

ومن خصائص الصورة أيضا الحركة، إذ إن كثيرا من النصوص الأدبية، عبرت عن حدوث حركة عنيفة، ساهمت في تصوير الكارثة، لا سيما في أثناء الزلازل والبراكين. ⁵

ومن الأمثلة على ذلك أيضا، قول ابن عبد الظاهر في زلزلة 702هـ:

"ورَقَصَتِ الحِيطَانُ على تصفيقُ السقوف " ⁶

فيختارُ الأديب هنا، أن يصورَ العمائر بصورة الإنسان الذي يرقص، بما يحمل هذا الفعل من دلالات حركية متنوعة الشدة والاتجاه، والسبب هو (تصفيق) السقوف، وهو يدلُّ على الحركة العنيفة التي أحدثتها الزلزلة.

ومما ورد أيضا، قول ابن الوردي في تلج دمشق وسيلها:

¹ الصفدي، ألحان السواجع. ج.1. ص.163

² انظر الآثار النفسية للكوارث الطبيعية في الفصل الثاني 47

³ انظر الآثار الاقتصادية للكوارث الطبيعية في الفصل الثاني 61-54

⁴ انظر في النتائج الإيجابية للكوارث الطبيعية في الفصل الثاني ص 85

⁵ انظر في عنف الكارثة وشدها ص 43

⁶ السيوطي، كشف الصلصلة. ص 53

قَدْ نُجِّتَ الْمَاءُ نَجًّا فَهُوَ مُنْسَكِبٌ وَرُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا فَهِيَ تَضْطَرِبُ¹

يلاحظ من البيت السابق، استخدام الشاعر لألفاظ تدلُّ على قوَّة الحركة والاضطراب، الذي أحدثه السيل الذي غمرَ نواحي من المدينة.

ويستعين الأدباء بخصيصة اللون، للتعبير عن صُوَرِهِم و إبرازها، ومن ذلك قول ابن الوردى في سيل دمشق:

مِنْ سَعْدِ جُلُوقِ أَنْ النَّائِبَاتِ بِهَا بِيضٌ وَفِي غَيْرِهَا مَا ابْيَضَّتْ النُّوبُ
لَا لِحُمْرَةِ سَيْلٍ فِي طَرَابُلُسَ هَذَا الْبَيَاضُ وَهَذَا الْمَنْظَرُ الْعَجَبُ
زُرُقُ الْأَعَادِي وَبِيضُ السُّحُبِ عَلَى دِمَشْقَ فَلَا كَانُوا وَلَا السُّحُبُ²

يستخدم ابن الوردى اللون الأبيض، لتصوير الكارثة التي حلت بدمشق، فعلى الرغم شدتها إلا أنها كانت أخف وطأة من غيرها، إذ إنَّ الثلج ورغم آثاره السلبية، إلا أنه لم يكن مثل سيل مدينة طرابلس، الذي استعان الشاعر باللون الأحمر، كي يَصوِّر الأثر الذي خلف هذا السيل، الذي جَرَف التربة معه، فأصبحت حمراء ما زاد ذلك في الأثر السلبي للسيل، وربما قصد الشاعر به أنه حصَد الضحايا في طريقه، ووظف ابن الوردى اللون الأزرق بصورة ذكيَّة، إذ إنَّ السماء وهي موطن المطر / الخير، ذات اللون الأزرق المعهود، أخذت صورة العدو للإنسان، وقرنتها بهذا اللون، الذي تحول إلى رمز للوَم، فلم تعد السماء طيبة خيرة كالمعهود.

وفي البيت التالي لما سبق ، يوظف ابن الوردى صورة سمعية في لوحته، فالرعود مزجرة، وفي ذلك إشارة منه إلى شدتها. بقول:

نَاهِيكَ مِنْ دِيمٍ فِي طَيْهَا زَغْبٌ وَزَمَجِرَاتٍ رَعُودٍ ضَمَّهَا رَهَبٌ³

والرعود التي صورها الشاعر بالأسود المزجرة، ما أضفى عنصراً آخر على اللوحة جعلتها ناطقةً بالصوت، أحدثت انهماكاً و انسكاباً للماء شديداً للماء، فاهتزت الأرض بقوة وكان زلزلةً حلت بها من وقع هذا السيل.

¹ ابن الوردى، الديوان. ص 182 . انظر أيضا ص 160

² المصدر السابق . 182

³ ابن الوردى، الديوان. ص 182

في هذا الأبيات، يصنع ابن الوردي لوحةً متضامّةً، صوّر فيها الظاهرة الطبيعيّة بالحيوان المفترس، وما في هذا التصوير من إشاراتٍ تدلُّ على الحركة، وعبر عن شدّتها باستخدام الألوان ذات الدلالات المتعددة، واستعان بالصورة السمعيّة، وما تحمله من دلالات نفسية تبعثُ على الخوف في نفس المتلقّي.

وفي موضعٍ آخر من الرسالة أيضاً، يقول: " كم زمجرت الرعودُ على الناس.. وقععت عليهم لَجّ صواهلها " ¹

يستخدم الشاعر هنا (الزمجرة)، إضافة إلى (الققععة) التي تطلقها هذه الظاهرة الطبيعيّة العظيمة، وكأنّ السيلَ ساحةً معركةٍ حامية الوطيس.

وكانت الرعود في فصول الشتاء القويّة، التي تحدثُ سيولاً ذات تأثير سلبيّ، أكثر الظواهر التي نالت اهتمام الأدباء بتصويرها سمعيّاً، ففي الصفدي في رسالة لابن فضل يقول: " وإن كانت الرعود تحاكي جوانح أعدائه، فيا طول ما تشهق وتفحق " ²

فالشهق والفحق، يقدّم صورةً سمعيّة للمتلقّي، وكأنّ الرعود تتنفّس بصوتٍ مسموع وسريع، يبعثُ على القلق.

واستعان بعض الأدباء بصور بصرية، مثل تصويرهم أعراض المرَض وأشكاله ³، أو صور شميّة، كتصوير الأدباء انتقال الطاعون عبر الهواء الفاسد، وكأنّه يشمّ المدينة التي يدخلها ⁴، لكنّ الصورة السمعيّة كانت أكثر الصور التي برزت في لوحات الأدباء الفنيّة، لما تعكسه من أجواء نفسية سيّئة، و آثار تدمير واسعة.

¹ ابن الوردي، الديوان. ص 185

² الصفدي، ألحان السواجع. ج.1. ص152

³ انظر: ص 67

⁴ انظر: انتشار الأمراض ص 40

الخاتمة

في نهاية دراستي لأدب الكوارث الطبيعيّة في العصر المملوكيّ الأول 648 - 784هـ، يظهر أنّ الأدب شعراً ونثراً، قد واكب جميع الكوارث التي حلّت في ذلك العصر، فقال الشعراء وكتب الأدباء، ولم يهتموا بكارثةٍ دون أخرى، بل كتبوا في معظم الكوارث الطبيعيّة التي عانوا فيها من قسوة الطبيعة، وأهمّ نتائج الدراسة هي:

- كشفت الدراسة عن تنوع الكوارث الطبيعيّة، فمنها: السيول، والثلوج، والزلازل، والبراكين، والطواعين، وغيرها، و عن أثر الكوارث الطبيعيّة العظيم في نواحي الحياة المختلفة، الاجتماعيّة والاقتصاديّة والسياسيّة والثقافيّة والأدبيّة، فقد أثّرت في نفوس الناس، وجعلتهم يهجرون موطنهم، فتنشردوا في البلاد، وعانوا من ارتفاع الأسعار، وانتشار الفقر، ومات عددٌ كبيرٌ من الناس في مناطق واسعة ومختلفة، من العامّة، والساسة، والعلماء، والأدباء، لكنّ الكوارث الطبيعيّة في الوقت نفسه، أثّرت في الحياة من ناحيةٍ إيجابيّة، جعلت بعض السلوكيات السلبية لدى العامّة والساسة تتغيّر نحو الأفضل، فلجئوا إلى الله تعالى في شكواهم، وأقلعوا عن ارتكاب المظالم والمحرمات، وأثّرت هذه الكوارث في نفوس كثيرٍ من الأدباء، جعلتهم يسجلون أدباً في هذه الوقائع.

- تنوّعت الموضوعات التي طرّقها أدب الكوارث الطبيعيّة، والفنون التي قيلت فيه، فقالوا الشعر، وكتبوا الرسائل، والخطب، والمقامات، وانتشرت القصص التي عبّرت عن هذه الكوارث، وعكست هذه النصوص صورةً عامّةً للكارثة، تمثّلت في تفسير الكارثة، وبيان مناطق انتشارها، و تصوير عنفها وشدّتها، وتبيان نتائجها، فبعض الأدباء عزا أسباب الكارثة إلى عوامل طبيعيّة، وبعضهم عزاها إلى بعد الناس عن الله سبحانه وتعالى، فكانت عقاباً منه على أفعالهم، وبعضهم رأى في كارثة، أنّها نبوءة من الرسول الكريم، و كارثة أخرى إلى أسباب غيبية تتعلّق بالجنّ، وتحدث الأدباء عن انتشار الكوارث الطبيعيّة، فبينوا أنّ بعضها كان في مناطق محدّدة، وبعضها كان عامّاً طامّاً، شمل مناطق شاسعة، وغير قارة من قارات العالم، وعكس بعض الأدباء صورة الكارثة العنيفة، التي كانت كالسيل الهادر، والحيوان

المفترس، فكانت قوّة جبارة لا ترحم، وقد كان للكوارث نتائج سلبية، منها ما كان نفسياً، تمثّل في انتشار القلق والخوف، وهرب الناس من مناطق سُكناهم، وشعورهم بالحزن و التشاؤم من الحياة، ومنها ما كان معنويّاً، تمثّل في تهدّم البنايات العامّة، والعمائر الثقافيّة، وإفساد الأراضي الزراعيّة، فقلّ الإنتاج، وزادت الأسعار، وعمّ الغلاء، وانتشرت الأمراض بين الناس، وكان هناك نتائج إيجابية، تمثّلت في العودة إلى الطريق القويم، فتوجّهوا إلى الله سبحانه وتعالى، تاركين ما نهى عنه، وتوجّهوا إلى رسوله، يتوسلون به كي يرفع الله عنهم العذاب.

- تعدّدت الخصائص الفنيّة التي اتّسم بها أدب الكوارث الطبيعيّة، فأظهرت بنية النصّ الأدبيّ، اختيار الأدباء مطالع تناسب موضوع الكارثة، وبعض الأدباء صدّروا نصوصهم بمقدّمات ثلاثم النصّ، كمقدّمات المديح النبويّ، وختموا نصوصهم بما يتوافق مع المطالع و المضمون. ووظّف الأدباء اللغة التي اعتمدت على القوّة والجزالة حيناً، وعلى السهولة والسلاسة حيناً آخر، ووظّفوا في بعض نصوصهم اللغة الشعبيّة الدارجة، واستخدموا أساليب متنوّعة، مثل التناص الدينيّ والأدبيّ ومصطلحات العلوم، والتكرار، والأسلوب الحواريّ، والأساليب الإنشائيّة المختلفة. ووظّف الأدباء الصنعة البديعيّة بكثرة، حتّى برزت في بعض النصوص بشكل مبالغ فيه، كالسجع و الجناس، ما يعكس اهتمام بعض الأدباء بالتنميق اللغويّ، الذي لا يتناغم مع إحساسهم بالكارثة، وصوّرت النصوص الكوارث، معتمدةً على التشبيه والاستعارة والكناية، و اعتمدت على مصادر مختلفة للصورة، من أهمّها الطبيعة الساكنة والمتحركة، وأدوات الحرب، وضمّنت خصائص مختلفة للصورة الفنيّة، كالواقعيّة، واللون، والحركة، و قامت بعض النصوص على لوحة متضامّة، برزت فيها الصورة الصوتيّة والحركيّة، بشكل لافت.

قائمة المصادر والمراجع

المصادر

القرآن الكريم

ابن الأثير الجزري، ضياء الدين نصر الله أبو الكرم: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر.

ج1. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1998

الإشبيلي، أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الكلاعي: إحكام صنعة الكلام في فنون النثر ومذاهبه

في المشرق والأندلس، حقه وقدّم له محمد رضوان الدّاية، ط2، بيروت: عالم الكتب.

1985.

امرؤ القيس، ديوان امرئ القيس. اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي، ط3، دار

المعرفة، بيروت، لبنان، 2000م.

الأندلسي، ابن هائي: ديوان ابن هائي. اعتنى به وحققه حمّو أحمد طمّاس، ط1. لبنان: دار

المعرفة، 2005.

ابن إياس، محمد بن محمد الحنفي: بدائع الزهور في وقائع الدهور. تحقيق ومقدمة: محمد

مصطفى. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1982

ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن عبد الله: رحلة ابن بطوطة. بيروت: دار التراث. 1968

البخاري، محمد بن إسماعيل: صحيح البخاري. ج7. بيروت: دار إحياء التراث.. 1405هـ

البغدادي، أبو الندى معد بن نصر الله بن رجب (المعروف بابن الصيقل الجزري) ت (701هـ):

المقامات الزينية. دراسة وتحقيق عباس مصطفى الصالحي. دار المسيرة. 1980

البوصيري، محمد بن سعيد الصنهاجي: ديوان البوصيري. ط1. بيروت: دار المعرفة. 2007.

بيبرس المنصوري، ركن الدين الخطائي: مختار الأخبار تاريخ الدولة الأيوبية ودولة المماليك البحرية حتى سنة 702هـ. حقق وقدم له ووضع فهرسه: عبد الحميد صالح حمدان. ط1. القاهرة: الدار المصرية اللبنانية. 1993م.

زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة. تحقيق دونالد س. ريتشارد. بيروت: الشركة المتحدة للتوزيع. 1998م.

تاج الدين عبد الوهاب السبكي. معيد النعم ومبيد النقم. ط1. بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية. 1986

ابن تغري بردي، جمال الدين أو المحاسن يوسف الأتابكي: النجوم الزاهرة في محاسن مصر والقاهرة. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1993.

الثعالبي، أبو المنصور عبد الملك بن إسماعيل: من غاب عنه المطر. تحقيق يونس أحمد السامرائي. ط1. بيروت: عالم الكتب. 1994.

الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز. التصميم: محمد عبده و محمد محمود الشنقيطي، التصحيح والتعليق: علي الحواس و السيد محمد رشيد رضا. د.ط. بيروت: دار المعرفة للطباعة والنشر. 1978.

ابن الجزري، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن إبراهيم الدمشقي: تاريخ حوادث الزمان وأبنائه ووفيات الأكابر والأعيان من أبنائه المعروف بتاريخ ابن الجزري، ج 2. تحقيق عمر بن عبد السلام التدمري. بيروت: المكتبة العصرية. 1998.

ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين أبو الفضل أحمد: الدرر الكامنة. القاهرة: دار الكتب الحديث. د.س

الحلي، صفي الدين: الديوان. د.ط. بيروت: دار صادر. 1990.

الحموي، ابن حجة : **بلوغ الأمل في فن الزجل**. تحقيق رضا محسن القريشي. د.ط. دمشق: منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي. 1974.

خزانة الأدب وغاية الأرب. شرحه: عصام شعيتو، الطبعة الأخيرة. بيروت: دار ومكتبة الهلال. 2004.

الحموي، ياقوت: **معجم البلدان**، تحقيق فريد عبد العزيز الجندي. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1990.

ابن حنبل، أحمد بن محمد: **مسند الإمام أحمد بن حنبل**. د.ط.بيروت: دار الفكر. د.س.

الحنبلي، أبو الفلاح بن عبد الحي ابن عماد: **شذرات الذهب في أخبار من ذهب**. ط2. بيروت: دار المسيرة العلمية. 1970.

ابن دانيال، شمس الدين محمد بن دانيال الموصللي الكحال: **المختار من شعر ابن دانيال**. اختيار الإمام صلاح الدين خليل بن أبيك الصفدي، حققه وعلّق عليه واستدرك أحمد نايف الديلمي، د.ط، الموصل: مكتبة بسام. 1979م.

ابن دقماق، **نزهة الأنام في تاريخ الإسلام**، دراسة وتحليل الدكتور سمير طبارة، بيروت: المكتبة العصريّة. 1999.

ابن دقماق، صارم الدين إبراهيم بن محمد بن أيدير العلّائي: **النفحة المسكية في الدولة التركية**. ط1. بيروت: المكتبة العصرية للطباعة والنشر. 1999.

الدواداري، أبو بكر بن عبدالله بن أبيك: **كنز الدرر وجامع الغرر**. الجزء الثامن، الدرّة الزكية في أخبار الدولة التركية. تحقيق هاني روبرت روبرت. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة. 1391هـ.

كنز الدرر وحامع الغرر. الجزء التاسع، الدرّ الفاخر في سيرة الملك الناصر. تحقيق

هانى روبرت رويمر. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة. 1391هـ.

الذهبي، شمس الدين أبو عبد الله بن أحمد بن عثمان التركماني الذهبي: تاريخ الإسلام ووفيات

المشاهير والأعلام. تحقيق عبد السلام تدمري. بيروت: دار الكتاب اللبناني. 1998

دول الإسلام. ط2. حيدر أباد: مطبعة جمعية دار المعارف العثمانية. 1365هـ.

العبر في أخبار من عبر. ط1. بيروت: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع. 1997.

ابن رشيق القيرواني، أبي علي الحسن: العمدة في محاسن الشعر وآدابه. بيروت: دار الكتب

العلمية. 2001.

السبكي، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب ابن تقي الدين: طبقات الشافعية الكبرى. بيروت: دار

المعرفة.

السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن، ت902هـ: وجيز الكلام في الذيل على دول

الإسلام. تحقيق بشار عواد معروف، عصام فارس الحرستاني، أحمد الخطيمي. ط1.

بيروت: مؤسسة الرسالة. 1995.

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر: تاريخ الخلفاء. ط3. بيروت: دار الجيل. 1993

حُسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة. بيروت: دار الكتب العلمية. 1997

كشف الصلصلة عن وصف الزلزلة. تحقيق عبد اللطيف السعداني. الرباط: وزارة

الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصيل. 1971

أبو شامة المقدسي، شهاب الدين أبو القاسم الدمشقي: تراجم رجال القرنين المعروف بالذيل على

الروضتين. ترجمة محمد زاهد بن الحسن الكوثري. مراجعة عزت العطار الحسيني

ط2. بيروت: دار الجيل. 1974

شهاب الدين محمود، أبو التثاء بن سلمان الحلبي الحنفي : حسن التوسّل إلى صناعة الترسّل.

تحقيق أكرم عثمان يوسف .بغداد: دار الحرية 1980.

الصرصري،جمال الدين يحيى بن يوسف :الديوان. تحقيق مخيمر صالح.إربد: جامعة اليرموك
عمادة البحث العلمي والدراسات العليا.د.س.

الصعدي، عبد المتعال: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة. د.ط. القاهرة: مكتبة
الأداب. 1999.

الصفدي، صلاح الدين خليل بن أيك: أعيان العصر وأعوان النصر. تحقيق علي أبو زيد ونبيل
أبو عمشة و محمد موعد و محمود سالم محمد. بيروت: دار الفكر المعاصر.

ألحان السواجع بين البادئ والمراجع. تحقيق محمد عايش . ط1. بيروت :دار
الكتب العلمية.2007

تحفة ذوي الألباب فيمن حكم دمشق من الخلفاء والملوك والنواب. تحقيق إحسان بنت
سعيد خلوصي وزهير حميدان الصمصام. ط1.دمشق: منشورات وزارة الثقافة.1992.

الوافي بالوفيات.ج1. تحقيق هلموت ريتز. لبنان: دار الفكر. 1991م.

الوافي بالوفيات.ج4، ج6 تحقيق س.ديدرينغ. لبنان: دار الفكر. 1991م.

الوافي بالوفيات.ج7. تحقيق إحسان عباس. لبنان: دار الفكر. 1991م.

الوافي بالوفيات.ج8. تحقيق محمد يوسف نجم. لنان: دار الفكر. 1991م

الوافي بالوفيات. ج10. باعتناء جاكلين سوبلة وعلي عمارة. دار الفكر. 1991م

الوافي بالوفيات. ج12. تحقيق رمضان عبد التواب. دار الفكر. 1991م

الوافي بالوفيات. ج 15.تحقيق بيرند راتكة. دار الفكر. 1991م

الوافي بالوفيات . ج17 . تحقيق دوتيا كرافوسكي . دار الفكر . 1991

الوافي بالوفيات. ج 18. تحقيق أيمن فؤاد سيّد. دار الفكر. 1991م

الوافي بالوفيات. ج 22. تحقيق رمزي بعلبكي. دار الفكر. 1991م

الطائي، حبيب بن أوس: ديوان أبي تمام، تحقيق محمد عزام، القاهرة: دار المعارف. 1994

ابن طباطبا، محمد أحمد: عيار الشعر. بيروت: دار الكتب العلمية . 1982.

عبد السلام هارون : المعجم الوسيط . أخرجه جماعة . مطبعة مصر . 1380هـ.

العسقلاني، الحافظ أحمد بن علي بن حجر: بذل الماعون في فضل الطاعون. ط1. تحقيق أحمد عصام عبد القادر الكاتب. الرياض: دار العاصمة. 1411 هـ.

العيني، بدر الدين محمود: عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان. ج8. حققه ووضع حواشيه محمد أمين. القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1987.

الفاخري، بدر الدين بكتاش: تاريخ الفاخري. تحقيق عمر بن السلام تدمري. ط1. بيروت: المكتبة العصرية. 2010.

أبو الفداء، إسماعيل بن علي بن أيوب: المختصر في تاريخ البشر المعروف بتاريخ أبي الفداء، بيروت: دار المعرفة. د.س

ابن الفرات ، ناصر الدين محمد عبد الرحيم: تاريخ ابن الفرات. ج8. حققه قسطنطين زريق و نجلا عز الدين. بيروت: المكتبة الأمريكية. 1948.

ابن قزل، سيف الدين بن المشد: الديوان. تحقيق مشهور عبد الرحمن الحبازي . القدس : مركز التعاون والسلام الدولي . 2003

القلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي: **صبح الأعشى في صناعة الإنشا**. مصر: منشورات وزارة الثقافة والارشاد القومي. 1963

الكتبي، ابن شاکر: **فوات الوفیات والذیل علیها**. تحقيق إحسان عباس. بيروت: دار صادر. 1973

ابن كثير، عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر: **البداية والنهاية**. بيروت: مكتبة المعارف. 1977.

مؤلف مجهول: **عصر سلاطين المماليك**. بيروت: دار القلم. 1980.

المتنبي: **الديوان**، اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي، ط3، دار المعرفة، بيروت، 2008.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي المقريزي: **إغاثة الأمة بكشف الغمة**. دراسة وتحقيق كرم حلمي فرحات. القاهرة: عين للدراسات. 2007.

السلوك لمعرفة دول الملوك. ج3، ق1. صححه ووضع حواشيه سعيد عبد الفتاح عاشور. ط2. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة. 1970.

السلوك لمعرفة دول الملوك. تحقيق محمد مصطفى زيادة. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف والترجمة. 1970.

المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار المعروف بالخطط المقريزية. تحقيق محمد زينهم و مديحة الشرقاوي. القاهرة: مكتبة مدبولي. 1997.

ابن منظور ، **لسان العرب** . د.ط . القاهرة : دار الحديث . 2003

الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد النيسابوري: **مجمع الأمثال**. حققه محمد محيي الدين عبد الحميد. ط2. بيروت: دار المعرفة. 1959.

النويري، شهاب الدين بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب. تحقيق الباز العريني.
القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1992.

أبو هلال العسكري، الحسن بن عبد الله بن سهل: الصناعتين الكتابة والشعر. حققه وضبط نصه
مفيد قمحية. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية. 1981.

الوآء، أبو الفرج محمد بن أحمد الغساني: الديوان. تحقيق سامي الدهان. ط2. بيروت:
دار صادر. 1993.

ابن الوردي، زين الدين عمر بن مصطفى: تاريخ ابن الوردي. ط1. القاهرة: دار الكتب
العلمية. 1996م.

الديوان. تحقيق أحمد فوزي الهيب. ط1. الكويت: دار القلم. 1986.

اليوسفي، موسى بن محمد بن يحيى نزهة الناظر في سيرة الملك الناصر. تحقيق ودراسة
د. أحمد خطيط. ط1، بيروت: عالم الكتب. 1986.

المراجع

أنيس، إبراهيم: موسيقى الشعر. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية. 1978.

باشا، عمر موسى: الأدب في بلاد الشام. ط2. دمشق: المكتبة العباسية. 1978.

بكار، يوسف حسين: بناء القصيدة العربية. د.ط، القاهرة: دار الثقافة للطباعة والنشر،، 1979.

سلام، محمد زغلول: الأدب في العصر المملوكي الدولة الأولى (648-783هـ). القاهرة: دار
المعارف. 1994.

السمايل، عبد الرحمن إسماعيل: المعارضات الشعرية دراسة تاريخية نقدية. جدّة: النادي
الأدبي الثقافي. ط1. 1994.

صالح، مخيم: المدائح النبوية بين الصرصري والبوصري، ط 1. بيروت: دار ومكتبة الهلال.
1986.

عبد الرحيم ، رائد مصطفى : فن الرثاء في العصر المملوكي . عمان : دار الرازي . 2003.

عتيق، عبد العزيز: علم المعاني. د.ط، دار النهضة العربيّة. بيروت. 1985.

عصفور، جابر: الصورة الفنيّة. ط2. دار التنوير للطباعة والنشر، بيروت. 1983.

قليقة، عبده عبد العزيز: النقد في العصر المملوكي. ط1. القاهرة: مكتبة الأنجلو. 1972.

محمد، محمود سالم: المدائح النبوية حتى نهاية العصر المملوكي. د.ط. بيروت: دار الفكر
المعاصر، دمشق: دار الفكر. 1996.

الميموني، حامد عباس الميموني: الحياة الاقتصادية في مصر العليا خلال العصر المملوكي.
القاهرة: مكتبة الآداب. 2005.

الهييب، أحمد فوزي: الحركة الشعرية زمن المماليك في حلب الشهباء. ط1. بيروت: مؤسسة
الرسالة. 1986.

الرسائل الجامعية

أبو زيتون، منال أحمد إبراهيم: المجاعات في مصر وبلاد الشام في العصر المملوكي (رسالة
ماجستير غير منشورة). جامعة اليرموك. إربد. الأردن. 1998.

سبيناتي، هناء علي: صورة المجتمع في العصر المملوكي. (رسالة دكتوراة غير منشورة).
جامعة دمشق. 2006 - 2007.

الدوريات

داغر، شربل: التناص سبيلاً إلى دراسة النص الشعري وغيره، مجلة فصول. القاهرة: الهيئة
المصريّة العامة للكتاب. مج12. 1997 / 140

عبد الرحيم، رائد مصطفى حسن: رسالة " النبا عن الوبا " لزين الدين ابن الوردي ت
(749هـ) دراسة نقدية، مجلة النجاح للأبحاث (العلوم الإنسانية). ع5. م 24. 2009

المختار، حسني: نظرية التناص، مجلة علامات في النقد ج 3. مج9. 2000م / 243

المخطوطات

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن أبي بكر ت (911هـ). رسالة في الأحاديث الواردة في
الطاعون وسببه . مكتبة مصطفى الإلكترونية

**An-Najah National University
Faculty of Graduate Studies**

**Literature of natural disasters in the
Mamluk period (648-784) Higreyah
Technical study and objective**

**By
Isra Abdel Jabbar Thyab Kalash**

**Supervised by
Dr. Ra'ed Mustafa Abdel Raheem**

**This Thesis is Submitted in Partial Fulfillment of the Requirements for
the degree of master of Arabic, Faculty of Graduate Studies An-Najah
National University, Nablus ,Palestine.**

2013

**Literature of natural disasters in the Mamluk period (648-784)
Higreyah Technical study and objective**

By

Isra Abdel Jabbar Thyab Kalash

Supervised by

Dr. Ra'ed Mustafa Abdel Raheem

Abstract

This study addressed the issue of the natural disasters literature in the first Mamluk era (784 – 648 Hijri). Natural disasters have always been a cause of concern and confusion for those who have witnessed them over the course of the human history. In the first Mamluk era, a variety of natural disasters have occurred including: Snow, torrents, lightning and earthquakes, volcanoes and plagues all of which have had countless impacts on people's social, political, economic, cultural and literary life.

The great number of natural disasters that struck the Mamluk state in its first era, the diversity of literary arts around back at that time and the absence of a comprehensive, independent study were the main reasons for choosing this subject.

The study used the inductive, descriptive, analytical and aesthetic approach, and relied on history and its events in analyzing poetry and linking it with the events of the disaster and its results. This method helped comprehend some of the literary texts.

The study consisted of the following:

The first chapter: Included a discussion of the social, economic, political and cultural impacts of natural disasters, both from the positive and negative perspectives.

The second chapter: Addressed the objective study of the natural disasters literature.

The third chapter: Studied the artistic characteristics of the natural disasters literature in terms of the structure of the literary text, language, methods, al-badi', and the artistic image.

The conclusion: Included a summary of the main results of this study.